سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ (٧)



شرح
كتاب الفرقان
بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

لشيخ الإسلام
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية
أجزل الله له المثوبة والمغفرة

الشرح لمعالي الشيخ
صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته

تحقيق وعناية
عادل بن محمد مرسي رفاعي
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه





مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

شرح

كتاب الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان



عنوان المصنف: شرح كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

تحقيق: **عادل محمد مرسي رفاعي**

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٥٧٠١

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٥٢٣٢-١٢-٠

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ



للنشر والتوزيع

الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٢٤١٧ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣

الإسكندرية - ١٧٥ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١

القاهرة - ٦ش المدرسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢

جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩

البريد الالكتروني: dar_alhijaz@hotmail.com

سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ (٧)

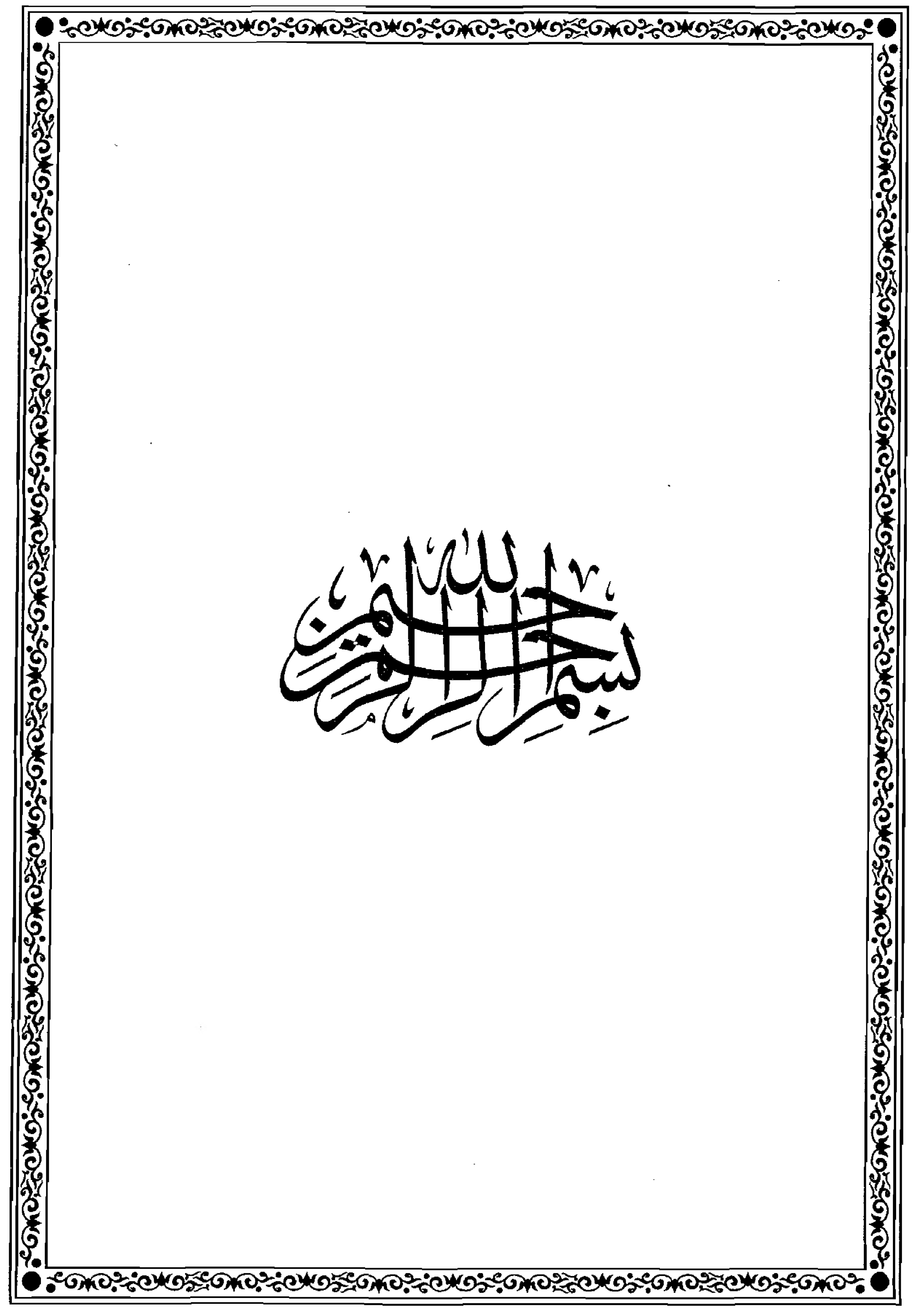
شرح كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

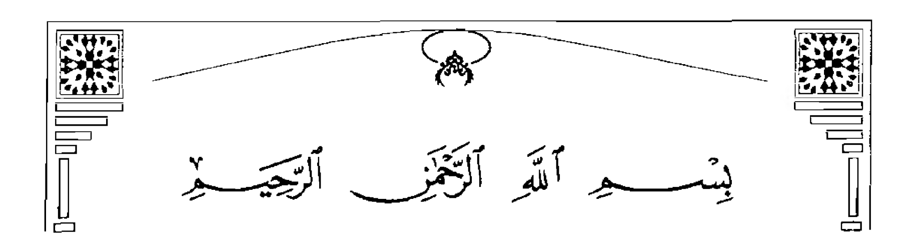
لشيخ الإسلام
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
أجزل الله له المثوبة والمغفرة

الشرح لمعالي الشيخ
صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته

تحقيق وعناية
عادل بن محمد مرسي رفاعي
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه وبعد. . .،

فهذا شرح:

كتابِ الفرقانِ بَيْنَ أَوْلِياءِ الرَّحْمَنِ وأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ

لِشَيخِ الإسْلامِ تَقِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلامِ بْنِ تَيْمِيَّةَ

أَجْزَلَ اللهُ لَهُ المَثُوبَةَ وَالمَغْفِرَةَ

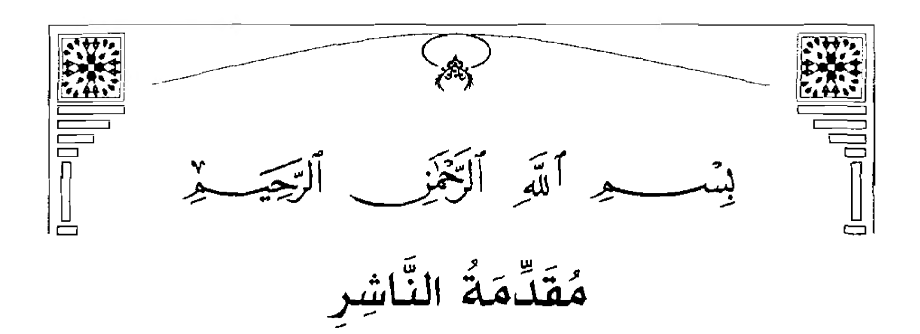
الشَّرْحُ لمَعَالِي الشَّيْخِ

صَالِحِ بنِ عَبْدِ العَزِيْزِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ آلِ الشَّيْخِ

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلأَهْلِ بَيْتِهِ

وكان ذلك في دروس ألقاها شيخنا العلامة الحبر - حفظه الله - في جامع االأميرة حصة السديري بالرياض، ابتداءً من يوم الخميس السادس عشر من جمادى الآخرة لعام ستة عشر وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية المباركة، وخُتمت في يوم الخميس الثامن عشر من شعبان لعام ثمانية عشر وأربعمائة وألف.





مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه وبعد...،

فقد بعث الله محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل، وفي جاهلية جهلاء، وعلى حين تفرق من الناس، فأنعم الله عليهم بأن بعث إليهم نبي الهدى ورسول الرحمة ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وأظهر الله دينه، وجمع عليه المسلمين أمة واحدة، اجتمعت قلوبهم على الصراط المستقيم، وألف بينهم بهذه النعمة العظيمة.

وواصل الخلفاء الراشدون المهديون مسيرة الهدى والرشاد، يبلغون دين الله ﷻ مجتمعين أمة واحدة، ثم حدث ما أخبر به رسول الله ﷺ من الفتن، وظهورها في الأمة، وافترقت الأمة المسلمة بسبب هذه الفتن، ومع كثرة المحدثات وغلبة الجهل أصبح الإسلام غريبًا، وتفرقت كلمة المسلمين؛ فصاروا فرقًا كثيرة بعد أن كانوا أمة واحدة، كما هو حاصل اليوم، وطريق العودة إلى وحدتهم بيِّن واضح، وهو طريق السلف الصالح جيلًا بعد جيل، دون من وصف بالبدعة كالروافض والخوارج، وغيرهما من أهل البدع المذمومة.

ومع غربة هذا الدين، وكلما جاء زمان كان الذي بعده شرًا منه، كانت

غربة الإسلام فيه أشد؛ كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»(١).

ولما جعل رب العالمين دين محمد ﷺ باقيًا إلى قيام الساعة، فلم تخلُ الأرض من قائم له بحجته أبدًا؛ كما روى مسلم في صحيحه: «لاَ يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»(٢). وكذا روى البخاريُّ في المناقب عن معاوية رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، مَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ، وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»(٣).

وممن يقيم الحجة لله على خلقه الأئمة المجددون، فكلما جاء قرن من القرون التي تنطمس فيها معالم الدين، ويكاد أن تتعطل معظم أصوله ودعائمه؛ من تلاعب الجهال به، وموت العلماء، وارتفاع أهل الجهل وترؤسهم، بعث الله ﷻ لهم من يجدد لهم دينهم، ويردهم إلى ما كانوا عليه، أي: ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وأهل القرون المفضلة، بالدعوة والتعليم، وحسن القدوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ مصداقًا للحديث الشريف الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٢) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٦٠) من حديث معاوية رضي الله عنه.
(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا الحديث إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات، وقد صححه الحاكم والحافظ العراقي والسخاوي، وقال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، حديث صحيح، والسند صحيح رجاله ثقات رجال مسلم.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في خطبة كتابه (الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله): الحمد لله الذي امتنَّ على العباد؛ بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه! وكم من ضال تائه قد هدوه! بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد، فما أحسن أثرهم على الناس! وأقبح أثر الناس عليهم! ينفون بكتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وقد قيض الله ﷻ لهذه الأمة مجدد القرن السابع علم الأعلام، وشيخ الإسلام، وإمام المسلمين، ومجدد معالم الدين في عصره ناصر السنة، وقامع البدعة:

شَيخِ الإِسْلامِ تَقِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلامِ بْنِ تَيْمِيَّةَ

أَجْزَلَ اللهُ لَهُ المَثُوبَةَ وَالمَغْفِرَةَ

الذي نازل فرق الضلالة على تنوعها في زمانه: من جهمية، ومعتزلة، وأشاعرة، وصوفية، ورافضة. فتصدى لهم رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان سيفًا مسلولًا على المخالفين، وإمامًا قائمًا ببيان الحق ونصرة الدين، فانبرى للرد عليهم وتفنيد أقوالهم، ولم ينشغل بمناقشة فرقة منهم دون الأخرى، وهو كما ذكره تلميذه

العلامة ابن القيم ﵀ في النونية[1]:

وَلَهُ المَقَامَاتُ الشَّهِيرَةُ فِي الوَرَى ... قَدْ قَامَهَا لِلَّهِ غَيرَ جَبَانِ
نَصَرَ الإِلَهَ وَدِينَهُ وَكِتَابَهُ ... وَرَسُولَهُ بِالسَّيفِ وَالبُرهَانِ
أبدَى فَضَائِحَهُم وَبَيَّنَ جَهلَهُم ... وَأرَى تَنَاقُضَهُم بِكُلِّ زَمَانِ
وَأصَارَهُم وَالله تَحتَ نِعَالِ أَهْـ ... ـلِ الحَقِّ بَعدَ مَلاَبِسِ التِّيجَانِ
وَأصَارَهُم تَحتَ الحَضِيضِ وَطَالمَا ... كَانُوا هُمُ الأعلاَمَ لِلبُلدانِ
وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّهُ بِسِلاَحِهِم ... أردَاهُمُ تَحتَ الحَضِيضِ الدَّانِي
كَانَت نَوَاصِينَا بِأيدِيهِم فَمَا ... مِنَّا لَهُمْ إِلَّا أسِيرٌ عَانِ
فَغَدَت نَوَاصِيهِم بِأيدِينَا فَلاَ ... يَلقَونَنَا إِلَّا بِحَبلِ أمَانِ
وَغَدَت مُلُوكُهُمُ مَمَالِيكًا لأنـ ... ـصَارِ الرَّسُولِ بِمِنَّةِ الرَّحمَنِ
فَاقرَأ تَصَانِيفَ الإِمَامِ حَقِيقَةً ... شَيخِ الوُجُودِ العَالِمِ الرَّبَّانِي
أعنِي أبَا العَبَّاسِ أحمَدَ ذَلِكَ الـ ... ـبَحرُ المُحِيطُ بِسَائِرِ الخِلجَانِ

فشيخ الإسلام ﵀ يعد مدرسة علماء الأمة، ولو لم يكن من حسناته إلا تلميذه العلامة ابن القيم لكفاه، فكيف وقد خلف أئمة كبارًا، كابن عبد الهادي، وابن كثير، والذهبي، والبزار، وابن سيد الناس، والبرزالي،

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٢٩٢).

وابن الزكي، وغير هؤلاء كثير من كبار المحدثين والفقهاء. فرحمه الله رحمة واسعة، وأجزل له المثوبة والأجر، وجمعه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

وقد قام شيخنا العلامة الحبر/

صَالِحِ بنِ عَبْدِ العَزِيْزِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ آلِ الشَّيْخِ

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلأَهْلِ بَيْتِهِ

بشرح كتابِ **الفرقانِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ**، والذي يعد علامة مميزة لأهل السنة والجماعة، الذين هم وسط بين فرق الأمة بين الغالي والجافي، وزاد في أهمية هذا الكتاب تبحر شيخنا - حفظه الله - في فهم كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، ومعرفة مقاصده، وتوضيح معاني كلامه أتم توضيح وبيان، فجاء هذا الشرح مملوًّا بالفوائد على عادة شيخنا - وفقه الله - الذي تميز بعلو كعبه في أنواع العلوم والفنون بعامة، وعلم العقيدة بخاصة.

وقد استأذنت شيخنا بالعمل على هذا الشرح المبارك فأذن جزاه الله عنا خير الجزاء.

فأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرفع بهذا الشرح المبارك ذكره، وأن يعلي درجاته، وأن يجزل لشيخنا الأجر والمثوبة، وأن يجعله إمام هدى ورشاد، وأن يجمعه وشيخ الإسلام ووالديه وأهل بيته تحت لواء الحمد، وفي جنات النعيم، وفي زمرة السابقين مع النبي الأمين، وصحابته الغر الميامين، وأن يقيه شر الحاسدين، وأن يجعل لي من الخير نصيبا، وأن يجزي كل من

شارك في إعداد هذا العمل المبارك خير الجزاء وأحسنه . وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

✎ كتبه

عادل بن محمد مرسي رفاعي

الرياض ١٦/٨/١٤٣١هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَنَشْهَدُ[(١)] أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، فَهَدَى بِهِ مِنْ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ بِهِ مِنْ الْعَمَى، وَأَرْشَدَ بِهِ مِنْ الْغَيِّ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَفَرَقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالرَّشَادِ وَالْغَيِّ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ، وَالسُّعَدَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالْأَشْقِيَاءِ أَهْلِ النَّارِ، وَبَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ، فَمَنْ شَهِدَ لَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ

---

(١) في بعض النسخ المطبوعة (وأشهد)، وهي الموافقة لألفاظ حديث خطبة الحاجة، ونقل ابن القيم رحمه الله عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: «لما كانت كلمة الشهادة لا يتحملها أحد عن أحد، ولا تُقبل النيابة بحال أفرد الشهادة بها، ولما كانت الاستعانة والاستعاذة والاستغفار يقبل ذلك فيستغفر الرجل لغيره، ويستعين الله له، ويستعيذ بالله له، أتى فيها بلفظ الجمع؛ ولهذا يقول: اللهم أعنا وأعذنا واغفر لنا... إلى أن قال: وفيه معنى آخر وهو أن الاستعانة والاستعاذة والاستغفار طلب وإنشاء، فيُستحب للطالب أن يطلبه لنفسه ولإخوانه المؤمنين، وأما الشهادة فهي إخبار عن شهادته لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، وهي خبر يطابق عقد القلب وتصديقه، وهذا إنما يخبر به الإنسان عن نفسه لعلمه بحاله بخلاف إخباره عن غيره، فإنه إنما يُخبر عن قوله ونطقه لا عن عقد قلبه، والله أعلم». انظر: تهذيب السنن لابن القيم (٣/ ٥٤).

بِأَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ، وَمَنْ شَهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ. وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَنَّ لِلَّهِ أَوْلِيَاءَ مِنَ النَّاسِ وَلِلشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ، فَفَرَّقَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

الشـــرح:

الحمد لله الذي بعث محمدًا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا.

فأسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن إذا أُعْطي شكر، وإذا ابتُلي صبر، وممن إذا أذنب استغفر، وأسأله ﷻ أن يعيذنا من مضلات الفتن، وأن يجعلنا من الذين اهتدوا بهداه، اللهم إنا نعوذ بك أن نَضل أو نُضل أو نَزل أو نُزل، أو نَجهل أو يُجهل علينا.

أما بعد:

هذا الكتاب كتبه شيخ الإسلام رحمه الله لبيان ضلال طوائف من غلاة الصوفية في مسائل الولاية والأولياء، وبيَّن في هذا الكتاب الفرق البين بين ولي الله وولي الشيطان، وسمى كتابه: (**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء**

الشيطان). فطوائف الضلال في هذا الباب لهم أقوال، ولهم آراء، ولهم شبه كثيرة في مسألة الولاية، وفي مسألة الاعتقاد في الأولياء، وهذا الكتاب فيه ذكر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، يعني الفاصل والفصل، وما يميز هذا من هذا، والأصل في الفرق هو قول الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وإذا كان كذلك فإن أولياء الله هم المؤمنون المتقون، والإيمان يتبعض، والناس ليسوا فيه سواء، وكذلك التقوى تتبعض، والناس ليسوا في التقوى سواء، فحصل من ذلك أن ولاية الله ﷻ لعباده المؤمنين المتقين ليست واحدة، بل متفاضلة، فالله ﷻ يحب المؤمن المتقي بعامة، ومن كان أكثر إيمانًا وتقوى كان أحب إلى الله ﷻ، وهذا من جهة محبة الله ﷻ للعبد؛ فإن كل مؤمن تقي له نصيب من ولاية الله ﷻ، وله نصيب من محبة الله ﷻ ونصرته بحسب ما معه من الإيمان والتقوى، وكذلك إذا كان معه عصيان، وبدع، وضلال، وفجور، وفسوق، فله نصيب من بغض الله ﷻ وعداوته له.

قوله: **(وَنَشْهَدُ)**: فيه جواز ذلك؛ لأن من الناس من قال: الأفضل أن يتكلم المرء عن نفسه فيقول: وأشهد، وألا يأتي بنون الجمع الدالة على نفسه وعلى غيره؛ لأن الشهادة أمرها باطن، ولكن هذا جائز، يقول عن نفسه وعن غيره أيضًا باعتبار ظاهر الحال[1].

---

(١) وقد استخدم هذا اللفظ (وَنَشْهَدُ) جمع من أهل العلم، منهم: أبو الحسن الأشعري في مقدمة كتابه الإبانة، واللالكائي في مقدمة كتابه شرح أصول اعتقاد أهل السنة، والبيهقي في مقدمة كتابه دلائل النبوة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ في هذه الآية أن الأولياء هم الذين آمنوا وكانوا يتقون؛ ولهذا عرف جماعة من أهل العلم الولي: بأنه كل مؤمن تقي ليس بنبي[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ هم الأولياء، والإيمان والتقوى يتفاضلان، الإيمان يزيد وينقص ويتفاضل أهله فيه، وكذلك التقوى يتفاضل أهلها فيها، فيكون إذًا وصف الوَلاية يتفاضل أهله فيه، فالأولياء ليسوا على مرتبة واحدة، ولكن صار غالبًا في الاصطلاح أن الولي هو المؤمن الذي كَمَّلَ التقوى حسب استطاعته، وليس مَنْ عنده شيء مِنْ الإيمان وشيء من التقوى يكون وليًا، وإن كان كل مؤمن تقي له وَلاية بحسب ذلك، ففرق بين الاسم - اسم الولي - وبين الولاية.

فالولاية التي هي محبة الله لعبده ونصرته له هذه تكون بقدر ما عنده من الإيمان والتقوى. وأما اسم الولي فالآية دلت على أن من عنده إيمان وتقوى فهو من الأولياء، لكن في الاصطلاح إذا قيل: الأولياء، فهم العباد الصالحون الذين كمَّلوا التقوى بحسب استطاعتهم أو بحسب حالهم، فلا يدخل فيه من خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

---

(١) انظر: منهاج السنة (٧/ ٢٨)، وفتاوى مهمة لعموم الأمة لسماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله (ص٨٤).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: ٤٤].

الشـــرح:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ هذا التولي المُكفر، وهو نصرة الكافر على المسلم في حال الحرب بقصد ظهور الكفر أو بقصد سلامة النفس دون سلامة الإسلام، ويدل على هذا التفسير قوله ﷻ في الآيات

نفسها: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾، فقوله ﷻ: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ يعني: في توليهم ونصرتهم، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾.

قوله ﷻ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ دل على أن المقصود بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ يعني: في حال القتال والنصرة.

قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ يعني: خرج عن الدين؛ لأنه نصرهم في حال قتالهم لأهل الإسلام[1]، وقد استشهد شيخ الإسلام ﵀ بالآية للدلالة على معنى الوَلاية، وأن الوَلاية هي المحبة والنصرة، فقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: أحبابًا ناصرين تنصرونهم وتتناصرون معهم، وقوله ﷻ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: بعضهم ينصر بعضًا وبعضهم يحب بعضًا.

أما في قصة حاطب ﵁[2]، فإنه قد حصل منه مسارعة في إفشاء السر والإخبار بعزم الرسول ﷺ على إتيان مكة، فلما قال عمر ﵁ للنبي ﷺ: **«يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ»**، قال ﷺ: **«مَا حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟»**، فاستفصاله ﷺ دالٌ على اعتبار القصد، وقد علل حاطب ﵁ بأمر دنيوي، فَقَالَ للنبي ﷺ: **«يَا رَسُولَ اللَّهِ، لاَتَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ**

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٧٦)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢١٧)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٦٩).

(٢) حاطب بن أبي بلتعة ﵁ صحابي جليل شهد بدرًا وقصته أخرجها البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وانظر تفسير القرطبي (١٨/ ٥٢)، وأحكام القرآن للجصاص (٥/ ٣٢٥)، والدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٤٧٣).

مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلا ارْتِدَادًا، وَلا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ صَدَقَكُمْ، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، فدل هذا على أنه لم يقصد ظهور الكفر على الإسلام، وإنما قصد حماية المال والنفس، وهذا راجع إلى أمر الدنيا، وليس راجعًا إلى أمر الدين، فيكون التولي أو الموالاة[1] بهذا المعنى محرمًا وضلالًا عن سواء السبيل، لكن ليست مكفرة[2]؛ وذلك لقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

قال العلماء: أثبت أنهم ألقوا المودة ومع ذلك ناداهم باسم الإيمان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومع ذلك قال في آخرها: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، فدل على أن هذا الفعل - وهو الموالاة بهذا المعنى - محرم وضلال عن سواء السبيل، ولكن لا يخرج عن اسم

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب (١٥/ ٤١١): «تولاه: اتخذه وليًا، وإنه لبين الولاة والولية والتولي والولاء والوَلاية والوِلاية، والولي القرب والدنو» ا.هـ. وانظر مختار الصحاح (ص٣٠٦).

(٢) سُئل الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن عن الفرق بين الموالاة والتولي، فأجاب ﵀: «التولي كفر يخرج من الملة، وهو كالذب عنهم، وإعانتهم بالمال والبدن والرأي، والمولاة كبيرة من كبائر الذنوب؛ كبل الدواة، أو بري القلم، أو التبشش لهم، أو رفع السوط لهم» ا.هـ. انظر: الدرر السنية (٨/ ٤٢٢).

الإيمان، ولكنه إذا نصر الكفار مرجِحًا سلامة نفسه على سلامة الإسلام هنا يكفر ولو بالفعل، ففرق بين أن يُسِّر إليهم بشيء أو يمدهم بمال ونحو ذلك، وبين فعل شيء فيه نصر لهم على المسلمين، يعني: يفعل شيئًا معه نصر للكفر على الإسلام أو ظهور للكفار على المسلمين؛ ولهذا في «نواقض الإسلام» لإمام الدعوة[(١)] ﷺ ذكر من النواقض: مظاهرة المشركين على المسلمين، والمظاهرة لفظ له هذا المعنى السابق، وهذا بحث له موطن آخر بتفصيله، وهذه الآيات السالفة كلها إما في بيان أولياء الرحمن، أو في معنى الوَلاية.

والوَلاية - كما سبق - هي المحبة والنصرة، فقوله ﷻ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: النصرة الكاملة والمحبة إنما هي لله ﷻ الحق ﷻ، فمن أحب شيئًا دون الله ﷻ وتعلق قلبه به، خذل من جهته، وكذلك من طلب النصر من غير الله ﷻ وتعلق القلب بذلك، خذل من جهته، ومن تعلق قلبه بالله وانتصر كفاه، وهذا هو معنى قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعني: إنما محبكم وناصركم الله ورسوله والذين آمنوا، وهذا هو الواجب أن تكون ولاية المؤمنين في الله ﷻ ولله.

(١) انظر: مجموع مؤلفات الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ﷺ (٣/ ١١٨).

وَذَكَرَ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، **إلى قوله:** ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧ - ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]. **وقال الخليل** عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، **إلي قوله تعالى:** ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة١: ٥]

الشـــرح:

هذا كله استدلال بالآيات على هذه التسمية، وكأنه استحضر رحمه الله من يقول له: من أين أتيت بهذه التسمية (أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)؟ فأتى بالآيات التي تدل على أن للرحمن أولياء، وعلى أن للشيطان أولياء. وهي خطبة للكتاب، يعني مقدمة.

فَصْلٌ

وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ النَّاسَ فِيهِمْ «أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ» فَيَجِبُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كَمَا فَرَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بَيْنَهُمَا، فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١] وَغَيْرُهُ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ»[٢] - أَوْ: فَقَدْ آذَنْته بِالْحَرْبِ - «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»، وَفِي رواية[٣]: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنهُ، وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٥٠٢)، ولفظه عنده: «فَقَدْ آذَنْته بِالْحَرْبِ».

(٢) هذا اللفظ أخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (ص٩)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٩٢) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨)، والديلمي في الفردوس (٣/ ١٦٧) من حديث أنس رضي الله عنه وأخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٣٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجها الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٦٥)، وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٤٤)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٠).

يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»[١]. وَهَذَا أَصَحُّ حَدِيثٍ يُرْوَى فِي الْأَوْلِيَاءِ، فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ مَنْ عَادَى وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ.

الشرح:

قوله: «**بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ**» هذا اللفظ ليس في كتب الصحاح، وإنما هو عند أبي نعيم، ولعله أخذها من بعض المستخرجات[٢] على الصحيح، كمستخرج الإسماعيلي على البخاري ونحو ذلك؛ لأنه عنده عناية بالجمع بين الصحيحين للحميدي.

المقصود: أن هذا اللفظ مما يُعترض به على شيخ الإسلام كثيرًا؛ لأن هذا اللفظ «**فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ**» غير معروف، أما لفظ: «**فَقَدْ آذَنْته بِالْحَرْبِ**»، فهو اللفظ الصحيح المعروف في هذا الحديث المسمى بحديث الولي، فلفظ المبارزة ليس بثابت، ولكن هو بمعنى فقد آذنته بالحرب.

هذا القول في أول هذا الفصل يدل على أن الله ﷻ فرق بين أولياء الله

---

(١) جملة: «لابد له منه» ليست في البخاري، وإنما رواها الشهاب القضاعي في مسنده (٢/ ٣٢٧)، وابن أبي الدنيا في الأولياء (ص٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٢)، و(٨/ ٣١٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) المستخرج كما قال العراقي: هو أن يأتي المصنف إلى الكتاب فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب، فيجتمع معه في شيخه أو من فوقه. قال ابن حجر: «وشرطه أن لا يصل إلى شيخ أبعد حتى يعقد سندًا يوصله إلى الأقرب إلا لعذر من علو أو زيادة مهمة» ا.هـ.

انظر: تدريب الراوي (ص٥٦)، وفتح المغيث للسخاوي (١/ ٥٢).

وأولياء الشيطان، فكونه - سبحانه - يذكر في القرآن أن لله أولياء وأن للشيطان أولياء، ثم لا يفرق بين هؤلاء وهؤلاء بالصفات بما يُعلم به هؤلاء وهؤلاء هذا ممتنع؛ لأن الله ﷻ جعل هذا القرآن فرقانًا: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، فهو فرقان بين الأشياء المتقابلة التي قد تلتبس، ومن ذلك وصف أولياء الرحمن ووصف أولياء الشيطان، فالفرقان قائم بين هذين الحزبين وبين هاتين الطائفتين، فهؤلاء لهم صفات، وهؤلاء لهم صفات.

وأعظم ما في القرآن من وصف أولياء الله ﷻ في آية سورة يونس، والتي استدل بها، وهي قوله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس ٦٢، ٦٣]، فبين ﷻ أن الأولياء هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، ومن المتقرر أن الإيمان يتبعض، وأنه درجات بعضها فوق بعض، وأن التقوى كذلك تتبعض والناس فيها مختلفون، كلٌ يأخذ منها بحسب ما يُسر له، فنتج من ذلك أن الأولياء أيضًا ليسوا على مرتبة واحدة بل هم مراتب، فصفات الأولياء التي تجمعهم أنهم المؤمنون المتقون، والمؤمن هو المؤمن بالله ورسوله وكتابه، فلا يُتصور من الولي الخروج عن أمر الله، وأمر رسوله ﷺ، وأمر كتاب الله لأهواء وآراء، فهو مُتبع للكتاب والسنة، وكذلك لا يُتصور في الولي أنه صاحب كبيرة، أو صاحب إصرار على الصغائر واستمرار فيها؛ لأن التقوى هي صفته التي لازمته ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، والتعبير بقوله ﷻ: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يفيد ثبات هذه الصفة[1].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١٣٢)، وتفسير البغوي (٤/ ١٣٩)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٥٧)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٣)، وأضواء البيان للشنقيطي (١/ ١٥٨).

فإذا كان كذلك كان وصف الأولياء في القرآن أنهم المؤمنون المتقون، أما وصفهم في السنة فقد جاء بأكثر تفصيلًا في حديث الولي المعروف، وهو ما رواه البخاري رَحِمَهُ اللهُ وغيره أن النبي ﷺ قال: «**يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ - أَوْ فَقَدْ آذَنْته بِالْحَرْبِ - وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»، هنا الفرائض أحب إلى الله ﷻ من النوافل، وزيادة تقرب العبد بالنوافل سبب لمحبة الله ﷻ لعبده. قال: «**فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ**»، يعني: يُسدد في سمعه، فيكون الله ﷻ سمع الولي، يعني: يسدده في سمعه، فلا يسمع إلا ما يحب ربه ومولاه، «**وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» يعني: سدده في بصره، فلا يبصر إلا ما أحب، ولا يستأنس في بصره إلا بما أحب، «**وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**» يعني: يسدد في هذا كله، فلا يبطش بيده إلا فيما أذن الله ﷻ به، ولا يمشي برجله إلا فيما يحب الله ﷻ.

قال: «**وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنهُ**» يعني: أنه مجاب الدعاء، «**وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنهُ، وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ**»، التردد هنا تكلم عليه أهل العلم بكلمات، وأصح ذلك: أن التردد مثل الصفات الأخرى - التي هي صفة المكر والاستهزاء ونحو ذلك - من جهة أنه يكون نقصًا ويكون كمالًا، فالتردد على نوعين:

النوع الأول: يكون التردد نقصًا إذا كان مع عدم علم بالعاقبة؛ لأنه يكون من نتائج الجهل، فالمتردد يتردد ويكون نقصًا في حقه أنه تردد؛ لأنه لا يعلم العاقبة، أو لخوفه وعدم جرأته على الأمر، أو لعدم قدرته عليه

يشك هل سيقدر أو لا يقدر، أو هل سيقوى أو لا يقوى، وعدم علمه بالعاقبة هو سبب هذا التردد، وهذا التردد نقص، وهذا منفي عن الله ﷻ.

النوع الثاني: إذا كان التردد بين أمرين كل منهما حق ومحمود في نفسه، لكن يختلف الاختيار بحسب تعلقه بالمختار له، مثلًا تريد أن تشتري لمن تحب شيئًا، فترددت بين هذا وهذا لا من جهة عدم علمك بالأفضل، ولكن من جهة الإكرام، أو زارك أحد فتقول: أقدم له ذبيحتين أم ثلاثًا، هذا التردد ليس نقصًا، فأنت الآن بين كرم وأكرم وهذا ليس نقصًا، بل هذا تردد فيما يناسب المختار له، هذا هو الذي من جنسه جاء هذا الحديث: «**وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ**»، هذا التردد الحق، وهو الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وهذا أحسن الأجوبة على ذلك[1]، وهذه هي طريقة المحققين.

ولا يُفهم من التمثيل بالسمع، والبصر، واليد، والرجل الحصر، فالسمع والبصر معنويان، يعني: نوعان من أنواع الإدراكات، فهل ترى البصر والسمع؟! ولكن اليد والرجل ظاهران، فهو مثّل بشيئين معنويين وبشيئين ظاهرين، وهذا له نظائر في القرآن مثل قول الله ﷻ في آية سورة الفرقان: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقوله ﷻ: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص٦٤)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص٤٣٣)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٥٨).

بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

المقصود من ذلك: أنه يرد التمثيل بالحواس؛ فإنه ليس المقصود منه الحصر، كنت سمعه وبصره وأيضًا لسانه وفهمه وتفكيره.

توجد رواية موضوعة مكذوبة في هذا الحديث يستدل بها الصوفية بعد قوله: «**وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»، وهي: «**حَتَّى يَقُولُ للشيء: كُنْ فَيَكُونُ**»، هذه موجودة في بعض كتب الحديث مسندة، لكنها موضوعة يستدل بها الصوفية في أن الله ﷻ يعطي الأولياء ملكوته يتصرفون فيه بما يريدون، وهذا باطل من جهة الاستدلال، وباطل من جهة الأصول القطعية الدلالة على أن الله لا ينازعه أحد في ملكه، وليس له شريك.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «وَإِنِّي لَأَثْأَرُ لِأَوْلِيَائِي كَمَا يَثْأَرُ اللَّيْثُ الْحَرِبُ»(١) أَيْ: آخُذُ ثَأْرَهُمْ مِمَّنْ عَادَاهُمْ كَمَا يَأْخُذُ اللَّيْثُ الْحَرِبُ ثَأْرَهُ، وَهَذَا لِأَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَوَالَوْهُ، فَأَحَبُّوا مَا يُحِبُّ، وَأَبْغَضُوا مَا يُبْغِضُ، وَرَضُوا بِمَا يَرْضَى، وَسَخِطُوا بِمَا يَسْخَطُ، وَأَمَرُوا بِمَا يَأْمُرُ، وَنَهَوْا عَمَّا نَهَى، وَأَعْطَوْا لِمَنْ يُحِبُّ أَنْ يُعْطَى، وَمَنَعُوا مَنْ يُحِبُّ أَنْ يُمْنَعَ، كَمَا فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»(٢).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ قَالَ: «وَمَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»(٣).

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الحكيم الترمذي في النوادر (٢/ ٢٣٢)، والديلمي في الفردوس (٣/ ١٦٧)، وهكذا نقله عدد من المفسرين كابن كثير وغيره. ، لكن رواه والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢٢)، وفي تفسيره (٧/ ١٩٤) سورة الشورى آية ٢٧ بلفظ: «وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرد» ا.هـ. وكذا ذكره القرطبي في تفسيره من حديث أنس رضي الله عنه، وذكر ابن فارس في معجم المقاييس (ص٢٤١) ثلاثة أصول للحرد منها: الثاني: الغضب، يقال: حرد الرجل: غضب، ويقال: أسد حارد. وقال الفرزدق: لعلك يومًا أن تَرَيْني كأنما بَنِيَّ حوالَيَّ الليوث الحواردُ. ا.هـ.

(٢) ورد عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم منهم: ابن مسعود عند الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٣٣)، والطيالسي (١/ ٥٠)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٧١) ح (١٠٣٥٧)، و(١٠/ ٢٢٠) ح (١٠٥٣١)، والأوسط (٤/ ٣٧٦) والبراء بن عازب عند أحمد (٤/ ٢٨٦)، ولفظه: «**أَوْسَطُ عُرَى الْإِيمَانِ**»، والطيالسي (١/ ١٠١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، والترمذي (٢٥٢١)، وقال: هذا حديث منكر، وفي بعض النسخ: هذا حديث صحيح، وأحمد في المسند (٣/ ٤٤٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٣٠)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٦٠)، والطبراني في الأوسط (٩/ ٤١)، =



الشــــرح:

ذكر شيخ الإسلام فيما سبق بعض شروط الولي من جهة اللغة؛ فإنه فسر لفظ الولي والموالاة بما تضمنه كلامه الذي مضى، وفيه شروط الولي، وأن من شروط الولي أنه يأمر بما أمر الله، ويأتمر بذلك، وينهى عما نهى الله، وينتهي عن ذلك، يرضى ما يرضى الله، ويسخط مما يسخط الله ﷻ، ويحب ما أحب الله، ويبغض ما أبغض الله، فهذا جاء من جهة اللغة أيضًا مع ضميمة قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

نخلص من ذلك إلى أن صفات الأولياء منها ما هو صفة شرط، إذا لم توجد لم يكن وليًا، وهي مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يعني: كلمة الإيمان والتقوى، ومأخوذة أيضًا من جهة لفظ الولي؛ لأن الولي هو المحب التابع الناصر، وهذه المحبة تقتضي موافقته فيما أحب، وموافقته فيما نهى عنه ﷻ وهكذا، وهذا من نوع الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان[1].

= والكبير (٤١٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٧).

(١) انظر: صفات الولي في: كتاب النبوات لشيخ الإسلام رحمه الله (ص١٠)، والروح لابن القيم رحمه الله (ص٢٦٤)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص٣٥٧)، وشرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان ابن عبدالله آل الشيخ رحمه الله (ص٣٤٥).

وَالْوِلَايَةُ[١]: ضِدُّ الْعَدَاوَةِ، وَأَصْلُ الْوِلَايَةِ: الْمَحَبَّةُ وَالْقُرْبُ، وَأَصْلُ الْعَدَاوَةِ: الْبُغْضُ وَالْبُعْدُ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْوَلِيَّ سُمِّيَ وَلِيًّا مِنْ مُوَالَاتِهِ لِلطَّاعَاتِ، أَيْ: مُتَابَعَتِهِ لَهَا. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ.

وَالْوَلِيُّ: الْقَرِيبُ، فَيُقَالُ: هَذَا يَلِي هَذَا، أَيْ: يَقْرُبُ مِنْهُ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتْ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»[٢]، أَيْ: لِأَقْرَبِ رَجُلٍ إِلَى الْمَيِّتِ. وَأَكَّدَهُ بِلَفْظِ: «الذَّكَرِ» لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ حُكْمٌ يَخْتَصُّ بِالذُّكُورِ وَلَا يَشْتَرِكُ فِيهَا الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ، كَمَا قَالَ ﷺ فِي الزَّكَاةِ: «فَابْنُ لَبُونٍ ذَكَرٍ»[٣].

فَإِذَا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ هُوَ الْمُوَافِقُ الْمُتَابِعُ لَهُ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَيُبْغِضُهُ وَيُسْخِطُهُ وَيَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ كَانَ الْمُعَادِي لِوَلِيِّهِ مُعَادِيًا لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، فَمَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ عَادَاهُ وَمَنْ عَادَاهُ فَقَدْ حَارَبَهُ، فَلِهَذَا قَالَ: «وَمَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا

---

(١) الوِلاية بالكسر السلطان، والوِلاية بالفتح والكسر النصرة، والْوَلِيُّ ضد العدو، يقال منه تَوَلَّاهُ، وكل من وُلِيَ أمر واحد فهو وَلِيُّه، والمَوْلَى المُعْتِق والمُعْتَق. انظر: مختار الصحاح (ص٣٠٦)، ولسان العرب (١٥/ ٤٠٦)، والمصباح المنير (٢/ ٦٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٦٧)، والنسائي (٥/ ١٩)، وابن ماجه (١٧٩٨)، وأحمد (١/ ١١) ومالك في الموطأ برقم (٥٩٩)، وابن أبي شيبة (٩٨٨٩)، وعبدالرزاق في المصنف (٦٧٩٣)، وابن خزيمة (٢٢٦١)، وابن حبان (٣٢٦٦).

فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ»[١].

الشـــرح:

قوله: (أَصْلُ الْوِلَايَةِ الْمَحَبَّةُ وَالْقُرْبُ وَأَصْلُ الْعَدَاوَةِ الْبُغْضُ وَالْبُعْدُ).
هذا هو الأصل في الموالاة والمعاداة، وهو القدر الواجب في الولاء والبراء القدر الذي به يصح الإسلام، فلا يصح إسلام أحدٌ حتى يكون عنده موالاة ومعاداة، أي: عنده ولاء وبراء، والولاء الذي يصح به أصل الإسلام هو المحبة، محبة الله، محبة دينه، محبة رسوله، ومحبة توحيده. هذه المحبة هي الأصل لها لوازم في الظاهر ولها أحكامها.

كذلك العداوة أو البراء وبغض الشرك، وبغض الضلال وبغض الشيطان بغض عبادة غير الله، بغض الكفر، هذا القدر هو الشرط الذي من لم يأت به فلا إسلام له.

فكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، هذه مشتملة على الولاء والبراء، مشتملة على الموالاة والمعاداة، لكن الولاء والبراء منه قدر مجزئ لا يصح إسلامُ أحدٍ إلا به، يعني: مجزئ في صحة الإسلام، ومنه قدر آخر واجب لكن ليس شرطًا في الصحة، فالقدر الواجب هو ما كان من قبيل الحب والبغض وهوأصل المعنى، وهو الموجود في القلب، فمحبة التوحيد وبغض الشرك هذا أصل في الإسلام، وهو معنى الولاء والبراء، وهو معنى كلمة التوحيد، فمن لم يكن عنده حب للتوحيد وبغض للشرك فلا إسلام له أصلًا، بخلاف

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٣).

محبة أهل التوحيد، ومحبة أهل الشرك، ونحو ذلك، فهذه فيها أحوال وتفصيلات.

فأصل الدين أن من دخل في (**لا إله إلا الله**)؛ فإنه يحب هذه الكلمة وما دلت عليه من التوحيد، ويحب أهلها، ويُبغضُ الشركُ المناقض لهذه الكلمة، ويبغض أهله، فكلمة الولاء والبراء هي معنى الموالاة والمعاداة، وهي بمعنى الحب والبغض، فإذا أحبَّ القلبُ الشرك صار مواليًا للشرك، وإذا أحب القلبُ أهل الشرك صار مواليًا لأهل الشرك، كذلك إذا أحب القلبُ الإيمان صار مواليًا للإيمان، وإذا أحب القلبُ اللهَ ﷻ صار مواليًا لله، وإذا أحب القلبُ الرسول ﷺ صار وليًا ومواليًا للرسول ﷺ، وإذا أحب القلبُ المؤمنين صار مواليًا ووليًا للمؤمنين؛ قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦]، يعني: من يحب وينصر اللهَ ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون.

أما حكم الموالاة: فإن موالاة المشركين والكفار محرمة وكبيرة من الكبائر، وقد تصل بصاحبها إلى الكفر والشرك؛ ولهذا ضبطها العلماءُ بأن قالوا: تنقسم المولاة باسمها العام إلى قسمين:

القسم الأول: التولي، وهو الذي جاء في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: ٥١]، يُقال: تولاه توليا؛ فالتولي معناه: محبة الشرك وأهل الشرك، ومحبة الكفر وأهل الكفر، أو نصرة الكفار على أهل الإيمان، قاصدًا ظهور الكفر على الإسلام، بهذا الضابط يتضح معنى التولي، وهو كفرٌ أكبر، وإذا صدر مِنْ مسلم فهو ردة.

ما معنى التولي؟

الجواب: معناه محبة الشرك وأهل الشرك - والعطف بالواو - يعني محبة الشرك وأهل الشرك جميعًا مجتمعة، أو أن لا يحب الشرك ولكن ينصرُ المشركَ على المسلم قاصدًا ظهور الشرك على الإسلام، هذا الكفر الأكبر الذي إذا فعله مسلم صار رِدَّة في حقه والعياذ بالله تعالى.

القسم الثاني: الموالاة، والموالاة المحرّمة مِنْ جنس محبة المشركين والكفار، لأجل دنياهم، أو قراباتهم، أو نحو ذلك، وضابطها أن تكون محبة أهل الشرك؛ لأجل الدنيا، ولا يكون معها نصرةٌ؛ لأنّه إذا كان معها نصرةٌ على مسلم بقصدِ ظهور الشرك على الإسلام صار توليًا، وهو في القسم المُكَفِّر، فإن أحب المشرك والكافر لدنيا، وصار معه نوع موالاة لأجل الدنيا، فهذا محرم ومعصية، وليس كفرًا؛ دليل ذلك قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

والواجب: أن يكون المؤمن محبًا لله ﷻ ولرسوله وللمؤمنين، وألا يكون في قلبه مودة للكفار ولو كان لأمور الدنيا، فإذا عَامَل المشركين أو عَامَل الكفار في أمور الدنيا، إنما تكون معاملةً ظاهرةً بدون ميل القلب، أو محبة القلب؛ لأن المشرك حمل قلبًا فيه مسبَّة الله ﷻ، وهو سابٌّ لله ﷻ بفعله؛ إذ اتخذ مع الله ﷻ إلهًا آخر، والمؤمن متولٍ لله ﷻ ولرسوله وللمؤمنين، فلا يمكن أن يكون في قلبه مُوادَّة لمشرك حمل الشرك والعياذ بالله.

وَأَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ هُمْ أَنْبِيَاؤُهُ، وَأَفْضَلُ أَنْبِيَائِهِ هُمُ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ، وَأَفْضَلُ الْمُرْسَلِينَ أُولُو الْعَزْمِ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب: ٧، ٨].

وَأَفْضَلُ أُولِي الْعَزْمِ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ[(١)]، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ[(٢)]، وَإِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ إِذَا اجْتَمَعُوا، وَخَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا[(٣)]، صَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ[(٤)] الَّذِي يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ،

---

(١) دليله قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠].

(٢) أخرج مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ».

(٣) أخرج الترمذي (٣٦١٣)، وابن ماجه (٤٣١٤)، وأحمد (٥/ ١٣٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٦٦)، والحاكم (٤/ ٧٨) من حديث أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ، وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غَيْرَ فَخْرٍ».

(٤) أخرج البخاري (٦١٤) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَصَاحِبُ لِوَاءِ الْحَمْدِ[١]، وَصَاحِبُ الْحَوْضِ الْمَوْرُودِ[٢]، وَشَفِيعُ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَصَاحِبُ الْوَسِيلَةِ وَالْفَضِيلَةِ[٣]، الَّذِي بَعَثَهُ بِأَفْضَلِ كُتُبِهِ، وَشَرَعَ لَهُ أَفْضَلَ شَرَائِعِ دِينِهِ.

الشـــرح:

قوله: (**أُولُو الْعَزْمِ**) يعني: أولو الصبر، والعزم هنا هو الصبر وتحمل المشاق والقوة. وجميع المرسلين أولو صبر وتحمل للمشاق وقوة، وهؤلاء أولو الصبر الخاص، والعزم الخاص الذي تميزوا به عن غيرهم؛ ولهذا خُصوا بهذا الاسم دون غيرهم (**أُولُو الْعَزْمِ**) الخمسة الذين ذكرهم الله ﷻ.

قوله: (**وَأَفْضَلُ أُولِي الْعَزْمِ مُحَمَّدٌ ﷺ، خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَإِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ إِذَا اجْتَمَعُوا...**) هذه الكلمات التي ذكرها شيخ الإسلام لو قارنتها بختمة القرآن المنسوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية لوجدت فيها هذه الكلمات، وهذه الختمة لا تصح إسنادًا، وإن كانت

---

(١) أخرج الترمذي (٣١٤٨) من حديث أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم الْقِيَامَةِ ولا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ ولا فَخْرَ**»، وأخرجه أحمد (١/ ٢٨١) وابن حبان (٦٤٧٨)، والحاكم (١/ ٨٣)، وأبو يعلى (٢٣٢٨)، والطيالسي (٢٧١١)، والطبراني في الكبير(١٧٥٠) والأوسط(٣٥٧٠).

(٢) انظر: أحاديث الحوض في صحيح البخاري كتاب الرقاق باب الحوض ح (٦٥٧٥) إلى (٦٥٩٣)، وصحيح مسلم ح (٢٢٨٩) إلى (٢٣٠٥).

(٣) حديث الشفاعة سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

مشهورة النسبة، فالختمة المعروفة بختمة شيخ الإسلام[١] كلماتها موجودة متفرقة في كتب شيخ الإسلام، فمن أراد أن يأخذها جملًا ويحيل كل جملة منها إلى موضعها من كلام شيخ الإسلام وجد ذلك؛ ولهذا يقول علماؤنا: إن هذه نَفَسُها نَفَسُ شيخ الإسلام، كلامها كلام شيخ الإسلام، فمن عرف كلام شيخ الإسلام قال: إنها من كلامه، لكن نسبتها إليه غير ثابتة، فليُنتبه لذلك.

(١) أي: الدعاء عند ختم القرآن الكريم، وهذه الختمه وإن كان فيها بعض عبارت شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، إلا أن الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللهُ جامع فتاوى شيخ الإسلام قد أوصى بعدم إدخالها ضمن المجموع، كما ذكر ذلك الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ في مرويات دعاء ختم القرآن (ص١١).

وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَجَمَعَ لَهُ وَلأُمَّتِهِ مِنْ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ مَا فَرَّقَهُ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ، وَهُمْ آخِرُ الْأُمَمِ خَلْقًا، وَأَوَّلُ الْأُمَمِ بَعْثًا، كَمَا قَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ فَهَذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ - يَعْنِي يَوْمَ الْجُمْعَةِ - فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، النَّاسُ لَنَا تَبَعٌ فِيهِ، غَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَد لِلنَّصَارَى»[1].

وَقَالَ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ»[2].

وَقَالَ ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: أَنَا مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْت إلا أَفْتَحَ لِأَحَدِ قَبْلَكَ»[3].

وَفَضَائِلُهُ ﷺ وَفَضَائِلُ أُمَّتِهِ كَثِيرَةٌ، وَمِنْ حِينِ بَعَثَهُ اللَّهُ جَعَلَهُ اللَّهُ الْفَارِقَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ، فَلَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إلا مَنْ آمَنَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَوِلَايَتَهُ وَهُوَ لَمْ يَتْبَعْهُ فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ؛ بَلْ مَنْ خَالَفَهُ كَانَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: (فأكون أول من بعث)، وأخرجه مسلم (٢٢٧٨) بلفظ: «وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ».

(٣) أخرجه مسلم (١٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ادَّعَى قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِحْنَةً لَهُمْ[١]. وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ فِيهَا أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ، وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَلَمْ يَتَّبِعْ الرَّسُولَ ﷺ فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَظُنُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ فِي غَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ [المائدة: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

وَكَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ اللَّهِ؛ لِسُكْنَاهُمْ مَكَّةَ وَمُجَاوَرَتِهِمْ الْبَيْتَ، وَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَيْسُوا أَوْلِيَاءَهُ وَلَا أَوْلِيَاءَ بَيْتِهِ، إِنَّمَا أَوْلِيَاؤُهُ الْمُتَّقُونَ.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٣٢)، وشرح اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ٧٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٥٩).

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ جِهَارًا مِنْ غَيْرِ سِرٍّ: «إِنَّ آلَ فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ - يَعْنِي: طَائِفَةً مِنْ أَقَارِبِهِ - إِنَّمَا وَلِيِّي اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ»(١)، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] وَ «صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» هُوَ مَنْ كَانَ صَالِحًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ. وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَسَائِرُ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، وَكُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»(٢).

وَمِثْلُ هَذَا الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «إِنَّ أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ، أَيًّا كَانُوا، وَحَيْثُ كَانُوا»(٣).

الشـــرح:

قوله: (صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ)، الصالح في الشرع هو من قام بحقوق الله ﷻ الواجبة عليه، وقام بحقوق خلقه الواجبة عليه، فالقائم بحقوق الله وحقوق الخلق هو الصالح من عباد الله، والصالحون مقتصدون وسابقون فالمقتصد

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر ﵄ بلفظ مقارب.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٤٢)، وأحمد (٥/ ٢٣٥)، وابن حبان (٦٤٧)، والطبراني في الأوسط (١/ ٣٤)، والكبير (٥/ ٤٥) بألفاظ متقاربة.

صالح، يفعل الواجبات وينتهي عن المحرمات، والسابق بالخيرات هذا أفضل الصالحين.

فأولياء الله ﷻ هم صالحو المؤمنين الذين يفعلون الواجبات وينتهون عن المحرمات، وأخصهم الذين يسابقون في الخيرات، لكن لفظ الولي بخصوصه أُطلق على من كان سابقًا بالخيرات، وهو من كان من خاصة صالح المؤمنين، ففي العرف ليس المقتصدون، يعني: الذين اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات يسمون أولياء، وهم في الحقيقة أولياء لله لقول الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، ولقوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] وقوله ﷻ: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] إلى غير ذلك من الأدلة.

قوله ﷺ: «**لا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»: له نظائر في النصوص من استعمال كلمة (**لَا يَدْخُلُ**) إما في الجنة أو النار، مثل قوله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**»[(١)]، وقوله: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[(٢)]، وقوله: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**»[(٣)]، ونحو ذلك، وهذا النفي للدخول عند أهل السنة تارة يراد به نفي الأصل، وتارة يُراد به نفي التخليد،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩٩)، وابن ماجه (٥٩)، وأحمد (١/ ٤١٦)، وابن حبان (٥٤٦٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

وتارة يُراد به نفي الأولية[١]، فالنفي في هذا الحديث المراد به نفي الأصل، فقوله: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» يعني لا يدخلها أصلًا، وما جاء في النفي بدخول الجنة مثل قوله: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ»، وفي رواية: «نمام» ونحو ذلك، هذا المراد به الدخول الأولى، يعني: لا يدخلون أولًا، بل يتأخرون.

لكن الدخول إلى الجنة على قسمين:

القسم الأول: دخول أولي، يعني: دخول - إن صح التعبير - مبكِّر، دخول في أول الأمر بعد أن ينقضي الناس من الحساب، فإنه يدخل الجنة فئامٌ مبكرين في الدخول.

والقسم الثاني: دخول متأخر، وهؤلاء هم من شاء الله ﷻ أن يدخلوا النار فيعذبوا فيها بقدر أعمالهم.

فدخول الجنة في النصوص نوعان: دخول أولي أو مبكر، ودخول متأخر. فقد ينفى دخول الجنة ويراد به نفي الدخول الأولي أو الدخول المبكر، كما في حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رَسُول اللهِ ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إلا مَنْ أَبَى**» قِيلَ: ومَنْ أَبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[٢].

قال: «**كُلُّ أُمَّتِي**»، يعني: أمة الإجابة، «**يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ**» أولًا مبكرًا ولا يتأخرون عن دخولها، إلا من عصاني فإنه لا يدخل الجنة أولًا، وإنما

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٨)، وتيسير العزيز الحميد (ص٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) في كتاب الاعتصام، ولفظه: «ومَنْ يَأْبَى»؛ كما في نسخة الحافظ اليونيني.

يتأخر، وإذا تأخر فإنه من أهل الوعيد ممن يعذب في النار بقدر مخالفته وعصيانه لرسول الله ﷺ.

ويقابل هذا في النصوص التحريم؛ كقوله ﷺ مثلا: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ**»[١]، وقوله في الكاسيات العاريات: «**لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**»[٢]، وقوله: «**فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إلا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**»[٣]، ونحو ذلك، فالتحريم في النصوص أيضًا قسمان:

تحريم أبدي: هذا يعني أنه يَحْرُم عليه أن يخرج من النار البتة، أو يحرم عليه أن يدخل الجنة البتة.

تحريم مؤقت: أنه يحرم عليه الجنة إلى زمن، ثم يدخلها، فأهل المعاصي منهم من تحرم عليه النار مؤبدًا، ومنهم من تحرم عليه النار مؤقتا، وهكذا..

وبهذا التفصيل يستقيم النظر في النصوص، ويَبين خطأ الخوارج وأهل البدع والغلو الذين فهموا من نفي الدخول مطلق الدخول، وفهموا من التحريم التحريم المطلق أو مطلق التحريم بحسب الحال، وهذا ليس بصحيح؛ بل النصوص فيها هذا وهذا.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٤)، وفي الصحيح (٥٩٨٤) وليس فيه «رحم»، ومسلم (٢٥٥٦) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٥، ١١٨٦)، ومسلم (٣٣)، من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه.

كَمَا أَنَّ مِنْ الْكُفَّارِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ وَلَيْسَ وَلِيًّا لِلَّهِ؛ بَلْ عَدُوٌّ لَهُ، فَكَذَلِكَ مَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ يُقِرُّونَ فِي الظَّاهِرِ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ إلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ؛ بَلْ إلَى الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَيَعْتَقِدُونَ فِي الْبَاطِنِ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ، مِثْلُ: إلا يُقِرُّوا فِي الْبَاطِنِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنَّمَا كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا سَاسَ النَّاسَ بِرَأْيِهِ، مِنْ جِنْسِ غَيْرِهِ مِنْ الْمُلُوكِ. أَوْ يَقُولُونَ: إنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إلَى الْأُمِّيِّينَ دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، أَوْ أَنَّهُ مُرْسَلٌ إلَى عَامَّةِ الْخَلْقِ، وَأَنَّ لِلَّهِ أَوْلِيَاءَ خَاصَّةً لَمْ يُرْسِلْ إلَيْهِمْ وَلَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ؛ بَلْ لَهُمْ طَرِيقٌ إلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ، كَمَا كَانَ الْخَضِرُ مَعَ مُوسَى، أَوْ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ عَنْ اللَّهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ وَيَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، أَوْ أَنَّهُ مُرْسَلٌ بِالشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ وَهُمْ مُوَافِقُونَ لَهُ فِيهَا، وَأَمَّا الْحَقَائِقُ الْبَاطِنَةُ فَلَمْ يُرْسَلْ بِهَا، أَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا، أَوْ هُمْ أَعْرَفُ بِهَا مِنْهُ، أَوْ يَعْرِفُونَهَا مِثْلَ مَا يَعْرِفُهَا مِنْ غَيْرِ طَرِيقَتِهِ.

الشرح:

قوله: (فَكَذَلِكَ مَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ...): يقصد أن الذين هذه صفتهم ملتبسًا عليهم الأمر، فيكونون على ضلال من جهة الباطن فألحقهم بالمنافقين؛ فإن طوائف غلاة الصوفية والاتحادية يقولون: نحن في الظاهر متبعون لصاحب الشريعة، وفي الباطن مستقلون؛ كما قاله ابن

عربي[١] وغيره، قالوا: إن النبي ﷺ لما طاف بالبناء - بناء الأنبياء - فوجد البناء قد كَمُل وحسن إلا موضع لبنة، فقال ﷺ: «**فَأَنَا اللَّبِنَةُ**»[٢]، يعني: التي كمل بها بناء الأنبياء، قال ابن عربي بعد ذلك: (ولابد لخاتم الأولياء من أن يرى نفسه في موضع لبنتين، لبنة ذهب، ولبنة فضة، فيكون الظاهر لبنة، ويكون الباطن لبنة، أما اللبنة الظاهرة فتؤخذ من صاحب الشريعة، وأما اللبنة الباطنة فَيَستَقي بها من المعدن الذي استقى منه الملك)[٣]، يعني يأخذ عن الله ﷻ مباشرة، فهم في الظاهر متابعون، وفي الباطن هم غير متعبدين بالشرع، وهؤلاء هم الذين يدَّعون الوَلاية، ويدَّعون بأنهم أولياء، ويغتر الناس بهم في كثير من أمصار المسلمين، هم غلاة المتصوفة من الذين يقولون بأقوال أهل الاتحادِ وأشباه ذلك؛ ولهذا تجد عندهم من غرائب الأقوال والأعمال ما يخرجون به عن الشريعة حتى زعم كثير منهم أنهم سقطت عنهم التكاليف، وكانوا مع النبي ﷺ كالخضر مع موسى ﷺ حيث

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو عبد الله الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي طاف البلاد وأقام بمكة مدة وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلدًا فيها ما يعقل ومالا يعقل، وله الكتاب المسمى بفصوص الحكم قال عنه الذهبي: ومن أردأ تواليفه كتاب الفصوص، فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر. وقال العز بن عبد السلام: شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم، ولا يحرم فرجًا. توفي سنة ثمان وثلاثين وستمائة.
انظر: البداية والنهاية (١٣/ ١٥٦)، وميزان الاعتدال (٦/ ٢٦٩)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٦).

(٣) انظر: شرح الطحاوية (ص٤٩٢)، والرد على القائلين بوحدة الوجود (ص٥٩ - ٦٥).

وسعه الخروج عن شريعة موسى عليه السلام، وهذا كفر وزندقة، وهو نوع من أنواع النفاق.

فشيخ الإسلام يريد بالمنافقين في هذا الكلام هذه الطائفة التي كانت منتشرة، وهي موجودة إلى يومنا هذا[1]. وما ذكره شيخ الإسلام هنا ليس من باب الاستطراد، بل كل قول مما ذكره منهج لطائفة، نسأل الله العافية والسلامة.

(١) انظر: تلبيس إبليس (ص٣٨٩ - ٣٩٥)، وشرح كتاب التوحيد (ص٣٢٦).

وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُ هَؤُلَاءِ: إنَّ أَهْلَ الصُّفَّةِ كَانُوا مُسْتَغْنِينَ عَنْهُ، وَلَمْ يُرْسَلْ إلَيْهِمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إنَّ اللَّهَ أَوْحَى إلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فِي الْبَاطِنِ مَا أَوْحَى إلَيْهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، فَصَارَ أَهْلُ الصُّفَّةِ بِمَنْزِلَتِهِ. وَهَؤُلَاءِ مِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ بِمَكَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وَأَنَّ الصُّفَةَ لَمْ تَكُنْ إلا بِالْمَدِينَةِ. وَكَانَتْ صُفَّةٌ فِي شَمَالِيِّ مَسْجِدِهِ ﷺ يَنْزِلُ بِهَا الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ أَهْلٌ وَأَصْحَابٌ يَنْزِلُونَ عِنْدَهُمْ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يُهَاجِرُونَ إلَى النَّبِيِّ ﷺ إلَى الْمَدِينَةِ؛ فَمَنْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي مَكَانٍ نَزَلَ بِهِ، وَمَنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ نَزَلَ فِي الْمَسْجِدِ إلَى أَنْ يَتَيَسَّرَ لَهُ مَكَانٌ يَنْتَقِلُ إلَيْهِ.

وَلَمْ يَكُنْ أَهْلُ الصُّفَّةِ نَاسًا بِأَعْيَانِهِمْ يُلَازِمُونَ الصُّفَّةَ، بَلْ كَانُوا يَقِلُّونَ تَارَةً، وَيَكْثُرُونَ أُخْرَى، وَيُقِيمُ الرَّجُلُ بِهَا زَمَانًا ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهَا، وَالَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِهَا مِنْ جِنْسِ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ لَهُمْ مَزِيَّةٌ فِي عِلْمٍ وَلَا دِينٍ؛ بَلْ فِيهِمْ مَنْ ارْتَدَّ عَنْ الْإِسْلَامِ وَقَتَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ، كَالْعُرَنِيِّينَ الَّذِينَ اجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ[1] - أَيْ: اسْتَوْخَمُوهَا - فَأَمَرَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ بِلِقَاحٍ - أَيْ: إبِلٍ لَهَا لَبَنٌ - وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَلَبِهِمْ، فَأُتِيَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ،

---

(١) قوله: اجتووا المدينة: أي أصابهم الجوى وهو المرض إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٨٤٤).

وَسُمِّرَتْ أَعْيُنُهُمْ[(١)]، وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ[(٢)] يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقَوْنَ. وَحَدِيثُهُمْ فِي الصَّحِيحَيْنِ[(٣)] مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، وَفِيهِ: أَنَّهُمْ نَزَلُوا الصُّفَّةَ.

فَكَانَ يَنْزِلُهَا مِثْلُ هَؤُلَاءِ، وَنَزَلَهَا مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَهُوَ أَفْضَلُ مَنْ نَزَلَ بِالصُّفَّةِ ثُمَّ انْتَقَلَ عَنْهَا، وَنَزَلَهَا أَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ، وَقَدْ جَمَعَ أَبُو عَبْدِالرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ تَارِيخَ مَنْ نَزَلَ الصُّفَّةَ[(٤)].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله: وسُمِّرت أعينهم بتشديد الميم، وفي رواية أبي رجاء وسمر بتخفيف الميم، ولم تختلف روايات البخاري في أنه بالراء، ووقع لمسلم من رواية عبدالعزيز وسَمَل بالتخفيف واللام، قال الخطابي: السمل فقء العين بأي شيء كان، قال أبو ذؤيب الهذلي:

والعين بعدهم كأن حداقها ... سملت بشوك فهي عور تدمع

قال: والسمر لغة في السمل، ومخرجهما متقارب، قال: وقد يكون من المسمار يريد أنهم كحلوا بأميال قد أحميت، قلت: قد وقع التصريح بالمراد عند المصنف من رواية وهيب عن أيوب، ومن رواية الأوزاعي عن يحيى كلاهما عن أبي قلابة ولفظه: «ثم أمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها»، فهذا يوضح ما تقدم، ولا يخالف ذلك رواية السمل؛ لأنه فقء العين بأي شيء كان كما مضى).
انظر: فتح الباري (١/ ٣٤٠).

(٢) (الحرة) هي أرض ذات حجارة سود معروفة بالمدينة، وإنما ألقوا فيها لأنها قرب المكان الذي فعلوا فيه ما فعلوا. انظر: فتح الباري (١/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٠٤)، ومسلم (١٦٧١).

(٤) كتاب تاريخ أهل الصفوة لأبي عبد الرحمن السلمي ذكره صاحب كشف الظنون (١/ ٢٨٦).

وَأَمَّا «الْأَنْصَارُ» فَلَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، وَكَذَلِكَ أَكَابِرُ الْمُهَاجِرِينَ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَأَبِي عُبَيْدَةَ وَغَيْرِهِمْ، لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ بِهَا غُلَامٌ لِلْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «هَذَا وَاحِدٌ مِنَ السَّبْعَةِ»، وَهَذَا الْحَدِيثُ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ[1]، وَكَذَا كُلُّ حَدِيثٍ يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي عِدَّةِ «الْأَوْلِيَاءِ»، وَ«الْأَبْدَالِ»[2]، وَ «النُّقَبَاءِ»[3]،

---

(١) جاء في حلية الأولياء (٢/ ٢٤)، وذكر هلالًا مولى المغيرة، ثم ساق الحديث بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليدخلن من هذا الباب رجل ينظر الله إليه»، قال: فدخل - يعني: هلالًا - فقال له: «صل علي يا هلال»، فقال: ما أحبك على الله وما أكرمك عليه.

(٢) الأبدال: جمع بدل وهم طائفة من الأولياء، قال أبو البقاء: كأنهم أرادوا أنهم أبدال الأنبياء وخلفاؤهم، وهم عند القوم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل بلد إقليم فيه ولايته.
انظر: لسان العرب (١١/ ٤٩)، والتعريفات للجرجاني (ص٦٢)، والتعاريف للمناوي (ص٢٩).

(٣) النقباء جمع نقيب وهو كالعريف على القوم المقدم عليهم الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٠٠)، وعند الصوفية، النقباء هم الذين تحققوا بالاسم الباطن فأشرفوا على بواطن الناس فاستخرجوا خفايا الضمائر لانكشاف الستائر لهم عن وجوه السرائر، وهم ثلاثة أقسام: نفوس علوية وهي الحقائق الأمرية، ونفوس سفلية وهي الخلقية، ونفوس وسطية وهي الحقائق الإنسانية، وللحق تعالى في كل نفس منها أمانة منطوية على أسرار إلهية وكونية، وهم ثلاثمائة. انظر: التعريفات للجرجاني ص (٣١٤).

وَ«النُّجَبَاءِ»(١)، وَ«الْأَوْتَادِ»(٢)، وَ«الْأَقْطَابِ»(٣)، مِثْلُ أَرْبَعَةٍ، أَوْ سَبْعَةٍ، أَوْ اثْنَيْ عَشَرَ، أَوْ أَرْبَعِينَ، أَوْ سَبْعِينَ، أَوْ ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، أَوْ الْقُطْبَ الْوَاحِدَ، فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ صَحِيحٌ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَنْطِقْ السَّلَفُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ إلا بِلَفْظِ «الْأَبْدَالِ». وَرُوِيَ فِيهِمْ حَدِيثُ أَنَّهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، وَأَنَّهُمْ بِالشَّامِ، وَهُوَ فِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رضي الله عنه(٤)، وَهُوَ حَدِيثٌ مُنْقَطِعٌ لَيْسَ بِثَابِتٍ.

---

(١) النجباء جمع نجيب، وهو الكريم الخير المبارك صحيح الرأي. وعند الصوفية: النجباء هم الأربعون، وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق، وهي من حيث الجملة كل حادث لا تفي القوة البشرية بحمله؛ وذلك لاختصاصهم بوفور الشفقة، والرحمة الفطرية، فلا يتصرفون إلا في حق الغير. انظر: التعريفات للجرجاني (ص٣٠٨).

(٢) الأوتاد جمع وتد، وهو عصا من خشب ترزُّ في الأرض أو الجدار يربط فيها الأشياء. انظر: لسان العرب (٣/ ٤٤٤)، وعند الصوفية، الأوتاد هم أربعة رجال منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم: شرق، وغرب، وشمال، وجنوب، يحفظ الله بهم تلك الجهات. انظر: التعريفات للجرجاني (ص٥٨).

(٣) القطب في اللغة: القائم الذي تدور عليه الرحى. انظر: لسان العرب (١/ ٦٨٢). وعند الصوفية القطب وقد يسمى غوثًا باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضوع نظر الله في كل زمان، أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، بيده قسطاس الفيض الأعم، وزنه يتبع علمه، وعلمه يتبع علم الحق... انظر: التعريفات (ص٢٢٧).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١١٢) من حديث علي رضي الله عنه قال: «إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: الأَبْدَالُ يَكُونُونَ بِالشَّامِ، وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكَانَهُ رَجُلًا، يُسْقَى بِهِمُ الْغَيْثُ، وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَيُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِهِمُ الْعَذَابُ». وسبب انقطاعه أن في إسناده شريحًا بن عبيد الرواي عن علي رضي الله عنه ولم يدركه. وانظر المنار المنيف لابن القيم (ص١٣٦).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ عَلِيًّا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الصَّحَابَةِ كَانُوا أَفْضَلَ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ مَعَهُ بِالشَّامِ، فَلَا يَكُونُ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي عَسْكَرِ مُعَاوِيَةَ دُونَ عَسْكَرِ عَلِيٍّ. وَقَدْ أَخْرَجَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أبي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ مِنْ الدِّينِ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ»[1] وَهَؤُلَاءِ الْمَارِقُونَ هُمْ الْخَوَارِجُ الْحَرُورِيَّةُ الَّذِينَ مَرَقُوا لَمَّا حَصَلَتْ الْفُرْقَةُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ، فَقَتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ وَأَصْحَابُهُ.

فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَلَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِهِ، وَكَيْفَ يَكُونُ الْأَبْدَالُ فِي أَدْنَى الْعَسْكَرَيْنِ دُونَ أَعْلَاهُمَا؟ وَكَذَلِكَ مَا يَرْوِيه بَعْضُهُمْ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَنْشَدَ مُنْشِدٌ:

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ الْهَوَى كَبِدِي ... فَلَا طَبِيبَ لَهَا وَلَا رَاقِي

إِلَّا الْحَبِيبُ الَّذِي شُغِفْتُ بِهِ ... فَعِنْدَهُ رُقْيَتِي وَتِرْيَاقِي

وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَوَاجَدَ حَتَّى سَقَطَتْ الْبُرْدَةُ عَنْ مَنْكِبِهِ. فَإِنَّهُ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ[2]. وَأَكْذَبُ مِنْهُ مَا يَرْوِيه بَعْضُهُمْ: أَنَّهُ مَزَّقَ ثَوْبَهُ، وَأَنَّ جِبْرِيلَ أَخَذَ قِطْعَةً مِنْهُ فَعَلَّقَهَا عَلَى الْعَرْشِ، فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا يَعْرِفُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ مِنْ أَظْهَرْ الْأَحَادِيثِ كَذِبًا عَلَيْهِ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) قال الذهبي في لسان الميزان (٤/ ٢٧٠): (وضعه عمار بن إسحاق)، ثم ذكر طرقه ورواته.

وَكَذَلِكَ مَا يَرْوُونَهُ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ يَتَحَدَّثَانِ، وَكُنْت بَيْنَهُمَا كَالزِّنْجِيِّ[1]، وَهُوَ كَذِبٌ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ فِيمَنْ يُقِرُّ بِرِسَالَتِهِ الْعَامَّةِ فِي الظَّاهِرِ مَنْ يَعْتَقِدُ فِي الْبَاطِنِ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ، فَيَكُونُ مُنَافِقًا، وَهُوَ يَدَّعِي فِي نَفْسِهِ وَأَمْثَالِهِ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، مَعَ كُفْرِهِمْ فِي الْبَاطِنِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، إمَّا عِنَادًا، وَإِمَّا جَهْلًا، كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ وَلَكِنْ يَقُولُونَ: إنَّمَا أُرْسِلَ إلَى غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنَّهُ لا يَجِبُ عَلَيْنَا اتِّبَاعُهُ؛ لِأَنَّهُ أَرْسَلَ إلَيْنَا رُسُلًا قَبْلَهُ.

فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي طَائِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِوِلَايَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

الشـــرح:

ما ذكره شيخ الإسلام فيما سبق فيه بيان أن الكفار من أولياء الشيطان، وأن المنافقين في هذه الأمة نظروا إلى الولاية، وولاية الفقراء وما يحصل لهم من أشياء يعجز عنها من حولهم، حتى زعموا أن محمدًا ﷺ لم يكن

---

(١) ذكره ابن القيم في المنار المنيف (ص١١٥) فصل (الموضوعات في فضائل الصديق).
وقال: إنه مما وضعه جهلة المنتسبين إلى السنة في فضائل الصديق رضي الله عنه.

مختصًا بهذا العلم الذي جاءه، بل هناك من الصحابة من كان في منزلته من العلم، بل ربما بعضهم كان أرفع منه - كما يقول طائفة - فزعموا أن العلوم الخاصة غير العلوم العامة، وأن هناك علومًا باطنة جعلها الله ﷻ للفقراء؛ ولهذا مثل بأهل الصفة، والمقصود به التمثيل بالفقراء.

والاعتقاد في الفقراء هذا كثير في البلاد الإسلامية، فيظنون ملازمة الولاية للفقر، وأن الولي لابد أن يكون فقيرًا متنكبًا عن الدنيا، وهذا باطل، بل سادة أولياء الله ﷻ من اتباع محمد ﷺ العشرة المبشرون بالجنة في مجلس واحد[1]، ومنهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد رضي الله عنه، وكانوا أغنياء.

فوصف الغنى والفقر ليس من الأوصاف التي يُكشف بها الولي فمن ظن أن ولاية أهل الصفة كانت من جراء كونهم فقراء فقط، فهذا ليس بصحيح، بل الولاية كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس ٦٢ - ٦٣].

فالولي: هو كل مؤمن تقي ليس بنبي، وليس من أوصافه أن يكون فقيرًا أو أن يكون من حاله كذا وكذا في أمر دنياه، بل الولاية راجعة إلى أمر الدين، إلى أمر اتباع الشريعة، وأولياء الله ﷻ ليس لهم علوم خاصة، بل علومهم تابعة للشرع، تابعة لمحمد ﷺ، فليسوا مُحدَّثين بأشياء ليست عند النبي ﷺ، بل علمهم منوط بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٧)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١٣٣)، والنسائي في الكبرى (١٦٣٠)، وأحمد في المسند (١/ ١٨٧).

وقد زعم المتأخرون من الجهال أن هناك من أولياء الله من يأخذون من المعدِن الذي أخذ منه الملك مباشرة، وبهذا يَفضلون محمدًا ﷺ، يقولون: الولي يأخذ عن الله مباشرة، وأما النبي ﷺ فأخذ عن الله بواسطة جبريل عليه السلام، فكما ذكر ابن عربي، وغيره، قال: فالولي يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك مباشرة، يعني: فلا يحتاج لواسطة، ففَضُل بهذا النبي.

وقالوا: الولي يمكن أن يخرج عن شريعة النبي؛ لأنه في الظاهر متبع للنبي، ولكنه في الباطن يتلقى تلقيًا خاصًا؛ ولهذا زعموا أن هناك من تسقط عنه التكاليف، وأن هناك من يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى[1].

وهذا الاعتقاد في جهال المسلمين من قديم، وفي زمن الدعوة كان هذا موجودًا في نجد، الاعتقاد في الصوفية، وفي الفقراء، وفي أنهم ربما فعلوا أشياء خارجة عن الشريعة، ويبقون على وَلايتهم؛ كما ذكر الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في (نواقض الإسلام): **(أن من النواقض من ظن أن أحدًا من الخلق يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ؛ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام)**[2].

وهؤلاء الجهال يعتقدون في المجانين، ويعتقدون في الفقراء، ويعتقدون في الشياطين، وربما جعلوهم أقطابًا، أو جعلوهم أوتادًا، أو جعلوهم

(١) انظر: كتاب مصرع التصوف (**تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي**)، فقد ذكر مؤلفه هذه الأقوال كلها وفندها.

(٢) انظر: نواقض الإسلام لشيخ الإسلام الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (٢/ ١١٧- ١١٨).

أبدالًا أو جعلوهم نجباء. . . إلى آخره.

فتجد - مثلًا - أنهم يقولون: الغوث الأكبر واحد، وكل غوث له أقطاب أربعة في الأرض، لكل واحد منهم قسم من الأرض، ولكل واحد من هذه الأربعة سبعة، ولكل واحد من هذه السبعة أربعون، فلن تصل إلى الغوث إلا عن هذه الطريق، وصنفت مصنفات في ذلك في ذكر الأربعين وليًا في مصر، أو الأربعين وتدًا في المغرب، هذه مصنفات موجودة.

فعندهم أن الأربعين هؤلاء يرفعون إلى السبعة، والسبعة يرفعون إلى الأربعة، والأربعة يرفعون إلى الغوث، والغوث يطلب من الله ﷻ، وهؤلاء إذا تأملت أسماءهم وتراجمهم، وهي موجودة وجدت أنهم - كما ذكر شيخ الإسلام - من المنافقين أو من المجانين، فلا يصح أن يكونوا أولياء فضلًا عن أن يكونوا من سادة الأولياء أو من المتقدمين، وهذه الألفاظ أقطاب أوتاد أبدال نجباء الغوث. . إلى آخره، هذه كلها لم ترد في الكتاب والسنة، وإنما جاء لفظ الأبدال في بعض الأحاديث، وإن كان في إسنادها شيء، ومن حسَّنها فإن المعنى واضح؛ فإن الأبدال هم الذين يأتي طائفة منهم بدل من قبلهم، فأبدال بمعنى أنهم يبدلون بغيرهم ويبدل غيرهم بهم، وهذا كما قال ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١) من حديث معاوية رضي الله عنه.

وَلا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيُؤْمِنُ بِكُلِّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ، وَكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

وَقَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ١-٥].

الشرح:

هذا الكتاب فيه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وسبق بيان

أن تعريف الولي عندنا هو: (**كل مؤمن تقي ليس بنبي**)، فلابد في الولي أن يكون مؤمنًا، ولابد أن يكون تقيًا لإطلاق خصوص اسم الولي عليه، وأن الإيمان يتبعض، وأن التقوى تتبعض، فبالتالي يكون ما ينتج منهما - وهي الولاية - تتبعض، فيكون الأولياء ليسوا على مرتبة واحدة، وذلك كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦]، فلكل مؤمن ولاية بحسبه، لكن اسم الولي هذا خاص بمن كمَّل الإيمان والتقوى، يعني: سعى في إكمال إيمانه وتقواه، والمقصود بالإيمان: الإيمان بالأركان الستة التي جاءت في هذه الآيات، وفي حديث جبريل عليه السلام[1] وغيره، ومنها الإيمان بالرسل والإيمان بالكتب، ومن الإيمان بالرسل والإيمان بالكتب بل هو أخصها، الإيمان بأن محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن القرآن هو خاتم الكتب، وأن طاعة محمد بن عبد الله ﷺ فرض وليس لأحد أن يخرج عن طاعته.

فكل هذا السياق من شيخ الإسلام ليبين أن قول حزب الشيطان في عصره وما بعده: إن ثم أولياء لا يخضعون لرسالة محمد ﷺ باطنًا وإن خضعوا لها ظاهرًا بحكمهم من الأمة؛ لأن هذا باطن كما ادعت طائفة أن الولي له ظاهر وباطن، فظاهره متابع لشريعة النبي الذي أرسل إليه، وباطنه يتلقى من مشكاة الوحي الذي تلقى منها ذلك النبي، وقد يفضل عليه... إلى آخر ذلك، فهذا السياق لتقرير أن الولي مؤمن بأركان الإيمان.

---

(١) حديث جبريل عليه السلام في الإيمان أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

فَلَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ أَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَكُلُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ؛ وَمَنْ آمَنَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

وَمِنْ الْإِيمَانِ بِهِ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ الْوَاسِطَةُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي تَبْلِيغِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ؛ فَالْحَلَالُ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَهُوَ كَافِرٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ.

الشـــرح:

الكفر في قول شيخ الإسلام: (وَمَنْ آمَنَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ) وكذلك في قوله تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ الكفر هنا قسمان:

القسم الأول: كفر التكذيب: وهو أن يكذِّب بالكتاب أو برسالة الرسول

يقولون: فلان رسول وفلان ليس برسول، فنحن نكذب رسالة فلان ولا نقر له بالرسالة، تكذيبًا له فيما جاء به، هذا تكذيب لرسالة بعض وإقرار برسالة بعض، فمن كذَّب بعض الرسل فقد كفر، ومن صدق بجميع الرسل وءامن فهو مؤمن.

والقسم الثاني: كفر من جهة الإباء والاستكبار والامتناع، بمعنى أنه أبى أن يتبع ذلك الرسول، أبى أن يكون ملتزمًا بشريعة ذلك الرسول، بل يقول: أنا أؤمن بالرسول وأتبع شريعة فلان ولا أتبع شريعة الآخر، ففرقوا بين الرسل، وهذا من جهة الاحتجاج على اليهود، والواجب على عباد الله أن يكونوا مؤمنين بجميع الرسل مصدقين، وأن يكونوا منقادين طائعين لما جاء به محمد ﷺ، وما جاء به القرآن؛ لأنه خاتم الكتب؛ ولأن محمدًا ﷺ خاتم الرسل.

إذًا يكون الإيمان على درجتين كل منهما فرض، ولا يتم الإيمان إلا بهما جميعًا: الإيمان بمعنى التصديق برسالة محمد ﷺ، ثم الإيمان بمعنى الالتزام بما جاء به، وعدم الامتناع عما جاء به[1]. فمن كذَّب الرسول فقد كفر، ومن أبى واستكبر فهو كافر.

---

(١) قال شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب عقيدة الفرقة الناجية (ص ٢٠): «ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع». وانظر في ذلك أيضًا شرح الطحاوية (ص٥٠٢).

وَأَمَّا خَلْقُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْخَلْقِ، وَرَزْقُهُ إِيَّاهُمْ، وَإِجَابَتُهُ لِدُعَائِهِمْ، وَهِدَايَتُهُ لِقُلُوبِهِمْ، وَنَصْرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، فَهَذَا لِلَّهِ وَحْدَهُ يَفْعَلُهُ بِمَا يَشَاءُ مِنْ الْأَسْبَابِ، لا يَدْخُلُ فِي مِثْلِ هَذَا وَسَاطَةُ الرُّسُلِ.

ثُمَّ لَوْ بَلَغَ الرَّجُلُ فِي الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ مَا بَلَغَ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلا وَلِيٍّ لِلَّهِ تَعَالَى، كَالْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعُبَّادِهِمْ، وَكَذَلِكَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ؛ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالتُّرْكِ وَالْهِنْدِ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ مِنْ حُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ، وَلَهُ عِلْمٌ أَوْ زُهْدٌ وَعِبَادَةٌ فِي دِينِهِ، وَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ، فَهُوَ كَافِرٌ عَدُوٌّ لِلَّهِ، وَإِنْ ظَنَّ طَائِفَةٌ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، كَمَا كَانَ حُكَمَاءُ الْفَرَسِ مِنْ الْمَجُوسِ كُفَّارًا مَجُوسًا.

وَكَذَلِكَ حُكَمَاءُ الْيُونَانِ - مِثْلُ: أَرِسْطُو[١] وَأَمْثَالِهِ - كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْكَوَاكِبَ، وَكَانَ أَرِسْطُو قَبْلَ الْمَسِيحِ عليه السلام بِثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ وَزِيرًا لِلْإِسْكَنْدَرِ بْنِ فَيلْبس الْمَقْدُونِيِّ[٢]، وَهُوَ الَّذِي تُؤَرَّخُ بِهِ تَوَارِيخُ الرُّومِ وَالْيُونَانِ، وَتُؤَرِّخُ

(١) أرسطو، ويقال: أرسطو طاليس، أول من وضع تعاليم المنطق، من الحكماء المعروفين بالمشائين، أخذ الحكمة عن أفلاطون، وكان أستاذًا للاسكندر المقدوني ومستشارًا له. انظر: دائرة المعارف (٣/ ٧٥).

(٢) الاسكندر بن فليبس المقدوني اليوناني المصري باني الإسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم ولد قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلاثمائة سنة وهو الذي أذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم وكان الفيلسوف - أرسطو- وزيره.
انظر: البداية والنهاية (٢/ ١٠٥)، والأنس الجليل (١/ ١٥٣).

بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ وَلَيْسَ هَذَا هُوَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ أَرِسْطُو كَانَ وَزِيرًا لِذِي الْقَرْنَيْنِ، لَمَّا رَأَوْا أَنَّ ذَاكَ اسْمُهُ الْإِسْكَنْدَرُ وَهَذَا قَدْ يُسَمَّى بِالْإِسْكَنْدَرِ ظَنُّوا أَنَّ هَذَا ذَاكَ، كَمَا يَظُنُّهُ ابْنُ سِينَا(١) وَطَائِفَةٌ مَعَهُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ هَذَا الْإِسْكَنْدَرُ الْمُشْرِكُ الَّذِي قَدْ كَانَ أَرِسْطُو وَزِيرَهُ مُتَأَخِّرٌ عَنْ ذَاكَ، وَلَمْ يَبْنِ هَذَا السَّدَّ، وَلَا وَصَلَ إِلَى بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهَذَا الْإِسْكَنْدَرُ الَّذِي كَانَ أَرِسْطُو مِنْ وُزَرَائِهِ يُؤَرَّخُ لَهُ تَارِيخُ الرُّومِ الْمَعْرُوفِ.

وَفِي أَصْنَافِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَمُشْرِكِي الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْيُونَانِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ لَهُ اجْتِهَادٌ فِي الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ بِمُتَّبِعٍ لِلرُّسُلِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَلَا يُصَدِّقُهُمْ بِمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَلَا يُطِيعُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا، فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ، وَهَؤُلَاءِ تَقْتَرِنُ بِهِمُ الشَّيَاطِينُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهِمْ، فَيُكَاشِفُونَ النَّاسَ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، وَلَهُمْ تَصَرُّفَاتٌ خَارِقَةٌ

---

(١) هو الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، صاحب التصانيف في الفلسفة والطب، مولده سنة سبعين وثلاثمائة، كان يقول بقدم العالم، ونفى المعاد الجسماني، وأثبت المعاد النفساني، قال عنه الذهبي: «هو رأس الفلاسفة الإسلامية، لم يأت بعد الفارابي مثله، فالحمد لله على الإسلام والسنة، وله كتاب الشفاء وغيره، وأشياء لا تحتمل، وقد كفره الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال» ا. هـ. وقيل: إنه تاب ورجع عن أقواله قبل الممات، فالله أعلم بخاتمته، توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة.
انظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٥٧)، والوافي بالوفيات (١٢/ ٢٤٢ - ٢٥٠)، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص٤٣٧)، وسير الأعلام (١٧/ ٥٣٥)، والعبر (٣/ ١٦٧)، وشذرات الذهب (٣/ ٢٣٤).

مِنْ جِنْسِ السِّحْرِ، وَهُمْ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ الَّذِينَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣]. وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمُ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْمُكَاشَفَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ إِذَا لَمْ يَكُونُوا مُتَّبِعِينَ لِلرُّسُلِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكْذِبُوا وَتُكَذِّبَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا هُوَ إِثْمٌ وَفُجُورٌ، مِثْلُ نَوْعٍ مِنْ الشِّرْكِ أَوْ الظُّلْمِ أَوْ الْفَوَاحِشِ أَوْ الْغُلُوِّ أَوْ الْبِدَعِ فِي الْعِبَادَةِ، وَلِهَذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ وَاقْتَرَنَتْ بِهِمْ، فَصَارُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ لا مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ مِثْلُ الْقُرْآنِ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقُرْآنِ، وَيُصَدِّقْ خَبَرَهُ، وَيَعْتَقِدْ وُجُوبَ أَمْرِهِ، فَقَدْ أَعْرَضَ عَنْهُ، فَيُقَيِّضُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَيَقْتَرِنُ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦]، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ ذِكْرَهُ هُوَ آيَاتُهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا؛ وَلِهَذَا لَوْ ذَكَرَ الرَّجُلُ اللَّهَ ﷻ دَائِمًا لَيْلًا وَنَهَارًا مَعَ غَايَةِ الزُّهْدِ، وَعَبَدَهُ مُجْتَهِدًا فِي عِبَادَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مُتَّبِعًا لِذِكْرِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ - وَهُوَ الْقُرْآنُ - كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ مَشَى عَلَى

الْمَاءِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْمِلُهُ فِي الْهَوَاءِ. وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

الشـــرح:

قوله: (وَرَزْقُهُ): بالفتح، والرِزق بالكسر هو الشيء المرزوق، رزق الله عبدًا رَزقًا فذاك الشيء هو الرِزق، وأما المصدر فهو الرَزْق، فتقول: الخَلق والرَزق والإحياء والإماتة والبَرء.. إلى آخره.

هذا الكلام يريد به شيخ الإسلام رحمه الله بيان أن الطوائف من المسلمين الذين ادعوا الولاية، وادُعي فيهم أنهم أولياء، وعُظموا بسبب ذلك، هؤلاء إن كان سبب ولايتهم أنهم متبعون للرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، مؤمنون به، محكمون لشريعته في أنفسهم، هذا ظاهر في أنهم من أولياء الله. وأما إن كان سبب إطلاق الولاية عليهم أنهم زهاد عباد، وأنهم متنزهون عن كثير من الدنيا، وأنهم مقبلون على أمر آخرتهم، وفيهم مكاشفات وإخبار بغيبيات ويحصل لهم خوارق وعادات؛ فإن هذا القدر يحصل أيضًا لكثير من المتزهدة، ومن عنده بعض فلسفة وعلم من الذين داووا نفوسهم وباطنهم من غير هذه الأمة، فذكر أمثلة من الترك - يعني: الروس الآن وبلاد تركستان وما حولها - ومن الهند وخُرَاسان، وكذلك من اليونان، هؤلاء منهم من نقل عنه بالنقل المستفيض أنهم يحصل لهم خوارق عادات وأن عندهم زهدًا وعبادة إلى آخره.

وشيخ الإسلام كأنه يتنزل ويناظر؛ فإن كان مدار الولاية وإطلاق اسم الولي على من عنده زهد وعبادة أو خوارق عادات، فأولئك أيضًا كذلك

لكن هم كفار بالإجماع؛ لأن متعبدة اليهود، ومتعبدة النصارى - أي: وزهاد اليهود النصارى - قد يكون عندهم بكاء من خشية الله، وقد يكون عندهم خوارق عادات، وكذلك زهاد متعبدة الهند، والترك، والفرس، واليونان... إلى آخره، هؤلاء كفار بالإجماع؛ لأنهم لم يتبعوا محمدًا ﷺ ولأنهم لم يكونوا مسلمين ظاهرًا وباطنًا.

إذًا ما الفرق في الحال بين هؤلاء الذين ادعيت فيهم الولاية، وادعوا الخروج من شريعة محمد ﷺ، وأولئك، وإن قيل: إن عندهم خوارق عادات؟

نقول: إن خارق العادة ليس هو الكرامة، فالذي يؤتي الله ﷻ الأولياء هي الكرامات، وأما الخوارق فإنها تجري للسحرة، وتجري للكهنة، وتجري للشياطين، وغير ذلك. فحصول الخارق للعادة ليس برهان على أن من حصل له ولي من أولياء الله.

وخارق العادة مثل أن يخبرك بما في نفسك، مثل أن يجري شيئًا غريبًا، مثل أن ينتقل من مكان إلى مكان بسرعة عجيبة، مثل أن يحضر له شيء من الأطعمة ليست في أوانها، وهذه تحصل للسحرة والمشعوذين، فالخارق للعادة أمر مشترك بين الأنبياء والرسل، والأولياء، وبين المشعوذين والكهنة والسحرة والبطالين. فإن كان الخارق للعادة أوتيه نبيًا، فيسمى آية وبرهانًا، وإن كان الخارق للعادة أوتيه عبدًا صالحًا متبعًا لنبي، فيسمى كرامة للولي، وإن كان الخارق للعادة أوتي مستكبرًا على الأنبياء أو مبتدعًا أو فاجرًا أو كافرًا، فإنه يسمى مخاريق شيطانية، أو مساعدة الشياطين(١).

(١) انظر: الجواب الصحيح (٢/ ١٤٠)، وتيسير العزيز الحميد (ص٣٤٤).

فإذًا ليس العبرة بخرق العادة؛ ولهذا تُعرف الكرامة التي تكون للأولياء بأنها: أمر خارق للعادة جرى على يدي الولي، وآية النبي: أمر خارق لعادة الجن والإنس جرى على يد نبي، والعادة التي تخرق لفظها غير منضبط؛ لأنهم قالوا: خارق للعادة. العادة هذه، عادة من؟ هذا الوصف غير منضبط (**خارق للعادة**)؛ ولهذا عند التحقيق يكون فيه تفصيل.

فالعادة التي تُخرق للأنبياء والرسل: آية وبرهان، فتكون العادة هي عادة الثقلين الجن والإنس، وقد دل على هذا قول الله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] وأما الكرامة، فهي خارق لعادة الأنس الذين فيهم ذلك الولي، قد يكون في مكان آخر لا تخرق العادة لكنه يُكرم بهذا، مثل طعام يؤتاه في فصل الصيف وهو من طعام الشتاء، وفي مكان آخر من الأرض يكون ثم شتاء في وقت هذا الصيف فيكون طعامهم طعام الشتاء.

فيكون إذًا العادة في حق الولي، عادة الإنس الذين فيهم ذلك الولي، وقد يكون الإنس بعامة، مثل المشي على الماء، أو الطيران في الهواء إلى آخره، ولكن هذا يختلف باختلاف الأزمنة، فمثلًا، إذا مشى على الماء، أي أن الماء صار يابسًا ومشى عليه - اليوم من الممكن أنه يكون هناك بعض المعالجات، فيكون الماء يابسًا ويمشي عليه - كذلك الطيران في الهواء كرامة، اليوم اختلف الأمر، صار البر والفاجر يطير في الهواء بوسائل أحدثت. فإذًا خرق العادة بالنسبة للولي أن تكون عادة الناس في زمنه، أو عادة جنسه الذين يعيش فيهم.

أما خرق العادة بالنسبة للشياطين من الكهنة والسحرة، فهم يأتون بأمور

خارقة للعادة، ولكنها عادة من ليس منهم، فالساحر يخرق عادة من ليس بساحر، والكاهن يخرق عادة من ليس بكاهن، يعني: من الناس من ليس بكاهن يخرق عادته.

المقصود من هذا بيان التفصيل في هذه الكلمة المجملة، وهي **(خرق العادة)** وأن ما آتاه الله ﷻ للأنبياء والرسل خوارق للعادات، ولكن عادة كذا وكذا، وما آتاه الله للأولياء خارق للعادة من الكرامة، ولكن عادة كذا وكذا، وأما مخاريق السحرة والكهنة فهي خارقة لعادة من ليس من السحرة والكهنة؛ ولهذا لما أتى الله ﷻ بآية موسى بطلت مكايد السحرة وما فعلوه؛ لأن ذلك الذي أعطاه الله ﷻ موسى فوق ما تمخرق به الشياطين وتخبر به الجن، أو يفعله السحرة والكهنة.

وكل ما ساقه شيخ الإسلام لأجل تقرير الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

إذًا كون الشيء يحصل خارقًا للعادة المعتادة لا يدل على أن من حصل له وليًا؛ كأن يخبر بما في نفسك، أو يخبر بأمر غائب، أو يأتيه شيء غريب في وقت غريب، أو يحصل له نوع أشياء وانتقالات، أو تُيسر له أمور... ونحو ذلك، فهذا لا يدل على أنه ولي حتى يكون مؤمنًا تقيًا؛ لأن الخوارق قد تحصل من جهة الشياطين وحزبهم.

أما أولياء الله ﷻ أهل الإيمان والتقى والطاعة، فلا يوصفون إلا بمتابعة الكتاب والسنة والإيمان والتقوى، فليسوا بمعرضين عن ذكر الله، بل مقبلون عليه، فالذي لا يقرأ القرآن ولا يتبع ما فيه ولا يهتم بسنة النبي ﷺ، بل يخالفها في أقواله وأعماله وعلمه؛ فإن هذا ليس من أولياء الله، بل

أولياء الله ﷻ هم المؤمنون المتقون. فهذا تتمه لما سلف بيانه، من وصف أولياء الله بأنهم أهل ذكر الله، وأهل طاعته وتقواه.



فَصْلٌ فِي صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَأُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ إيمَانٌ وَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَعْلَاهَا قَوْلُ لا إلَهَ إلااللَّهُ وَأَدْنَاهَا إمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ»(٢).

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ فَفِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا.

الشـــرح:

موضوع هذا الباب عن النفاق وما جاء من بيان معناه وخطره في الدنيا والآخرة، على الفرد وعلى المجتمع، وبيان صفات أهله، ولا شك أن هذا الموضوع من المهمات العظيمة، وذلك لأن فقه الكتاب والسنة ومعرفته، والعلم بما جاء فيه الآي والحديث، هذا مما ينبغي إشاعته ونشره في الناس

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

والعلم به؛ لأن في ذلك فقهًا بكتاب الله ﷻ وبسنة رسوله ﷺ.

وفي الكتاب والسنة نصوص كثيرة جدًا في بيان النفاق، وبيان أهله وبيان صفاتهم، وبيان ما يصيبهم في الدنيا، وكيف يتعامل معهم في الدنيا؟ وبيان مآلهم في الآخرة بل وفي البرزخ، وبيان ما يقولون وبيان ما يعملون، وهذا العلم به علم بالنصوص، والعلم بالنصوص من أشرف ما يتقرب المرء به إلى ربه ﷻ.

ثم من أسباب الاهتمام بهذا الموضوع:

أن الصحابة ﷺ كان كثيرون منهم يخافون النفاق، ويخشون أن يكونوا من المنافقين. هذا عمر رضي الله عنه خليفة راشد، وصاحب رسول الله ﷺ والمبشر بالجنة في حياته ﷺ، يقول لحذيفة رضي الله عنه وكان عنده خبر المنافقين: يا حذيفة هل عدني رسول الله ﷺ من المنافقين؟ - من خوفه أن يكون منهم، وهو على تلك المنزلة العالية - فقال له: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا.

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ أبي مُلَيْكَةَ قَالَ: (**أَدْرَكْت ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ**)[1].

وصلى أبو الدرداء رضي الله عنه مرة في مسجد فأطال الصلاة، وكان بجانبه جبير بن نفير التابعي المعروف، فلما أتى قبل السلام أكثر أبو الدرداء من الاستعاذة من النفاق - يسأل الله ﷻ أن يعيذه من النفاق - فلما انصرف قال له جبير: يا أبا الدرداء أكثرت من الاستعاذة من النفاق. فما لك وللنفاق؟

(١) أخرجه البخاري معلقًا (١/ ١٣٥- مع الفتح)- كتاب الإيمان باب خوف المؤمن أن يحبط عمله- وقال الحافظ: وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه لكنه أبهم العدد، وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولًا في كتاب الإيمان له.١.هـ.

يعني: أن النفاق ليس لك وأنت صاحب رسول الله ﷺ... إلى آخره، قال: دعنا منك. دعنا منك. دعنا منك. إن العبد المؤمن لا يأمن أن يقلب الله قلبه في طرفة عين.

ولهذا العاقل والمؤمن الصادق الصالح يخشى أن يقلب الله قلبه فيخسر الدنيا والآخرة، والذنوب يغشاها كثير وهي على باب الغفران. ولكن الشأن في مسالك النفاق الأكبر أو الأصغر المستدام عليها.

ولقد أحسن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ قال:

وَاللَّهِ مَا خَوْفِي الذُّنُوبُ فَإِنَّهَا لَعَلَى طَرِيقِ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ

لَكِنَّمَا أَخْشَى انْسِلَاخَ الْقَلْبِ مِنْ تَحْكِيمِ هَذَا الْوَحْيِ وَالْقَرْآنِ

وَرِضًا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَخَرْصِهَا لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ[1]

وتحكيم الوحي والقرآن والاستجابة له، أخص صفات المؤمنين، والبعد عن ذلك والتنكب عن سبيله والإعراض هذا من أخص صفات المنافقين قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١]، فالمنافقون لهم صفات جاءت في الكتاب والسنة.

فإذا هذا الموضوع مهم فقهًا في النصوص، وأيضًا حذرًا وخوفًا من أن يكون العبد من أهل هذه الصفة وهو لا يشعر، ثم أيضًا ليحذر مستقبلًا وليكون على حجة من نفسه.

(١) انظر: النونية لابن القيم مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٦٠٢).

ثم أيضًا من أوجه الاهتمام بهذا الموضوع: أن معنى النفاق قد يكون ظاهرًا بينًا في عهده ﷺ، لكن يخفى بيانه وإيضاح صورته في الأزمنة المختلفة وخاصة في هذا الزمان. ومن الناس من أدخلوا في المنافقين من ليس منهم، ومنهم من يجعلون النفاق الأصغر أكبر، ومنهم من لم يضبط الضوابط لحد النفاق الأكبر وحد النفاق الأصغر، لهذا العلم بهذه الأصول من أهم المهمات.

ثم أخيرًا البحث في النفاق وما يتعلق به بحث عقدي، والعقيدة هي أول ما يهتم به المخلصون.

النفاق معناه في اللغة: أن يظهر المرء شيئًا ويخفي شيئًا، ثم جاء معناه في الشريعة أن يخفى الكفر ويظهر الإسلام[1].

وهكذا عرف العلماء النفاق: بأنه إظهار الإسلام وإبطان الكفر[2] أخذًا من قول الله ﷻ: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ٩، ١٠]، وسورة البقرة - وهي ثاني سورة في القرآن - ذكر الله ﷻ في أولها صفات المؤمنين في آيات قليلة، ثم صفات الكفار، ثم ذكر المنافقين وصفاتهم في آيات كثيرة.

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (٥/ ٤٥٥)، ولسان العرب (٥/ ١٤٤)، وتاج العروس (٢٦/ ٤٣٥)، والمعجم الوسيط (٢/ ٩٤٢)، والتعريفات (ص٣١١).

(٢) انظر: تفسير السعدي رحمه الله (١/ ٤٧)، وتهذيب الآثار (٢/ ١٧٢)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٩٠)، وشرح السنة للبربهاري (ص٣٠)، ومجموع الفتاوى [(٧/ ٣٠٠ ، ١١/ ١٤٠ ، ٢٨/ ٢٣٤)]، وطريق الهجرتين لابن القيم رحمه الله (٢/ ٤٠)، وشرح السنة للبغوي (١/ ٧٦).

وهذا يدلك على أن العلم بهذا الأصل ومعرفة حدوده، من العلم بكتاب الله ﷻ، ومن أهم المهمات.

فإذًا النفاق في الشرع: أن يبطن الكفر ويظهر الإسلام. يعني في قلبه في داخله ليس بمؤمن، ولا يؤمن بالبعث بعد الموت، بل وأيضًا يوالي الكفار، ويجب انتصار غير دين الرسول ﷺ ونحو ذلك، وفي الظاهر يظهر الإسلام، وربما يصلي مع الناس أحيانًا، وربما أظهر بعض الشعائر لكنه منطو في قلبه على الكفر بالله وبرسوله وباليوم الآخر.

قال بعض العلماء أنه في الأصل أنه مشتق من نافق اليربوع الذي هو الجربوع، وهذا كما هو معروف بيته يكون له مخارج مختلفة. يعني أنه يخدع من يأتيه، إذا أتاه من هنا خرج من هناك يعني أظهر من هناك وأخفى الحقيقة.

إذا تبين ذلك، فإن حقيقة النفاق لم تظهر في الإسلام إلا بعد ظهور دولة الإسلام في المدينة، أما في مكة لما كان النبي ﷺ فيها والمستضعفون من المؤمنين، فإنه لم يظهر المنافقون؛ لأنه من شاء آمن ومن شاء كفر، أما لما هاجر النبي ﷺ، وظهرت العزة وظهرت راية الإسلام، وقوي الحق فإن أناسًا أرادوا الحفاظ على دنياهم، فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وهؤلاء عاملهم الرسول ﷺ في الظاهر معاملة المسلمين، يعني: لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، حتى أنهم كانوا يرثون ويورثون باعتبار الظاهر وأنهم من أهل الإسلام، بل إن النبي ﷺ ربما داراهم ﷺ، وربما استصلحهم كما هو معلوم في السيرة وفي حديثه ﷺ.

فإذًا لا يكون النفاق ظاهرًا إلا مع قوة الدولة، وأما إذا ضعف الإسلام

وأهله وضعفت دولتهم، فإنه لا يحتاج الناس أن يظهروا الإسلام ويبطنوا الكفر، لأنه لن يعاقب، ومن أظهر الإسلام فإنه كغيره.

فلهذا حقيقة النفاق ظهرت في عهده ﷺ، وجاءت هذه الآيات الكثيرة التي ذكرها الله ﷻ في عدد من السور، وهذا ليس مختصًا بعهده ﷺ. بل كان بعد ذلك هناك منافقون وسموا في أزمنة من أزمنة الإسلام. سموا زنادقة، ففي بعض الأزمنة ذهب اسم النفاق. لا يقال منافق وإنما يقال زنديق، فإذا قيل فلان زنديق، وهو في بلد الإسلام، فيعني به في التاريخ: أنه كان يبطن الكفر ويظهر الإسلام، واستدل على إبطانه للكفر بأشياء ظهرت منه، كمسبة الله ﷻ، أو رسوله ﷺ، أو انتقاص لدين الإسلام، أو تهجين لهدي النبي ﷺ، أو أشباه ذلك.

والنفاق إذا كان كذلك، فإذًا هو باقٍ ما بقيت القوة، وهذا يعني أن النفاق الأكبر الذي هو صفة المنافقين، الذين يظهرون الكفر أن هؤلاء قد يوجدون في أي زمان وفي أي مكان تبعًا لقوة الإسلام وقوة أهله. لماذا يظهرون؟ إذا خافوا على دنياهم، مع أنهم في الباطن مقرون بعدم الإيمان وكرههم لدين محمد ﷺ.

قال العلماء: النصوص دلت على أن النفاق قسمان:

القسم الأول: نفاق اعتقادي وهو وصف من هو كافر في الباطن. وذلك بأن يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

كيف يبطن الكفر؟ يبطن بغض الرسول ﷺ، يبطن بغض دينه، يبطن بطلان تحكيم كتاب الله ﷻ وسنة رسوله، يبطن بغض التوحيد وبغض أهله، وموالاة الشرك وأهله ونصرتهم ضد أهل توحيده ونحو ذلك، فالنفاق

الاعتقادي هو ما يرجع إلى الاعتقاد.

يعني: أنه في اعتقاده أبطن وأظهر. أبطن الكفر، وفي الظاهر هو على الإسلام وهذا له صورة كثيرة:

أعظمها وهي الصورة الأولى: أنه يكون في الباطن مشركًا، يكون في الباطن يعبد غير الله ﷻ، يتعلق بغير الله ﷻ ويخافه خوف السر، أو يرجوه رجاء العبادة، أو يحبه محبة العبادة التي صرفها لغير الله شرك ونحو ذلك، كتعلق الذين يعبدون الأولياء والأموات بأوليائهم وأمواتهم، أو يضمر الكفر بكتاب الله ﷻ، والبغض للقرآن، والبغض لسنة النبي ﷺ، فهذا الإبطان أو هذا الإخفاء أعظم ما يكون من النفاق ففي الظاهر مع المسلمين، لكنه في الباطن مشرك يحب الشرك ويحب عبادة غير الله ويحسنها، ويود أن لو كانت له فرصة لنشرها وإعانة أهلها - والعياذ بالله -.

وقد يكون من جهة الكفر كما سبق: أنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر أصلًا، وإنما هو كافر بلقاء الله ﷻ.

الصورة الثانية: أنه يظهر الإيمان بمحمد ﷺ، لكن يعتقد أن محمدًا ﷺ ليس برسول، أو أنه مرسل للعرب، أو أن هؤلاء المرسلين كل واحد أتى بالإصلاح في نفسه وليسوا منبئين من عند الله ﷻ، كما يقوله طائفة من الفلاسفة أنهم وصلوا إلى النبوة والرسالة بالمجاهدة وبالتدريب، حتى وصلوا إلى مقام الفتح والإصلاح، وهذا صنيع طائفة من الزنادقة المنسوبين إلى الإسلام في عصور مختلفة من المنتسبين إلى الفلسفة، وهم في الواقع ليسو بمؤمنين بأن محمدًا ﷺ رسول حقًا، وإنما يقولون حقيقة الرسالة فيوضات، حقيقية الرسالة إلهام، المرسلون هؤلاء رجال عظماء مصلحون

أدوا ما عليهم، لكن ليسوا منبئين من عند الله ﷻ يجب اتباعهم وتحرم مخالفتهم، وهذا وقع فيه كثير من أهل العصر، إذا كتبوا عن العلماء تظهر عليهم هذه النحلة ويكتبون عن النبي ﷺ على أنه عظيم من العظماء، وعلى أنه مصلح في التاريخ، ولا يضمنون هذا حقيقة الإصلاح الذي جاء ﷺ، وهو أنه رسول من عند الله ﷻ مُنبَئً كلمة الله ﷻ وأوحى إليه كلامه، وأن ما جاء به يجب اتباعه. وهذا نوع مما كان عليه الفلاسفة وراج على طوائف كثيرة.

من صور النفاق الأكبر: أن أهله يكرهون تحكيم الكتاب والسنة، ويبغضون الرجوع إلى القرآن والسنة فيما يختلف فيه الناس، يعني: في القضاء وفي الحدود وفي الأحكام الشرعية المختلفة، بل إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. لماذا؟ إذا كان لهم الحق جاءوا مذعنين، وإذا كان ذلك فإنهم يهربون من كتاب الله ورسوله لماذا؟ لأنهم ليسوا مؤمنين، وإنما هم منافقون وهذه الصفة جاءت في القرآن في آيات كثيرة في وصف المنافقين في سورة النساء، وفي سورة النور، وفي غيرها.

من صفات المنافقين أو من صور النفاق الأكبر أن المنافقين النفاق الأكبر لا يوالون المؤمنين ولايوالون الإيمان. بل يوالون الكفر والكافرين كما قال ﷻ: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١] في الباطن يوالون الكفر، يريدون ويرغبون ويسعون في انتصار الكفر على الإسلام، وأن يخفى نور الإسلام وينتصر الكفر والعياذ بالله.

ومن صور النفاق الأكبر: أنهم يسرون بانخفاض دين الرسول ﷺ ويفرحون بعلو دين غيره ﷺ، يعني يسرون بضعف المسلمين، يعني: يسرون بضعف الإسلام يعني في أهله، ويفرحون إذا قوي الكفر، وهذا يدل على عدم إيمان، وهذه أيضًا في القرآن في آيات كثيرة. هذه بعض الصور للنفاق الأكبر الاعتقادي.

والنفاق الأكبر الاعتقادي كفر بالله ﷻ، وصاحبه في الدنيا معذب بإذن الله، وفي الآخرة أيضًا في الدرك الأسفل من النار كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

والمنافقون النفاق الاعتقادي، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يخافون الله ﷻ، ولا يرجون لقائه ولا يخشون لقائه. بل يهزأون بذلك كله فهم ماديون همهم الحياة الدنيا. لا يأبهون أن إذا حدثوا كذبوا، إذا كان فيه مصلحة لهم بأي شكل، وإذا عاهدوا غدروا، وإذا أؤتمنوا خانوا، وإذا خاصموا فجروا، وإذا وعدوا أخلفوا... إلى آخره، ويتخلفون عن الصلوات، ولا يصلون إلا إذا كانوا في حضرة الناس. ويتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس، ويعلنون فيما بينهم وبين إخوانهم أنهم معهم، وإذا كانوا مع المؤمنين قالوا: نحن معكم... ونحو ذلك لهم صفات كبيرة.

القسم الثاني من النفاق: فهو ما يسمى النفاق الأصغر، أو النفاق العملي، وهو أن يكون عنده خصلة من خصال النفاق، أو خصلة من خصال المنافقين يعني النفاق العملي.

وقوله ﷺ: (خَصْلَةٌ): المقصود بها أن يكون يغلب على أمره ذلك، أما من حصل منه مرة كذب في الحديث، أو خيانة للأمانة، أو إخلاف للوعد،

فلا يكون فيه بهذا شعبة من شعب النفاق، بل يكون عنده معصية. فالشعبة من شعب النفاق تكون لمن كان على ذلك مستمرًا.

وقوله: (إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ) يعني: يكذب في الحديث دائمًا أو يغلب عليه الكذب، فهو معروف بالكذب في الحديث، فهذا هو الذي يكون فيه خصلة من النفاق، وكذلك (إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ)، و(إِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ) وإذا خاصم فجر، أما حصول ذلك على جهة القلة، فليس هذا دليلًا على شعب النفاق فيمن كانت فيه.

وقوله ﷺ: «وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ» وإخلاف الوعد من صفات المنافقين، وله شرطان ذكرهما أهل العلم:

الأول: أن يكون حين يعد يضمر الإخلاف، وهذا جاء في حديث عن النبي ﷺ قال: «لَا تُمَارِ أَخَاكَ ولا تُمَازِحْهُ ولا تَعِدْهُ مَوْعِدَةً فَتُخْلِفَهُ»[(١)]، يعني: إذا كنت تعد لأجل أن تتخلص من الذي أمامك، وأنت في قرارة نفسك تضمر إخلاف وعدك، ويتكرر هذا منك، فهذا من صفات النفاق العملي - والعياذ بالله - أما إذا وعدت ثم حصل شيء، فأخلفت وعدك بغير قصد أن تخلف، واجتهدت أن تفي لكن لم يحصل الوفاء، فهذا ليس من صفات النفاق العملي.

الثاني: أن يكون على صفة الخصال الفطرية، يعني: الديمومة، فإذا

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٤٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (ص٩٩)، والقضاعي في الشهاب (٢/ ٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٤٤)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر.

فإذًا الوفاء بالوعد وعدم إخلاف الوعد، هذه من صفات المؤمن، فإذا وعدت فاجتهد أن تفي بوعدك، وقد أثنى الله ﷻ على نبيه إسماعيل عليه السلام بأنه كان صادق الوعد، يعني: هذه من خصال أهل الإيمان أنه إذا وعد جاهد نفسه أن يفي بالوعد، أما أهل النفاق فإنهم يعدون، وحين يعدون لا يبالون وينوون عدم الوفاء، وهذا نوع من الغدر.

قوله: «وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»، فإنه يجب الوفاء بالعهد، أما من كانت صفته أنه لا يُبالي بالعهود ولا يبالي بالعقود؛ كحال بعض الناس الذين لا يبالون بأي عقد ولا بأي عهد بينهم وبين الخلق؛ فإن هذا من صفات النفاق العملي؛ لأنه نتيجة من نتائج عدم الإيمان باليوم الآخر، فهو دائمًا لا يرعى لمؤمن ذمة، ولا يرعى حقًا لكافر، ولا يرعى حقًا لمتعاقد معه، فعدم الوفاء بالعهد إذا كانت صفة دائمة له فهي قرينة للكذب؛ لأنه يكذب ويخالف العهد، يكذب ويغدر، فهذه صفات من لا يؤمن باليوم الآخر، ولا يخشى لقاء الله جل جلاله.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ - وَهُوَ مِنْ خِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ - «إِنَّك امْرُؤٌ فِيك جَاهِلِيَّةٌ» فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعَلَى كِبَرِ سِنِّي؟! قَالَ: «نَعَمْ»(١).

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»(٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اُؤْتُمِنَ خَانَ»(٣).

وَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ): «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»(٤).

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ أبي مُلَيْكَةَ قَالَ: (أَدْرَكْت ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ)(٥).

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).
(٢) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.
(٣) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).
(٤) هذه الزيادة عند مسلم كتاب الإيمان (١٠٩ - ١١٠).
(٥) سبق تخريجه (ص٦٩).

لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]. **فَقَدْ جَعَلَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْكُفْرِ أَقْرَبَ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ فَعُلِمَ أَنَّهُمْ مُخَلِّطُونَ وَكُفْرُهُمْ أَقْوَى وَغَيْرُهُمْ يَكُونُ مُخَلِّطًا وَإِيمَانُهُ أَقْوَى.**

الشـــرح:

الجاهلية راجعة إلى الجهل بالله ﷻ وبما يستحقه وبما يحبه من الدين والطاعة، وهذه الجاهلية هي كل ما كان عليه الناس قبل رسول الله ﷺ مما خالفوا فيه الدين المشترك للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أو ما شرعه من الدين الحق على ألسنة رسله، فيشترك في ذلك ما كان عليه أهل الجاهلية من العرب، وأهل الجاهلية من اليهود، وأهل الجاهلية من النصارى، وأهل الجاهلية من المجوس، وأهل الجاهلية من الصابئة، وهكذا... إلى جميع أنواع أهل الملل.

الجاهلية غالب إطلاقها في الكتاب والسنة يُعنى بها: الحال، وقد تُطلق ويُعنى بها صاحب الحال.

فمن الأول: - وهو أن تُطلق ويُعنى بها الحال -: يعنى بها الصفة التي هي راجعة إلى نفي العلم والإغراق في الجهل بما أنزل الله ﷻ على رسوله، هذه الجاهلية التي هي الحال والصفة منها قول النبي ﷺ لأبي ذر حين عَيَّر رجلًا أسود بأمه - وهو بلال رضي الله عنه في الراجح - قال له ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»[1].

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٩).

وكذلك قوله ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ»[١]، ونحو ذلك من الأحاديث التي فيها ذكر الجاهلية.

ويدل لذلك قول الله ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝﴾ [المائدة: ٥٠]، فإنه في هذه النصوص يُعنى بالجاهلية الحال والصفة.

الحالة الثانية: قد يراد بها ذو الحال، فيقال: فلان جاهلي، كما يقال: امرؤ القيس شاعر جاهلي، يريدون بذلك أنه هو الجاهلي لعيشه في تلك الفترة التي هي الجاهلية المطلقة.

والجاهلية تُقسم باعتبارات، فتارة تنقسم إلى قسمين:

وهما: الجاهلية المطلقة، والجاهلية المقيدة.

وتارة تقسم إلى ثلاثة أقسام وهي:

جاهلية في المكان، جاهلية في الزمان، جاهلية في الأشخاص.

فالقسمة الأولى، وهي: **الجاهلية المطلقة، والمقيَّدة.**

فنعني بالمطلقة: الكاملة من جميع الوجوه بأحد الاعتبارات الثلاثة.

والمقيَّدة: هي المقيَّدة بوجه من الوجوه: إما مقيدة بمكان، أو بزمان، أو بشخص، أو ببعض الصفات.

فالجاهلية في المكان تكون مطلقة ومقيدة: فالمطلقة في بلاد الكفار دار الحرب، هذه يقال لها: أمكنة جاهلية، والمكان جاهلي؛ لأجل أنها دار كفار.

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٩).

وقد يكون المكان فيه جاهلية مقيدة ببعض الأمور؛ كما هو في بلاد المسلمين؛ فإنه لا يزال فيهم بعض خصال الجاهلية، فيكون فيهم بعض الجاهلية، تكون مقيدة ببعض الأشياء، أو مقيدة ببعض الأمكنة دون بعض، فنقول: البلد الفلاني من بلاد المسلمين هذا فيه جاهلية، أو بلد أصبح جاهليًا إذا رجع أهله وارتدوا عن الإسلام إلى الشرك.

وجاهلية الزمان أيضًا مطلقة ومقيدة:

فالجاهلية في الزمان المطلقة هي: ما كان قبل مبعث رسول الله ﷺ، كانت جاهلية مطلقة في الزمان، يعني كل ما كان قبل زمن رسول الله ﷺ، وحَدُّهُ بعثة النبي ﷺ يقال له: جاهلية بإطلاق.

والجاهلية المقيدة بالزمان هذه هي التي تكون في بعض ظهور خصال الجاهلية في وقت دون وقت، لكنها جاهلية مقيدة وليست مطلقة، يعني مقيدة بوقت ظهرت فيه خصال الجاهلية، فتكون مقيدة في الوقت، فلا يصح إطلاق من أطلق بجاهلية القرن العشرين، أو نحوها من العبارات التي يستعملها من لم يدقق؛ لأنه بعد بعثة رسول الله ﷺ انقضت الجاهلية المطلقة، ولا يزال في أمته من ينافح عن هذا الدين ويرفع رايته، فليس ثم جاهلية منسوبة إلى زمن كالقرن العشرين.

وإنما تكون منسوبة إلى وقت من الأوقات فيما إذا ظهرت بعض الصفات ثم يجاهدها ويظهر عليها أهل الحق بالإنكار، فلا تصبح جاهلية - يعني الزمن - فمثلًا تقول: القرن العشرين ظهرت فيه أنواع من الجاهليات، فهو زمن فيه جاهليات كثيرة، لكن ما نطلق ونقول: جاهلية القرن العشرين؛ لأن هذا إطلاق للزمن بكامله.

والنبي ﷺ أخبر أنه: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمُ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»(١) فهؤلاء يبينون وينصحون.

القسم الثالث: جاهلية في الأشخاص، وهي أيضًا مطلقة ومقيدة: فالمطلقة في الكافر، والمقيدة في شخص دون شخص، أو في شخص في بعض حاله دون بعض؛ كما قال النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»(٢) يعني بعض خصال الجاهلية.

هذه التقسيمات التي ذكرها أهل العلم في هذا المقام، مبناها ما رواه البخاري وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلاثَةٌ: مُلحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ مسلم بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ»، رواه البخاري(٣).

فمن طلب وابتغى في الإسلام سنة - يعني: مسألة من مسائل الجاهلية - فهو داخل في قوله: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلى اللهِ ثَلاثَةٌ»، فمن ابتغى شيئًا من أمر الجاهلية وطلبه، أو كان فيه ولم يتركه بعد البيان له، فهو داخل في هذا الوعيد الذي أخبر به ﷺ.

والجاهليون الذين خالفهم رسول الله ﷺ، والذين تُذكر هذه المسائل ببيان سننهم وما كانوا عليه، قد يكونون من العرب - كما ذكرت - أو من أهل الكتاب، أو من غيرهم.

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٥).
(٢) سبق تخريجه (ص٧٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦٨٨٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأهمية معرفة سنن الجاهلية؛ لأنه كما يذكر عن عمر رضي الله عنه بخبر لم نعرف إسناده، ولم نجد له إسنادًا، أنه قال: (**إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْجَاهِلِيَّةِ**).

فإذا عرف المرء الجاهلية، وعرف أنه يجب عليه أن يتباعد عنها، كان أحرى له أن يكون على بينة من أمره، ولا تدخله سنة من سنن الجاهلية ولا مسألة من مسائل الجاهلية.

وقوله ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ**»[(١)].

«**الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ**»، المراد به الترفع على القبائل الأخرى، يفخر بحسبه لإظهار فضله على غيره، فهذا من أمر الجاهلية، أما الفخر في الحسب لإظهار حسبه، وأنه أصيل، ونحو ذلك، دون ترفع على غيره، فليس هذا بمراد هنا؛ لأنه ليس من أمر الجاهلية، كذلك الطعن في النسب المقصود منه طعن في الأنساب من غير دليل لازدراء الناس، ونحو ذلك، والقاعدة الشرعية: أن الناس مؤتمنون على أنسابهم، فإذا كان لا يترتب على ذكر النسب، وأن فلانًا ينتسب إلى آل فلان أو إلى القبيلة الفلانية، إذا لم يترتب عليه أثر شرعي من إعطاء حق لغير أهله، أو بميراث، أو بعقد نسبة، أو بزواج، ونحو ذلك؛ فإن الناس مؤتمنون على أنسابهم، أما إذا كان له أثر، فلا بد من الإثبات؛ سيما إذا كان مخالفًا لما هو شائع متواتر عند الناس، فالطعن في الأنساب من أمور الجاهلية، لكن من ادعى نسبًا هو فيه كاذب، فتكذيبك له بما يُعلم أنه كاذب فيه ليس طعنًا في النسب.

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٩).

وقوله ﷺ: «**مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ**» هذا دليل على ذمها، وأنها من شعب الجاهلية، ومن المعلوم أن شعب الجاهلية جميعًا مطلوب من هذه الأمة أن تبتعد عنها؛ لأن خصال أهل الجاهلية مذمومة؛ كما جاء في الصحيح عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلى اللهِ ثَلاثَةٌ: مُلحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ مسلم بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**»، رواه البخاري[1].

فكل شعبة من شعب أهل الجاهلية إذا أُرجِعَت إلى أهل الإسلام بعد أن أنقذهم الله من ذلك ببعثة النبي ﷺ وظهور القرآن والسنة وبيان الأحكام، فإنه مبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية، وهو من أبغض الرجال إلى الله ﷻ.

إذًا قوله: «**مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ**»، هذا دليل الذم، وليس الإخبار بأنها باقية دليل الإباحة.

«**الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ**»: يعني: على وجه التكبر والرفعة.

«**وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ**»: بالطعن في نسب فلان وفلان، والتكذيب بنسب فلان وفلان من غير دليل شرعي ومن غير حاجة شرعية، فإن القاعدة التي ذكرها الإمام مالك وغيره من أهل العلم: أن الناس مؤتمنون على أنسابهم، فإذا كان لا يترتب على ذكر النسب، وأن فلانًا ينتسب إلى آل فلان أو إلى القبيلة الفلانية، إذا لم يترتب عليه أثر شرعي من إعطاء حق لغير أهله، أو بميراث، أو بعقد نسبة، أو بزواج، ونحو ذلك، فإن الناس مؤتمنون على أنسابهم. أما إذا كان له أثر، فلا بد من الإثبات، سيما إذا

---

(١) سبق تخريجه (ص٨٣).

كان مخالفًا لما هو شائع متواتر عند الناس، فالطعن في الأنساب من أمور الجاهلية.

«وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»: وهو نسبة السقيا إلى النجوم، ويشمل أيضًا قوله: «وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ» يشمل ما هو أعظم من ذلك، وهو أن تُطلب السقيا من النجم؛ كحال الذين يعتقدون أن الحوادث الأرضية تحصل بالنجوم نفسها، وأن النجوم هي التي تحدث المقدرات الأرضية والمنفعلات الأرضية.

«وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»، ثم قال: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»(١) رواه مسلم. النياحة: من الكبائر وهي رفع الصوت عند المصيبة وشق الجيب ونحو ذلك وهي منافية للصبر الواجب ومن خصال الجاهلية.

وحديث زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟». قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»(٢).

قوله: «عَلَى أَثَرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ» يعني: مطر، المطر يطلق عليه

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٦، ١٠٣٨)، ومسلم (٧١).

سماء؛ لأنه يأتي من جهة العلو، ويقال له سماء؛ كما في قول الشاعر[1]:

إِذَا نَـزَلَ الـسَّـمَـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ   رَعَـيْنَاهُ وَإِنْ كَـانُـوا غِـضَـابَـاً

يعني: إذا نزل المطر.

«**فَلَمَّا انْصَرَفَ**»: يعني من صلاة الصبح.

«**أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ**: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، هذه من الكلمات التي تُقال في حياته ﷺ. وبعد وفاته عليه ﷺ إذا سئل المرء عما لا يعلم، فليقل: لا أدري، أو فليقل: الله أعلم، ولا يقل: الله ورسوله أعلم؛ لأن ذِكْر علم النبي ﷺ مقيد بحياته الشريفة ﷺ.

«قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ». هنا قسم العباد إلى قسمين:

القسم الأول: مؤمن بالله ﷻ، وهو الذي نسب هذه النعمة، وأضافها إلى الله ﷻ، وشكر الله عليها، وعرف أنها من عند الله، فشكر ذلك الرزق، وحمد الله، وأثنى عليه به.

القسم الثاني: «وَكَافِرٌ»، ولفظ (كافر) اسم فاعل الكفر، أو اسم من قام به الكفر، وهذا قد يصدق على الكفر الأصغر أو الكفر الأكبر، فهم انقسموا إلى: مؤمنين، وإلى كافرين، والكافرون منهم من كَفَر كفرًا أصغر، ومنهم من كفر كفرًا أكبر، فالذي كفر كفرًا أصغر هو الذي قال: مطرنا بنوء

---

(١) هذا البيت من شعر الشاعر الجاهلي معاوية بن مالك بن جعفر، المعروف بمعود الحكماء.

انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٤٤٠)، والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (ص٣٣٢)، والحماسة البصرية (١/ ٧٩)، ولسان العرب (١٤/ ٣٩٩).

كذا وكذا، يعتقد أن النوء والنجم والكوكب سبب في المطر، فهذا كفره كُفر أصغر؛ لأنه ما اعتقد التشريك والاستقلال، ولكنه جعل ما ليس سببًا سببًا، ونَسَبَ النعمة إلى غير الله، فقوله من أقوال أهل الكفر، وهو كفر أصغر بالله ﷻ كما قال العلماء.

والصنف الثاني: كافر الكفر الأكبر، وهوالذي اعتقد أن المطر أثر من آثار الكواكب والنجوم، وأنها هي التي تفضلت بالمطر، وهي التي تحركت بحركة لما توجه إليها عابدوها، فأنزلت المطر إجابة لدعوة عابديها، وهذا كفر أكبر بالإجماع؛ لأنه اعتقاد ربوبية وإلهية غير الله ﷻ.

«**فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ**»؛ لأنه نسب النعمة لله وحده، ونسبة النعمة لله وحده دلت على إيمانه.

«**وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»: و(**الباء**) في قوله: «**مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا**» إن كانت للسببية - لأن الباء تأتي للسبب: مطرنا بسبب نوء كذا وكذا -، فهذا كفر أصغر، وأما إذا كان المراد أن النوء هو الذي أتى بالمطر إجابة لدعوة عابديه أو لرحمته بالناس، فهذا كفر أكبر بالله ﷻ.

هنا تنبيه في هذه المسألة: وهو ما يحصل أحيانًا من بعض الناس من أنهم يقولون: في الوسمي - مثلًا - يأتي مطر، والوسم جاء معناه أنه يأتي فيه مطر، ونجم سهيل طلع، فسيحصل كذا، ونحو ذلك، فهذا القول بما علمتَ له حالان:

الحالة الأولى: أن يقول ذلك لأجل أن النجم أو البرج الذي أتى هو زمنٌ

جعل الله سنته فيه أنه يأتي فيه المطر، فإذا كان هذا القول بأن الوسم جاء، معناه هذا وقت المطر، وإن شاء الله يأتي مطر، ونحو ذلك، فهذا جَعْلٌ للوسم زمنًا، وهذا جائز.

الحالة الثانية: إذا قال في ذلك: الوسم جاء؛ سيأتي المطر، أو طلع النجم الفلاني؛ سيأتينا كذا وكذا، بجعل هذا الفصل أو ذلك البرج أو ذلك النجم سببًا، فهذا كفر ونسبةٌ للنعمة لغير الله، واعتقاد تأثير أشياء لا تأثير لها.

فينبغي أن يُفرَّق بين ما يستعمله العوام فيما فيه أن المطر والبرد والصيف ونحو ذلك في تعلقه بالنجوم تعلق زمن ووقت وظرف، وما بين نسبة أهل الشرك والضلال الأفعال للنجوم؛ إما استقلالًا، وإما على وجه التسبب.

وتفصيل شرح هذا الحديث في شروح كتاب التوحيد[1]، وفي شروح كتب السنة.

وحديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ**»[2]. وفي الرواية الآخرى زاد: «**وَإِذا عاهَدَ غَدَرَ، وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ**»[3]، فهذه خمس صفات من صفات المنافقين النفاق الأصغر. النفاق العملي.

لماذا سماه العلماء نفاقًا عمليًا؟ لأنه ليس اعتقاديًا، وإنما يظهر من عمله

---

(١) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص٤٢١)، وتيسير العزيز الحميد (ص٣٩٧)، وكتاب التمهيد لشرح كتاب التوحيد لشيخنا - حفظه الله - (ص٣٩٣).

(٢) سبق تخريجه (ص٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنه مشابه لأهل النفاق. وهذا مما يجب على كل مسلم أن يخاف على نفسه، وهذا معنى قول التابعي ابْنِ أبي مُلَيْكَةَ: (**أَدْرَكْت ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَاب مُحَمَّدٍ ﷺ كُلَّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ**)[١]، يعني: النفاق العملي، لا الاعتقادي، النفاق العملي في هذه الصفات الذي قد يصل بصاحبه إلى أن يحبط عمله، والعياذ بالله.

فإذًا معنى النفاق العملي: أن تكون فيه صفات المنافقين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ لأنك إذا آمنت باليوم الآخر، فإنك ستخشى من الكذب، وإذا كذبت مرة، فإنك ستنيب إلى الله ﷻ وتستغفره، أما ديمومة ذلك، فإنه من خصاله أنه إذا حدث كذب، ويعد ويخلف من خصاله، ويعاهد ويعاقد، ويفجر ويغدر، كأنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فهذه لا شك عنده خصال المنافقين؛ ولذلك جاء في هذا الحديث: «**وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا**»[٢].

وفي لفظ آخر قال: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ**»[٣].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «**وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ**»[٤]. هذه الصفات الخمس من صفات النفاق العملي.

أولها: (**إذَا حَدَّثَ كَذَبَ**) المؤمن صادق أولًا مع ربه ﷻ إذا آمن وصدق

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٩).
(٢) سبق تخريجه (ص٦٨).
(٣) سبق تخريجه (ص٧٩).
(٤) سبق تخريجه (ص٧٩).

مع المؤمنين، إذ أعلن الإيمان، وهو مبطن للإيمان، أما المنافق فهو كاذب في الحقيقة في إظهار الإسلام وإبطان الكفر، فإذا كان كاذبًا في هذا الأمر الأعظم، يخادع الله ﷻ، ويخادع الذين آمنوا، فإنه لا غرابة أنه إذا حدث على الناس كذب في أي أمر؛ لأنه في أصل الأصول كذب على ربه ﷻ وعلى الناس، ويظن أنه يروج كذبه.

إذًا من إذا حدث كذب (**الكذب المحرم**)، إلا لمصلحة شرعية بضوابطها المعروفة في الفقه وفي أحوالهافقيه خصلة من خصال المنافقين. متى يكون الكاذب فيه خصال المنافقين؟ من كان هذه طبعه، طبعه أنه إذا حدث كذب - يعني: عنده استمرارية على ذلك - المؤمن ربما يكذب مرة، ربما يكذب مرتين، ربما يكذب قليلًا، لكن من خصاله أنه يكذب ولا يبالي دائمًا؟ كل يوم يكذب، ولا يبالي؟ كل يوم يكذب ولا يبالي فيما يحرم فيه الكذب؟ فهذا لا شك أنه من خصال أهل النفاق؛ لأنه معناه أنه لا يخشى الله ﷻ، ولا يخشى لقائه. وقد صح عنه ﷺ أنه نهى عن الكذب، وقال: «**إِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ**»[1] الكذب يهدي إلى الفجور؛ لأنه إذا كذبت وكذبت، فمعنى ذلك أنه سيأتيه الشيطان ويقول له: لماذا تستقيم؟! لماذا تخشى محارم الله ﷻ؟! لماذا تحافظ على الفرائض؟! لماذا؟... ، ثم يأتيه الكذب، فيدخل فيه النفاق بفروعه.

إذًا ضابط (إذا حدث كذب) أنه يكون عنده ديمومة لذلك. طبع فيه أنه يكذب دائمًا، أما إذا حصل منه الكذب، فيجب على المؤمن إذا وقع في الكذب أن يستغفر الله ﷻ، وأن ينيب إليه، وأن يتبع السيئة بالحسنة، وأن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

يجعل الحسنة ماحية للسيئة، إذا حصل مرة مرتين، يعني قليلة.

ولهذا سئل النبي ﷺ، «**أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: لَا**»(١).
لماذا؟ يعني دائمًا المؤمن لا يكذب؟ ومن في حديثه كذب فهذه من خصال المنافقين؛ لأن الكذب في الغالب لا يكون عن شهوة غالبة، وإنما يكون عن عدم خوف الله ﷻ، ولا خوف لقائه، أما مثلًا الزنا والسرقة ونحو ذلك، يكون عن شهوة غالبة، فربما غلبته، فحصل، لكن الكذب هذا يكون دائماً عليه معناه أنه ليس ما يصدر عن شهوة، ولا عن غلبة طبع، وإنما عن فساد في خلقه ودينه وفطرته.

الصفة الثانية: من خصال النفاق العملي: (**وَإِذا عاهَدَ غَدَرَ**)، فالعهد يجب الوفاء به؛ قال ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟﴾ [المائدة: ١]، والنبي ﷺ قال: «**الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ**»(٢)، فإذًا إذا صار المسلم يعاهد عهدًا فيما بينه وبين الناس، فإنه يجب عليه الوفاء به، فإذا صار من صفته أنه لا يبالي بالعهود، ولا يبالي بالعقود؛ كحال بعض الناس الذين لا يبالون بأي عقد ولا بأي عهد بينهم وبين الخلق، فإن هذا من صفات النفاق العملي؛ لأنه هو نتيجة من نتائج عدم الإيمان باليوم الآخر، دائمًا لا يرعى لمؤمن ذمة، ولا يرعى حقًا لكافر، ولا يرعى حقًا لمتعاقد معه - يعني: من وقع بينه وبينه

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٠٧).
(٢) أخرجه الطبراني (١٧/ ٢٢)، وابن عدى (٦/ ٦١، ترجمة ١٥٩٩ كثير بن عبدالله ابن عمرو بن عوف)، والبيهقي (٦/ ٧٩)، والدارقطني (٣/ ٢٧) من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

عقد -، ولا عهد، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، أمر الله بالوفاء بالعهد لماذا؟ لأنك ستسأل عما عاهدت الناس عليه، ولهذا صار أعظم الخيانة وأعظم النفاق أن يعاهد العبد الله ﷻ على شيء عهدًا موثقًا، ثم يخالف، فهذا نفاق، وربما كانت عقوبته أيضًا النفاق - والعياذ بالله - إلى يوم القيامة؛ كما قال الله ﷻ: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٦، ٧٧]، فعدم الوفاء بالعهد **(إذا عاهد غدر)** إذا كانت صفة دائمة له قرينة للكذب؛ لأنه يكذب ويخالف العهد، يكذب ويغدر، يكذب ويغدر، فهذه صفات من لا يؤمن باليوم الآخر، ولا يخشى لقاء الله ﷻ.

فإذًا الواجب على المؤمن أن يفي بالعهد، عهد الله ﷻ، ومنه النذر إذا نذر نذرًا فيه طاعة الله ﷻ، فيجب عليه الوفاء به؛ وذلك كما قال ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلاَ يَعْصِهِ**»(١).

ومن ذلك العهود العظمى، مثلًا واحد كان في مصيبة من المصائب يتوجه إلى ربه بالمعاهدة: ربي أعاهدك على أنك إذا أنجيتني من كذا وكذا، فإنني لن أفعل هذا . . . ، ثم بعد ذلك ينجيه ربه ﷻ، فيعود ويخالف، كذلك العهد مع الخلق.

نسأل الله العفو والعافية، وأن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا.

إذًا النفاق العملي من مظاهره أنه إذا عاهد غدر، يعني: عنده صفة

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

الاستمرار، ربما يحصل من المؤمن غفلة، ربما يحصل من المؤمن ذنب، يغدر مرة، أولا يفي بالعهد؛ لغلبة ظلم في قلبه، أو غلبة شهوة، أو نحو ذلك، لكن لا تحصل منه دائمًا أنه لا يبالي بالعهود، لا يبالي بالعقود، هذه من صفات المنافقين.

قال ﷺ: «وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ» إخلاف الوعد من صفات المنافقين، وله ضابطان أو شرطان ذكرهما أهل العلم:

الأول: أن يكون حين يعد يضمر الإخلاف. وهذا جاء في حديث رواه أبو داوود في سننه، وإسناده قوي، قال ﷺ: «لَا تُمَارِ أَخَاكَ ولا تُمَازِحْهُ ولا تَعِدْهُ مَوْعِدَةً فَتُخْلِفَهُ»(١)، يعني: حين تعد، إذا كنت تعد لأجل أن تتخلص من الذي أمامك، وأنت في قرارة نفسك أنك بوعدك ستخلف، ويتكرر هذا منك، هذا من صفات النفاق العملي - والعياذ بالله -، أما إذا وعدت، ثم حصل شيء، وأخلفت بغير ملك منك، أو بغير قصد أن تخلف، و اجتهدت أن تفي، لكن لم يحصل الوفاء، وصار بعض الأحيان هذا، فهذا ليس من صفات النفاق العملي، لكن إذا وعدت، وأنت حين تعد تنوي الإخلاف، أو أنك مستمر على هذا.

وهو الشرط الثاني: أن ذلك على صفة الخصال الفطرية، يعني: الديمومة، مثل ماقلنا: فإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر.

فإذًا الوفاء بالوعد وعدم إخلاف الوعد، هذه من صفات المؤمن، إذا وعدت فاجتهد، ولهذا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما - أظنه هو - كان على فراش الموت، فتذكر وعدًا وعده أخاه، وهو أن يزوجه ابنته، وعده

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٧).

خطبة، وقال: أعدك أو نحو ذلك، فلما كان على فراش الموت خشي أن يلقى الله ﷻ بإخلاف الوعد، قال: أين فلان؟ - كما رواه الفريابي وغيره - قال: أين فلان؟ فإني وعدته موعدة أن أنكحه ابنتي، أشهدكم أني أنكحته ابنتي؛ خشية فوات ذلك بالموت، هذه من طبقات الخلص الذين يخشون أن يعدوا موعدة ويخلفوها، فكيف حالنا اليوم، وحال الأكثرين منا، إلا من رحمهم الله ﷻ ممن لا يبالي بالوعد؟ بل ربما كان يترتب على الوعد أشياء: يعده، وذاك ينتظره مدة طويلة، أو يكون مبنيًا عليها أشياء مالية يصرفها، ونحو ذلك، فيخسر الآخر، ونحو ذلك، وهو لا يبالي بموعدته التي وعدها إياه، وقد أثنى الله ﷻ على نبيه إسماعيل عليه السلام بأنه كان صادق الوعد، يعني: هذه من خصال أهل الإيمان، أنه إذا وعد، جاهد نفسه أن يفي بالوعد، أما أهل النفاق، فإنهم يعدون، وحين يعدون لا يبالون، ينوون عدم الوفاء، وهذا نوع من الغدر في أهل الإيمان.

الخصلة الرابعة: من إذا خاصم فجر، لا يبالي من يخاصمه، إذا صارت بينه وبين أحد خصومة، ليس عنده باب للمعاذير، ليس عنده باب للمغفرة، ليس عنده باب للتؤدة، بل فجر في خصومته، وأتى بكل شيء بما له علاقة بالخصومة، أو ليس له علاقة بالخصومة، يختلف معه أحد في أمر فيما بينهما في العمل، أو في أمر مالي، وهو مطلع على أسراره: إما سلوكياته، أو كذا، فراح يفجر، فيذكر كل شيء عنه، ويشوه - كما يقال في العصر - يشوه سمعته في كل مجلس، ويذكر كل سوء عنه لأجل خلاف بينه وبينه، هذا من خصال أهل النفاق، أنه إذا خاصم فجر في خصومته، ولم يرعَ الله ﷻ في ذلك، وهذا كما يحصل أيضًا بين الناس فيما عند القضاة إذا التقى الخصمان عند القضاة، فالواحد يذكر ماله علاقة، ولا يعتدي

على أخيه بالسباب والشتائم. . . وإلى آخره، بل ما عنده يذكره، والمؤمن عف اللسان، عف البيان؛ كما قال ﷻ في أمره لعباده المؤمنين: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣] والخصومات إذا وجدت فهي سبب للقطيعة، ولهذا من صفات أهل النفاق الذين لا يرعون صلة بين المؤمن والمؤمن، ولا صلة للرحم، ولا علاقة ولا دفع للموبقات والخصومات، فإنهم إذا خاصموا فجروا، والعياذ بالله - يعني: أن هذا من طبيعتهم -، لا يرقبون من مؤمن إلا ولا ذمة.

الخصلة الخامسة التي في هذه الأحاديث: أنه إذا أؤتمن خان -والعياذ بالله- والأمانة معناها واسع في الشريعة، وأعلى الأمانة التكليف وهي التي جاءت في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وهذه أمانة التكليف، والمنافق أؤتمن على هذا الأمر فخانه، مع أنه يعلم أن لها حدودها، يعلم القرآن، ويعرف، لكنه خانه في أعظم شيء، كذلك الأمانات الأخرى يخونها، الله ﷻ في التكليف ائتمنك على توحيده، فوحده، ائتمنك على عدم الشرك به، والبراءة من الشرك وأهله، فتقرب إلى الله ﷻ بذلك، ائتمنك على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فكن على ذلك، وائتمنك على الصلاة، وجعلها صلة ما بينك وبين ربك، فكن على ذلك، ائتمنك على أعضائك، فكن على ذلك، ائتمنك على المال فحافظ على المال، ولا تنفق إلا في حله، ائتمنك على أولادك وعلى أسرتك، فارْعَ الأمانة، والتكليف يجمع فروع الشريعة من باب الطهارة إلى القضاء، هذا كله تكليف عظيم، لكن المنافق لا يأبه، يفعل ما يشتهيه،

يفعل ما يهواه، ولا يراعي أحكام الشريعة.

من الأمانة أيضًا ما يؤتمن عليه الإنسان في الأمانات الخاصة التي يسميها الناس الودائع، يضع عنده شيئًا، مالاً أو سيارة، والله ﷻ أمر بالوفاء بالأمانات ورعايتها وأدائها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨] الأمانة أنت مؤتمن في عملك، العمل أمانة، أنت مؤتمن على الوديعة التي بين يديك، حافظ عليها، إذا وقع مرة تفريط لحاجة فربما، لكن يكون ديدن المؤمن أنه يحافظ على الأمانة، الأمانة شديدة؛ لأنك ائتمنت، فإذا كنت على قدر الأمانة، فتوكل على الله ﷻ، وإذا كنت تخشى أن لا تفي بالأمانة، فاعتذر، لا تلقي نفسك في تهلكة؛ لهذا من خصال المنافقين النفاق العملي أنهم دائمًا يخونون الأمانة: أمانتهم في عملهم، أكبر الأمانات التوحيد والتكليف، أمانتهم في أسرتهم، أمانتهم في أولادهم، يخونون الأمانة في أي مجال، يسرقون، يرتشون، لا يهمهم المال من أين أتى، ومن أين ذهب، ولا يرقبون حلًا ولا حرمة، بل الحلال ما حل في أيديهم، والحرام ما حرموه، وهذا إخلاف الأمانة، ائتمنت على هذا الشيء، فارع الأمانة، أو اعتذر، هذا الذي يجب على المؤمن؛ لهذا من كان ديدنه عدم رعاية الأمانة، فهو من أهل النفاق، وربما يزيد.

ولهذا بعد تمام هذه الخصال، قال طائفة من العلماء: النفاق يتبعض يعني: يزيد شيئا فشيئا، ليس النفاق العملي: إما أن يوجد، وإما أن لا يوجد بل تزيد عند المرء خصال النفاق شيئا فشيئا، حتى يكون منافقا خالصًا - والعياذ بالله - .

إذا تبين ذلك في تعريف النفاق الأكبر والنفاق الأصغر، وبعض صفات هؤلاء وبعض صفات هؤلاء، فنذكر أن الله ﷻ وصف المنافقين في القرآن بأوصاف، والنفاق لا يوجد في الرجال فقط، يوجد في النساء قال الله ﷻ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال ﷻ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣] وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] المنافقون الرجال فقط؟ النساء أيضًا، هم الآن يقولون: النساء شقائق الرجال في كل شيء، فالنفاق إذا كان موجودًا في الرجال، فأيضًا موجود في النساء، فهن منافقات، إما نفاق اعتقادي، وإما نفاق عملي؛ لأنهن مكلفات، وفيهن هذا، وفيهن هذا.

وصف الله المنافقين والمنافقات بأنهم فئة، قال الله ﷻ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٦٧]، فجعل من صفات المنافقين والمنافقات أن بعضهم من بعض، ووصف الله المؤمنين في الآية الأخرى في هذه السورة في براءة قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١]. فجعل المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض؛ لشدة التداخل فيما بينهم والكيد للإسلام ولأهله، والمؤمنون والمؤمنات هناك ولاية فيما بينهم ونصرة ومحبة... إلى آخره، فوصف هذا التداخل بأنهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، وأعظم المنكر الشرك بالله ﷻ. والكفر، وعدم الإيمان باليوم الآخر، وعدم تحكيم الشريعة (شريعة الله ﷻالكتاب والسنة) يأمرون بالمنكر، ثم يأمرون بالمنكرات والموبقات، بالسحر،

بخيانة الأمانة، بالكيد لأهل الإسلام، بالموبقات السبع وغيرها، الربا، الفواحش، وما شابه ذلك، من صفاتهم أنهم - بلغة العصر - يتكتلون بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ينهون عن المعروف بطريقة مباشرة؟ لو كان بطريقة مباشرة لافتضحوا، أليس كذلك؟ لكنهم يسلكون سبلًا تنهى عن المعروف بطرق مختلفة، يأمرون بالمنكر بطرق مختلفة؛ لهذا من كان قلبه منطويًا على حب المنكر والرغبة في إشاعته، فهذه من صفات المنافقين والمنافقات، أليس المنافق الأكبر هو الذي تولى كبر إشاعة الفاحشة في المؤمنين، ونسبة الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سموات، نسبتها إلى الفحش؟ فهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، إذا سمعوا سبة طاروا لها فرحًا، وإن سمعوا صالحًا فله خمدوا، أو عنه سكتوا... إلى آخره.

فإذًا هؤلاء تجدهم في أماكن كثيرة في العالم، في أنهم يتكاتفون في إضعاف دين الإسلام والإيمان بمحمد ﷺ، وفي إظهار المنكر في أكبر صوره والبعد عن الإسلام، وتشكيك الناس في دين الله، تشكيك الناس في الغيب، تشكيك الناس في صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، تشكيك الناس في الإيمان باليوم الآخر، إضعاف الناس عن الرغبة في الآخرة، وتحبيب الإقبال على الماديات بأنواعها، ووصفهم الله ﷻ وصف الخلطة التي بينهم وما يعلمونها، قال: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، يعني: أنهم إذا جاء أمر الصدقة، فإنهم لايسعون فيها، بل يتوارون عنها ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ المؤمن إذا جاء باب من أبواب الصدقة، وفعل الخير للأقربين أو للبعيدين أو للمسلمين. فإنه يسارع، يسارع في الخيرات، هذه من علامة الإيمان أن يسارع في الخيرات، ويفتح باب الخير، ويفتح باب الصدقات،

ويفتح بابًا للمسلمين وللمحتاج وللمكروب ويفرح لو أعين أهل الإيمان. . . إلى آخره، أما المنافق، فتجده وجهه يسود إذا أتت إعانة أهل الإيمان، قال ﷻ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ وهذا من جزائهم.

من صفات المنافقين التي ذكرها الله ﷻ في كتابه، وجاءت في السنة أيضًا أنهم لا يصلون إلا مع الناس، وأما إذا خلوا بأنفسهم، فإنهم لا يصلون، لا يحافظون على الصلاة، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه لما ذكر صلاة الجماعة - كما في مسلم -، قال: «**وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إلا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يؤتي بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ**»(١).

المنافق ما يصلي، إذا أتى مع الناس صلى، وإذا صلى بنفسه لم يؤدِ الصلاة أصلًا، إنما يصلي مراءاة فيما ظهر وفيما بطن، لا يصلي - والعياذ بالله -، هذا ما يخشى الله، ولا يخشى الحساب، في القرآن ذكر الله ﷻ أن المنافقين يظنون الظنون بالله ﷻ وبرسوله، يظنون ظن السوء ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، المنافقون والمنافقات يظنون أن الله ﷻ لن ينصر الدين ولن ينصر أهله، كما ظنوا في أول الأمر في عهده ﷺ، ظن السوء أنهم يظنون أن أهل الإيمان لن ينصروا، ظن السوء أنهم سيفتقرون إذا طبقوا شرع الله ﷻ أو التزموا بأمر الله ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فهذا من صفاتهم أنهم يظنون ظن السوء، الله ﷻ أخبر في القرآن أن المنافقين

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

والمنافقات سيكون لهم العذاب في الدنيا، ولهم العذاب في البرزخ، ولهم العذاب في الآخرة، قال ﷻ في وصفهم في آخر سورة براءة، وسورة براءة تسمى السورة الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، فقال ﷻفي وصفهم: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، نعذبهم مرتين، قال العلماء: يعني: في الدنيا وفي البرزخ، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في الآخرة، بل جعل الله ﷻ سورة كاملة في القرآن باسم سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]، وبين من صفاتهم ما بين، ومنها أنهم إذا قالوا سمعت لقولهم، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] ومن صفاتهم أنهم قالوا: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، يعني: هم الأعز والأذل المؤمنون. وقال ﷻ في وصفهم في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] يعني: أنهم يقولون: نحن نصلح بالشرك، نحن نصلح بالماديات، نحن نصلح بأن لا نذكر الناس بالله ﷻ، نحن نصلح بعدم تحكيم الشريعة وتحكيم القوانين (قانون أمريكا، أو قانون فرنسا، أو قانون بريطانيا... إلى آخره) نحن نصلح بجعل الإسلام في المسجد، نحن نصلح بأن لا يحكم القضاة بالإسلام، نحن نصلح... إلى آخره ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأنواع النفاق وبخصاله ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]؛ لأن حقيقة الإنسان في الأرض هو عدم تحكيم شرع الله ﷻ؛ لأن الأرض لا تطيب إلا بشريعة خالقها، وهو الذي برأها، فإنها لا تطيب، ولا تصلح إلا بشريعة الله؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥] لا تفسدوا في الأرض بالشرك بالكفر وبالمنكر بعد إصلاحها بالتوحيد والطاعة والسنة، وهذا لا شك أنه من خصال المنافقين.

إذا تبين هذا فيظهر لك أن النفاق خطر، ولا شك خطر علينا كأفراد، وخطر أيضًا على المجتمعات المسلمة، أما خطره على الأفراد، فإن الشيطان يأتيك شيئًا فشيئًا في خصال النفاق، حتى يكون العبد - والعياذ بالله - منافقًا خالصًا؛ لهذا الله ﷻ في القرآن ما نهى عن اتباع الشيطان، ولكن نهى في القرآن في آيات عدة عن اتباع خطوات الشيطان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ﴾ [النور: ٢١] لماذا قال: الخطوات؟ لأن الشيطان لا يأتي المؤمن الموحد، فينقله من الإسلام إلى النفاق، من الإسلام إلى الكفر، ولكن ينقله عبر خطوات، كما نهى الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١] يأتيك في خصال النفاق، تتساهل بالغدر بالعهد، تتساهل بإخلاف الوعد، تتساهل بعدم أداء الأمانة، تتساهل بالذنوب، تتساهل بعدم أداء الفرائض، تتساهل بالشرع، تتساهل بالتوحيد، تتساهل...، حتى يكون شيئًا فشيئًا، فيقلب الله القلب، وإذا كان أبو الدرداء رضي الله عنه خاف ذاك الخوف، فإننا أحق بالخوف، فمن يأمن؟ فهل نأمن البلاء بالنفاق بعد خوف أبي الدرداء رضي الله عنه، بل بعد خوف عمر رضي الله عنه؟

بقيت المسألة الأخيرة، وهي: ما أحكام المنافق الظاهرة؟

أحكام المنافق في دار الإسلام ما هي؟ المنافق دلت سنة النبي ﷺ من قوله ومن عمله أن المنافق يدخل في عموم المسلمين باعتبار الظاهر، وأنه

ظاهر له الحقوق العامة التي للمسلم، وفيما يعلمه الإمام أو يعلمه ولي الأمر من حاله، من نفاقه، أومن سلوكه، فإن النبي ﷺ لما قيل له في شأن المنافقين الذين تكلموا بالكلام الذي جاء في سورة المنافقين، قيل له في قتلهم، قال: «**لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1].

ولهذا صارت حالة المنافقين في دار الإسلام أنهم في المسلمين يعاملون ظاهرًا معاملة المسلم، مع الحذر منهم، والإمام أو ولي الأمر، فإنه بحسب ما يرى من المصلحة، والنبي ﷺ قال: «**لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»، بل ربما عفا عن بعضهم، وبر ببعضهم إما لأجل أبنائهم، أو مصلحة شرعية متوخاة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المنافق له أحكام المسلمين في الميراث، يعني: أنه يرث ويورث؛ لأن أحكام الميراث يعتبر فيها الظاهر، وهو الإسلام، ما دام أنه مظهر الإسلام، ولم يظهر منه ظاهرًا مكفر، ولا يخرجه عن الدين، لم يحكم عليه بشيء من ذلك، فإنه يحكم له بأحكام المسلم، فيرث ويورث، وهكذا كانت سنة النبي ﷺ في المنافقين، فإنهم ورثوا، وأيضًا ورثهم أبناؤهم؛ لأن الباطن حكمه إلى الله ﷻ والاعتبار بالظاهر.

الحال الثانية: من أظهر من المنافقين أو من أظهر من هذا الصنف، من أظهر نفاقًا، أو أظهر ما يدل على بغضه لدين الله، أو سبه للرسول ﷺ أو سبه لدين الله، ونحو ذلك، فإنه يقرر على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثم اختلف العلماء: هل إذا تاب تقبل توبته؟ قال: أنا تبت من هذا القول. فهل تقبل توبته أم لا؟ على ثلاثة أقوال، منهم من قال: لا تقبل توبته ظاهرًا، وإذا كان صادقًا فيما بينه وبين الله ﷻ، فإنه تنفعه عند الله، أما في الظاهر، فلا تقبل، فيجب قتله - يعني بحكم القاضي أو الإمام - .

وقال آخرون - وهو القول الثاني - : إن المنافق أو الزنديق إذا أظهر شيئًا من ذلك، فإن توبته - يعني إذا أظهر التوبة - تقبل؛ لأن التوبة تجب ما قبلها، وهذا القول ليس بجيد؛ لأن معناه أن المنافقين كل يوم يظهر منهم واحد ويسب الله ﷻ، أو يسب الرسول ﷺ، أو يسب دين الإسلام، أو يستهزئ بشيء، أو يضعف الإسلام أو المسلمين بما في صدره من حسرة وكمد وحقد، ثم بعد ذلك إذا دعي ليحكم عليه بإذن ولي الأمر، قال: أنا تبت. معنى ذلك: أن كل واحد سيفعل منهم، ثم يقول: أنا تبت. ثم الثالث: أنا تبت. ولهذا هذا القول أضعف الأقوال الثلاثة في قبول توبته.

القول الثالث - وقد رجحه طائفة من المحققين - : أنه بحسب القرائن، فإذا احتفت القرائن بأنه صادق في توبته، صادق في رجوعه إلى الله، فإنه يقبل، وإذا لم تحتف القرائن الدالة على صدقه، فإنه لا تقبل توبته. وهذا له حكم الزنادقة والاتحادية والماديين الذين لا يؤمنون في الباطن، لكنهم في الظاهر مع المسلمين، وهكذا في أمثالهم.

وأسأل الله ﷻ أن يجنبني وإياكم النفاق وسبيل أهله، وأن يجعلنا من المؤمنين حقًا الذين رضي قولهم ورضي عملهم.

وَإِذَا كَانَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، فَبِحَسَبِ إيمَانِ الْعَبْدِ وَتَقْوَاهُ تَكُونُ ولايَتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ كَانَ أَكْمَلَ إيمَانًا وَتَقْوَى كَانَ أَكْمَلَ ولايةً لِلَّهِ. فَالنَّاسُ مُتَفَاضِلُونَ فِي وِلايَةِ اللَّهِ ﷻ بِحَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَكَذَلِكَ يَتَفَاضَلُونَ فِي عَدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ﴾ [التوبة: ٣٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وَقَالَ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة: ١٠].

فَبَيَّنَ ﷻ أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ قَدْ يَكُونُ فِيهِ قِسْطٌ مِنْ وِلايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ إيمَانِهِ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ قِسْطٌ مِنْ عَدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ كُفْرِهِ وَنِفَاقِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾ [المدثر: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح: ٤].

الشـــرح:

قوله: (هم المؤمنون المتقون) هكذا بالرفع غير صحيح، والصحيح: هم

الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ؛ لأن (**الْمُؤْمِنِينَ**) خبر كان، و(**هُمْ**) ضمير فصل لا محل له من الإعراب وما بعده خبر كان؛ كما في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢﴾ [الأعراف: ٩٢]، وفي قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢] فضمير الفصل هو، وأشباهه إذا أتى بين المبتدأ والخبر سواء في اسم كان وخبرها، أو في اسم إن وخبرها، أو غير ذلك، فيراد به الفصل بين المبتدأ والخبر، حتى ما يشابه الصفات؛ كما يتشابه الخبر بالنعت؛ لأنه بدون (**هُمْ**) تقرأها هكذا، (**وإذا كان أولياء الله المؤمنون المتقون**) هنا يشتبه، تقول: أولياء الله المؤمنون المتقون، مبتدأ وخبر، يشتبه هل (**المؤمنون المتقون**) نعت والخبر لم يأت؟ أو أنها خبر أولياء الله المؤمنون المتقون لهم الجنة؟ هذا محتمل، لكن إذا قلت: أولياء الله هم المؤمنون المتقون، ظهر بالفصل بضمير الفصل أنك فصلت بين المبتدأ والخبر بـ(**هُمْ**)؛ لئلا يشتبه الخبر بأنه نعت للمبتدأ، وهذا على طريقة عامة النحاة، وإن كان سيبويه أجاز على لغة بعض العرب أن الضمير هذا ضمير الفصل مبتدأ، وما بعده خبر، والجملة خبر للمبتدأ، وعليها بعض القراءات لبعض الآيات.

هذا الفصل السابق لبيان أن الولاية ليست مرتبة واحدة، وأن الأولياء متفاوتون؛ وذلك لأن شرطي الولاية: الإيمان والتقوى، كما في قول الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس: ٦٣ - ٦٢].

ومن المتقرر أن الإيمان في أهله متفاضل، وأن التقوى في أهلها متفاضلة، فنتج من ذلك أن ما تركب منهما - وهي الولاية - تتفاضل؛ لأن

الإيمان متفاضل والتقوى متفاضلة، فالولاية متفاضلة.

فالولي قد يكون عنده بعض نقص في الإيمان والتقوى، ولكن هو له نصيب من ولاية الله ﷻ لما معه من الإيمان والتقوى.

ولهذا نقول: ليس كل مسلم ولي، لكن كل مؤمن عنده إيمان له نصيب من ولاية الله ﷻ، وهؤلاء يتفاوتون، فمن وصل إلى مرتبة الإيمان فهو من أولياء الله إذا كان من المتقين، لكن درجته فيه مختلفة، وسبب نقص الإيمان أو نقص التقوى في الولي ليس هو ارتكاب المعاصي، وإنما هو من جهة الاقتصاد، ومن جهة أنه لم يسابق في الخيرات.

فإذًا الأولياء ليسوا بظالمي أنفسهم، وإنما هم من المؤمنين المتقين، والمتقي أقل درجاته أن يكون تاركًا للمحرمات ممتثلًا للواجبات، وأكمل درجات هؤلاء أن يكون سابقًا في الخيرات. ولهذا يأتي - إن شاء الله - في الفصل بعده أن الأولياء على قسمين: مقتصدين، وسابقين.

فَصْلٌ فِي طَبَقَاتِ الأَوْلِيَاءِ

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى طَبَقَتَيْنِ: سَابِقُونَ مُقَرَّبُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ مُقْتَصِدُونَ. ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ؛ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ وَآخِرِهَا، وَفِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ، وَالْمُطَفِّفِينَ، وَفِي سُورَةِ فَاطِرٍ، فَإِنَّهُ ﷻ ذَكَرَ فِي الْوَاقِعَةِ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى فِي أَوَّلِهَا، وَذَكَرَ الْقِيَامَةَ الصُّغْرَى فِي آخِرِهَا، فَقَالَ فِي أَوَّلِهَا: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة١ - ١٤].

فَهَذَا تَقْسِيمُ النَّاسِ إِذَا قَامَتْ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى الَّتِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهَا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، كَمَا وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿فَلَوْلَا﴾ أَيْ: فَهَلَّا، ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٩٦].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١ - ١٢].

وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ فَقَالَ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٧ - ٢٨].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَغَيْرِهِ مِنْ السَّلَفِ قَالُوا: يُمْزَجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَزْجًا وَيَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا[1]، وَهُوَ كَمَا قَالُوا.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٤)، والضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ٣٠٠)، وابن =

فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾، وَلَمْ يَقُلْ: يَشْرَبُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ ذَلِكَ قَوْلَهُ: يَشْرَبُ، يَعْنِي: يُرْوَى بِهَا، فَإِنَّ الشَّارِبَ قَدْ يَشْرَبُ وَلَا يُرْوَى، فَإِذَا قِيلَ: يَشْرَبُونَ مِنْهَا، لَمْ يَدُلَّ عَلَى الرِّيِّ، فَإِذَا قِيلَ: يَشْرَبُونَ بِهَا، كَانَ الْمَعْنَى يَرْوُونَ بِهَا، فَالْمُقَرَّبُونَ يَرْوُونَ بِهَا، فَلَا يَحْتَاجُونَ مَعَهَا إِلَى مَا دُونَهَا؛ فَلِهَذَا يَشْرَبُونَ مِنْهَا صِرْفًا بِخِلَافِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، فَإِنَّهَا مُزِجَتْ لَهُمْ مَزْجًا، وَهُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦﴾. فَعِبَادُ اللَّهِ هُمُ الْمُقَرَّبُونَ الْمَذْكُورُونَ فِي تِلْكَ السُّورَةِ وَهَذَا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[1].

= كثير في تفسيره (٤/ ٤٨٨): وقال: «قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم. ومعنى صِرْفًا: أي خالصةً غير ممزوجة، والصِّرْفُ: الخالص من كل شيء». قاله ابن الأثير في النهاية (٣/ ٢٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَقَالَ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[(١)] . قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الصَّحِيحِ الَّذِي فِي السُّنَنِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْت الرَّحِمَ، وَشَقَقْت لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْته، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتّهُ»[(٢)] .

وَقَالَ: «وَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ»[(٣)]، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَوْعَيْنِ: مُقَرَّبُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَلَ الْقِسْمَيْنِ فِي حَدِيثِ الْأَوْلِيَاءِ، فَقَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْته عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»[(٤)]، فَالْأَبْرَارُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ هُمْ الْمُتَقَرِّبُونَ إلَيْهِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٩٤)، والترمذي (١٩٠٧)، وأحمد (١/ ١٩١ - ١٩٢)، وقال الترمذي: صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥) بلفظ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: من وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ».

(٤) سبق تخريجه (ص٢٣).

بِالْفَرَائِضِ، يَفْعَلُونَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَيَتْرُكُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُكَلِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَنْدُوبَاتِ، وَلَا الْكَفِّ عَنْ فُضُولِ الْمُبَاحَاتِ.

وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ، فَفَعَلُوا الْوَاجِبَاتِ والمستحبات، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ فَلَمَّا تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبَاتِهِمْ أَحَبَّهُمُ الرَّبُّ حُبًّا تَامًّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»(١)، يَعْنِي: الْحُبَّ الْمُطْلَقَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، أَيْ: أَنْعَمَ عَلَيْهِمُ الْإِنْعَامَ الْمُطْلَقَ التَّامَّ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

فَهَؤُلَاءِ الْمُقَرَّبُونَ صَارَتْ الْمُبَاحَاتُ فِي حَقِّهِمْ طَاعَاتٍ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ، فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عِبَادَاتٍ لِلَّهِ، فَشَرِبُوا صِرْفًا كَمَا عَمِلُوا لَهُ صِرْفًا، وَالْمُقْتَصِدُونَ كَانَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا فَعَلُوهُ لِنُفُوسِهِمْ، فَلَا يُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يُثَابُونَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَشْرَبُوا صِرْفًا، بَلْ مُزِجَ لَهُمْ مِنْ شَرَابِ الْمُقَرَّبِينَ بِحَسَبِ مَا مَزَجُوهُ فِي الدُّنْيَا.

وَنَظِيرُ هَذَا انْقِسَامُ الْأَنْبِيَاءِ ﵈ إِلَى: عَبْدٍ رَسُولٍ، وَنَبِيٍّ مَلِكٍ، وَقَدْ

(١) هذا جزء من حديث: الولي، سبق تخريجه (ص٢٣).

خَيَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، بَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا. فَالنَّبِيُّ الْمَلِكُ مِثْلُ: دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَنَحْوِهِمَا عليهما الصلاة والسلام، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ الَّذِي قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٥-٣٩]، أَيْ: أَعْطِ مَنْ شِئْت وَاحْرِمْ مَنْ شِئْت لا حِسَابَ عَلَيْك.

فَالنَّبِيُّ الْمَلِكُ يَفْعَلُ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَتْرُكُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَتَصَرَّفُ فِي الْوِلَايَةِ وَالْمَالِ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَخْتَارُ مِنْ غَيْرِ إثْمٍ عَلَيْهِ. وَأَمَّا الْعبد الرَّسُولُ فَلَا يُعْطِي أَحَدًا إلا بِأَمْرِ رَبِّهِ، وَلَا يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَحْرِمُ؛ كما في صَحِيحِ الْبُخَارِي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إنِّي وَاَللَّهِ لا أُعْطِي أَحَدًا وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا، إنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْت»[1]؛ وَلِهَذَا يُضِيفُ اللَّهُ الْأَمْوَالَ الشَّرْعِيَّةَ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر: ٧].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٧) بلفظ: «مَا أُعْطِيكُمْ وَلَا أَمْنَعُكُمْ إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ».

وَلِهَذَا كَانَ أَظْهَرُ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالَ تُصْرَفُ فِيمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِحَسَبِ اجْتِهَادِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ[١]، وَيُذْكَرُ هَذَا رِوَايَةً عَنْ أَحْمَد[٢]، وَقَدْ قِيلَ فِي الْخُمُسِ: إِنَّهُ يُقَسَّمُ عَلَى خَمْسَةٍ، كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ[٣]، وَأَحْمَد فِي الْمَعْرُوفِ عَنْهُ[٤]، وَقِيلَ: عَلَى ثَلَاثَةٍ، كَقَوْلِ أبي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ[٥].

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ الْعبد الرَّسُولَ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ النَّبِيِّ الْمَلِكِ، كَمَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدًا -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَفْضَلُ مِنْ يُوسُفَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانت، كَمَا أَنَّ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ أَفْضَلُ مِنْ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، الَّذِينَ لَيْسُوا مُقَرَّبِينَ سَابِقِينَ، فَمَنْ أَدَّى مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَفَعَلَ مِنْ الْمُبَاحَاتِ مَا يُحِبُّهُ، فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَيَقْصِدُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِمَا أُبِيحَ لَهُ عَلَى مَا أَمَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ مِنْ أُولَئِكَ.

الشرح:

قوله: (الْحُبَّ الْمُطْلَقَ) يعني: الحب الكامل كنظائر الإيمان المطلق، يعني: الكامل، والهداية المطلقة، والكفر المطلق، يعني: الكامل،

---

(١) انظر: المدونة الكبرى (٣/ ٢٦).

(٢) انظر: المغني (٦/ ٣١٢).

(٣) انظر: المهذب (٢/ ٢٤٦).

(٤) انظر: المغني (٦/ ٣١٣)، ومسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله (ص٢٤٧)، و(ص٤٠٥).

(٥) انظر: المبسوط للسرخسي (١٠/ ٨ - ٩).

بخلاف مطلق الحب، يعني أصله، ومطلق الإيمان، يعني: أصله، ومطلق الهداية: أصلها، ومطلق الكفر يعني: أصل الكفر، وفي كل هذه قد تكون أقل درجاته.

وذكر شيخ الإسلام هنا مباحث متنوعة لكن يجمعها أن أولياء الله ﷻ لا يكونون من الظالمين لأنفسهم، بل أولياء الله إما مقربون سابقون بالخيرات، وأما مقتصدون أصحاب يمين، وأما الظالم لنفسه الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا من الأشياء التي لا تكفر؛ كفعل الكبائر وأشباه ذلك، فإن هذا لا يُسمى وليًا بالاتفاق، لكن له نصيب من ولاية الله لعبده بقدر ما معه من الإيمان، لكن ليس له اسم الولي.

فالأولياء هم الصالحون من عباد الله القائمون بحقوقه وحقوق عباده إما مقتصدون، وإما مقربون سابقون بالخيرات، وهؤلاء لهم محبة الله ﷻ وعونه وتوفيقه ومعيته الخاصة.

وذكر شيخ الإسلام أن هذا نظير انقسام الأنبياء والرسل إلى عبد رسول، وإلى نبي ملك، فالعبد الرسول، كأولي العزم من الرسل، والنبي الملك كيوسف وداود وسليمان عليهم الصلاة والسلام، وفرَّق بينهما بأن النبي الملك يتصرف في المال باختياره، يعني: أنه ينظر في المصالح العامة، وفيما يراه فيتصرف في المال بما يراه؛ إذ المال في يده، فيتصرف فيه كيف يشاء، فيما لم يأت فيه أمر أو نهي مخصوص.

وأما العبد الرسول، فإنه قاسم يضع المال حيث أمره الله ﷻ، ولا يجتهد فيه، وهذا باعتبار الغالب؛ لأنه قد يجتهد فيه في بعض الأحوال كما اجتهد النبي ﷺ في بعض قسمة الفيء، فأعطى رجلًا واحدًا ما بين جبلين من

الإبل والماشية[١] وهكذا[٢]؛ ولهذا اختلف الصحابة ﷺ، وكما ذكر شيخ الإسلام: أن أصح قولي العلماء، أن ولي الأمر والإمام يتصرف في المال بما فيه المصلحة الدينية حيث أمر الله ﷻ.

والقول الآخر لبعض أهل العلم: أن ولي الأمر يتصرف في المال حيث ينظر هو المصلحة فيه فيما يتعلق بما فيه المصالح والمفاسد من قسمة الفيء، ونحو ذلك، ولا يلزم له الرجوع لأهل العلم ولا يشاور فيه، بل بما يظهر له من النظر والاجتهاد.

وشيخ الإسلام رحمه الله بسط هذه المسألة بسطًا طويلًا في كتابه (**منهاج أهل السنة النبوية**)[٣] لما ذكر طعن الرافضة في عثمان رضي الله عنه، وأنه تصرف في الأموال كيف يشاء، قال شيخ الإسلام هناك ما حاصله: إن أهل العلم في مسألة تصرف الولي في المال على قولين: منهم من يقول: يأخذون بما عليه العبد الرسول، فلا يضعون المال إلا بما أمر الله به في الشرع، وإذا لم يكن

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٢) بسنده عن أنس رضي الله عنه: «**أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ، فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**».

(٢) ومن ذلك أيضًا ما رواه مسلم (٢٣١٣) بسنده عن ابن شهاب قال: «**غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ الْفَتْحِ فَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ خَرَجَ رسول اللَّهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ، فَنَصَرَ اللهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ**».

(٣) انظر: منهاج السنة (٦/ ١٠٠ - ١١١).

ثم أمر ونهي في خصوصه، وتعرضت له المصلحة؛ فإن عليه أن يشاور في وضع المال؛ كما فعل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فإنهما لم يجتهدا في المال.

قال: والقول الآخر: إن ولي الأمر له أن يأخذ بسيرة النبي الملك، فيتصرف في المال، كيف شاء مما يرى فيه المصلحة، ولو كان فيه محاباة لبعض أهله وأقاربه، قال: وعلى هذا يخرج فعل عثمان رضي الله عنه، وفعل معاوية رضي الله عنه، وعثمان رضي الله عنه أحد الخلفاء الراشدين ولم يخطئه أحد من أهل السنة في فعله في تصرفه في المال، وإنما خطأه أهل الضلال، وكذلك معاوية هو خير ملوك المسلمين؛ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]، وتصرف في المال على هذا النحو.

وهذه المسألة تحتاج إلى زيادة تفصيل، لكن التنبيه على أصل هذه المسألة حيث أشار شيخ الإسلام هنا بقوله: في أصح قولي العلماء أن ولي الأمر يتصرف في المال حيث المصلحة الشرعية فيما يحبه الله ورسوله، بحسب اجتهاده، والقول الآخر: أن له أن يتصرف حيث يرى هو المصلحة فيه دون الرجوع لأهل العلم إلا فيما فيه أمر ونهي من أداء الزكاة، وصرفها في مصارفها الشرعية.

---

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله في منهاج السنة النبوية (٦/ ١٥٠): «لم يتول بعد عثمان رضي الله عنه خير منه، ولا أحسن سيرة، ولا تولى بعد علي رضي الله عنه خير منه، ولا تولى ملك من ملوك المسلمين أحسن سيرة من معاوية رضي الله عنه كما ذكر الناس سيرته وفضائله، وإذا كان الواحد من هؤلاء له ذنوب فغيرهم أعظم ذنوبًا وأقل حسنات، فهذا من الأمور التي ينبغي أن تُعرف؛ فإن الجاهل بمنزلة الذباب الذي لا يقع إلا على العقير، ولا يقع على الصحيح، والعاقل يزن الأمور جميعًا هذا وهذا» ا.هـ. وانظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٥٤٥).

أما الفيء الذي يفيئه الله ﷻ من الأموال العامة، فله أن يجتهد فيها بحسب ما يرى، وقد بسط شيخ الإسلام هذه المسألة كما سبق، وأجاب عن قول الرافضة والخوارج في طعنهم على عثمان رضي الله عنه، وعلى معاوية رضي الله عنه بالتصرف في المال، وقال: إن أهل السنة لم يطعن أحد منهم في عثمان؛ لأجل تصرفه في المال من جهة محاباته لأقاربه وتوليته بعض الولايات لذوي رحمه؛ لأن هذا راجع إلى تخريج شرعي، وعثمان أجل من أن يظن فيه أنه يسير في ذلك وفق هواه، وإنما يسيره في ذلك وفق الاجتهاد الشرعي الذي يراه من كونه نائبًا في هذا المال عن النبي، وله أن يعطي وله أن يمنع بحسب ما يرى.

فهما قولان، والصحيح ما ذُكر هنا، من أن ولي الأمر يتصرف في المال على وفق ما يحبه الله ورسوله.

فالمقصود من هذا: التنبيه على الفرق بين العبد الرسول، والنبي الملك، لكن هذا له اجتهاد وذلك ليس له اجتهاد في الغالب.

إذا تقرر هذا، فإن أولياء الله ﷻ يوصفون بأنهم متنزهون عن فضول المباحات، وشيخ الإسلام حرَّم على المسلم أن يأتي كل مباح سواء كان من مباحات النظر، أم من مباحات السماع، أم من مباحات العمل، قال: للمسلم أن يفعل بعض المباحات، ولكن أن يأتي كل مباح بلا تنزه عن فضول المباحات يقول شيخ الإسلام: هذا لا يجوز له. وأخذ هذا من ظاهر قول الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] فيرى أن التمتع بفضول المباحات لا يجوز.

والقول الآخر لأهل العلم: أن التمتع بفضول المباحات جائز، وهذا هو

الظاهر؛ لأن قوله ﷺ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ هذا للنبي ﷺ خاصة، وهذا يدل على تكميله ﷺ وألا يُتعرض إلى ما فيه انتقاص لمرتبته العليا.

وأما قوله ﷺ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] فهي في الكفار وليست في المسلمين[(١)].

فأولياء الله يتنزهون عن فضول المباحات، وليس كل مباح يأتونه، بل هناك مباحات لا تناسبهم وإن كانت مباحة في الشرع، ولكن تناسب غيرهم من المسلمين، فالأولياء يتنزهون عن كثير من المباحات إما من جهة الورع، وإما من جهة ترك خوارم المروءة، وإما من جهة أشياء قد يراها الولي لا تناسبه. مثاله: كثرة المزاح والضحك، بأن يغلب هذا على المرء، وإن كان مباحًا إذا لم يكن ينطق بكذب وأشباه هذا.

ولكن أولياء الله في قلوبهم من إجلال الله وخشيته والرغبة فيما عنده ما يجعلهم لا يُكْثِرون من هذا، وإنما إن فعلوا فيكون على جهة الانبساط الوارد عنه ﷺ، وهذا أصل في أن الأولياء فيما يفعلون من فضول المباحات يتابعون النبي ﷺ في أصول ما فعل، فيضحكون بعضًا من الوقت؛ لأنه ضحك ﷺ وتبسم، ويفعلون بعض الأشياء التي فيها ترويح بما لا يكون قادحًا - وأشباه ذلك - بنية الاقتداء ونية العمل، وهذا في بعض المباحات لا في كل المباحات. فالولي لابد أن يكون متنزهًا عن فضول المباحات، ولا يُتصور فيه من حيث الواقع أنه يأتي كل مباح، بل الولي من حيث الواقع ومن حيث دلالة العمل لابد أن يكون متنزهًا عن مباحات كثيرة.

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢١)، وأضواء البيان للشنقيطي (٧/ ٢٢٩)، وتيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (ص٧٨٢).



فَصْلٌ

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلِيَاءَهُ الْمُقْتَصِدِينَ وَالسَّابِقِينَ فِي سُورَةِ فَاطِر فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٥]، لَكِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَافَ الثَّلَاثَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاصَّةً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، هُمْ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ بَعْدَ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مُخْتَصًّا بِحُفَّاظِ الْقُرْآنِ، بَلْ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَقَسَّمَهُمْ إِلَى:

ظَالِم لِنَفْسِهِ، وَمُقْتَصِدٍ، وَسَابِقٍ، بِخِلَافِ الْآيَاتِ الَّتِي فِي الْوَاقِعَةِ(١) وَالْمُطَفِّفِينَ(٢)، وَالِانْفِطَارِ(٣)؛ فَإِنَّهُ دَخَلَ فِيهَا جَمِيعُ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ كَافِرُهُمْ وَمُؤْمِنُهُمْ، وَهَذَا التَّقْسِيمُ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

---

(١) يعني الآيات من (١ - ١٤)، وكذا الآيات من (٨٣ - ٩٦)، وسبق ذكرها (ص١٠٨).

(٢) يعني الآيات من (٧ - ٢٨)، وسبق ذكرها (ص١٠٩).

(٣) يعني الآيات من (٣ - ١٢).

فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ: أَصْحَابُ الذُّنُوبِ الْمُصِرُّونَ عَلَيْهَا.

وَالْمُقْتَصِدُ: الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ الْمُجْتَنِبُ لِلْمَحَارِمِ.

وَالسَّابِقُ لِلْخَيْرَاتِ: هُوَ الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ، كَمَا فِي تِلْكَ الْآيَاتِ، وَمَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ تَوْبَةً صَحِيحَةً لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ السَّابِقِينَ وَالْمُقْتَصِدِينَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [الرعد: ٢٣]، مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّهُ لا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ.

وَأَمَّا دُخُولُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ النَّارَ فَهَذَا مِمَّا تَوَاتَرَتْ بِهِ السُّنَنُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِخُرُوجِهِمْ مِنْ النَّارِ، وَشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ، وَإِخْرَاجِ مَنْ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ بِشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَشَفَاعَةِ غَيْرِهِ.

الشـــرح:

الأمم التي سبقت أمة محمد ﷺ المؤمنون فيها قسمان: مقتصدون

وظالمون لأنفسهم، أما السابقون بالخيرات في الأمم السالفة، فهم الأنبياء والرسل، فالأمم السابقة قسمان، كما قال ﷻ في سورة المائدة: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، وعلى هذا أكثر أهل التفسير بأن الأمم السالفة تنقسم على ظاهر هذه الآية إلى ظالم لنفسه، ومقتصد. وأما أمة محمد ففيهم ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، وهم السابقون بالخيرات، فالسابق بالخيرات هذا من فضل الله ﷻ لهذه الأمة. وهذا كله استطراد، البحث كان في الأولياء وأن الأولياء قسمان: مقتصدون وسابقون بالخيرات، فالظالم لنفسه وهو المصر على الذنوب لا يكون وليًا، وأما المقتصد فقد يكون وليًا، والسابق بالخيرات قد يكون وليًا من أولياء الله ﷻ، ثم استطرد رَحِمَهُ اللَّهُ لذكر الأقسام الثلاثة، وماذا يراد بهذه الأقسام وشرح ذلك، لكن أصل الكلام أن الأولياء قسمان، وصفة الولي أن يكون إما مقتصدًا أو يكون سابقًا بالخيرات، مع أن الجميع مع الظالم لنفسه موعود بالجنة بفضل الله وكرمه. وفي قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في آية فاطر: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، هل هذا في هذه الأمة خاصة أم في جميع الأمم؟ أهل العلم لهم في ذلك قولان[١]:

القول الأول: أن الأمم من قبلنا فيهم ظالم لنفسه، وفيهم مقتصدون، وأما السابقون فهم قلة؛ ولذلك لا يُجعلون قسمًا مستقلًا؛ وذلك لقول الله ﷻ في سورة المائدة في أهل الكتاب: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦] وقال ﷻ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]،

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٤- ١٣٧)، وتفسير البغوي (٦/ ٤٢٠)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٧٧)، (٣/ ٥٥٥ - ٥٥٧)، والدر المنثور (٧/ ٢٤ - ٢٨)، وأضواء البيان (٥/ ٤٨٩، ٤٩٠).

فجعلهم قسمين، وهذا رجحه طائفة من المحققين أن أهل الكتاب على فئتين فقط؛ لأن السابق فيهم نادر، فلا يُجعل السابقون فيهم قسمًا مستقلًا.

القول الثاني: أن الأمم من قبلنا كهذه الأمة منهم سابق، ومنهم مقتصد، ومنهم ظالم لنفسه. وهذا هو الصحيح؛ لأجل أن عدم التخصيص في آية المائدة وفي غيرها لا يدل على عدم الوجود، ولتيقننا بأن منهم من كان سابقًا بالخيرات، فحواريُ عيسى ﷺ كانوا سابقين، وأصحاب موسى ﷺ كذلك، قال ﷻ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] كانوا سابقين، وهكذا فكل رسول يكون من قومه من هو سابق إلى الإيمان به، وسابق إلى امتثال أمره، وسابق إلى الجهاد معه بحسب ما قدَّر الله ﷻ لهم وكتب.

أما قوله ﷺ في الحديث: «**نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا**»[1] فهذا لا يدل على أن هذه الأمة لا يوصف أحد فيها بأنه أول، وأنها موصوفة بالتأخر فقط، نعم: نحن الآخرون بالنسبة إلى من قبلنا، لكن هذه الأمة فيهم الأولون، وفيهم الآخرون، فما اتصل بزمان النبوة وقرب منه من القرون الثلاثة المفضلة هؤلاء أولون، ثم ما تأخر عنه وفتر عن ذلك يقرب من كونه آخرًا، والمسألة نسبية كما هو معلوم.

(١) سبق تخريجه (ص٣٨).

فَمَنْ قَالَ: إِنَّ أَهْلَ الْكَبَائِرِ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ، وَتَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ السَّابِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَهَا، وَأَنَّ الْمُقْتَصِدَ أَوْ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ لا يَدْخُلُهَا، كَمَا تَأَوَّلَهُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، فَهُوَ مُقَابَلٌ بِتَأْوِيلِ الْمُرْجِئَةِ الَّذِينَ لا يَقْطَعُونَ بِدُخُولِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ النَّارَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَهْلَ الْكَبَائِرِ قَدْ يَدْخُلُ جَمِيعُهُمْ الْجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ عَذَابٍ، وَكِلَاهُمَا مُخَالِفٌ لِلسُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَلِإِجْمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ الطَّائِفَتَيْنِ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لا يَغْفِرُ الشِّرْكَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَهُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِذَلِكَ التَّائِبُ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ يَغْفِرُهُ اللَّهُ لِمَنْ تَابَ، وَمَا دُونُ الشِّرْكِ يَغْفِرُهُ اللَّهُ أَيْضًا لِلتَّائِبِ، فَلَا تَعَلُّقَ بِالْمَشِيئَةِ.

وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْفِرَةَ لِلتَّائِبِينَ قَالَ تَعَالَى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فَهُنَا عَمَّمَ الْمَغْفِرَةَ وَأَطْلَقَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِلْعَبْدِ أَيَّ ذَنْبٍ تَابَ مِنْهُ، فَمَنْ تَابَ مِنْ الشِّرْكِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَابَ مِنْ الْكَبَائِرِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَأَيُّ ذَنْبٍ تَابَ الْعَبْدُ مِنْهُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ.

فَفِي آيَةِ التَّوْبَةِ عَمَّمَ وَأَطْلَقَ، وَفِي تِلْكَ الْآيَةِ خَصَّصَ وَعَلَّقَ، فَخَصَّ الشِّرْكَ بِأَنَّهُ لا يَغْفِرُهُ، وَعَلَّقَ مَا سِوَاهُ عَلَى الْمَشِيئَةِ، وَمِنْ

الشِّرْكِ التَّعْطِيلُ لِلْخَالِقِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ مَنْ يَجْزِمُ بِالْمَغْفِرَةِ لِكُلِّ مُذْنِبٍ.

وَنَبَّهَ بِالشِّرْكِ عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، كَتَعْطِيلِ الْخَالِقِ، أَوْ يَجُوزُ إلا يُعَذِّبَ بِذَنْبٍ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ الْبَعْضَ دُونَ الْبَعْضِ، وَلَوْ كَانَ كُلُّ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ مَغْفُورًا لَهُ بِلَا تَوْبَةٍ وَلَا حَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ لَمْ يُعَلِّقْ ذَلِكَ بِالْمَشِيئَةِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَغْفِرُ الْبَعْضَ دُونَ الْبَعْضِ، فَبَطَلَ النَّفْيُ وَالْوَقْفُ الْعَامُّ.

الشرح:

القول بأن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب هذا قول المرجئة، وأهل السنة يقولون: أهل الكبائر قد يدخلون الجنة بلا عذاب، فالفرق بين القولين أن المرجئة يجوزون دخول الجميع الجنة بلا عذاب، وأهل السنة يجوزون دخول البعض بلا عذاب؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ووعيده حق ﷻ، فلابد وأن يصيب بعضًا منهم، ووعده بأن يغفر لمن يشاء حق، فلابد أن يصيب بعضًا منهم.

فإذًا المرجئة يقولون: أهل الكبائر قد يدخلون جميعًا الجنة بلاعذاب، وهذا غلط، بل الصواب أن أهل الكبائر قد يدخل بعضهم الجنة بلا عذاب فيغفر الله ﷻ له كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فالفرق في لفظة جميعهم - قصد الجميع - هو الفرق بين أهل السنة وبينهم[١].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٤).

فَصْلٌ

وَإِذَا كَانَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ﷻ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ. وَالنَّاسُ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، فَهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي عَدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ. وَأَصْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى: الْإِيمَانُ بِرُسُلِ اللَّهِ، وَجِمَاعُ ذَلِكَ: الْإِيمَانُ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَالْإِيمَانُ بِهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَأَصْلُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ هُوَ الْكُفْرُ بِالرُّسُلِ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْكُفْرُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ لا يُعَذِّبُ أَحَدًا إلا بَعْدَ بُلُوغِ الرِّسَالَةِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

وَقَالَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ النَّارِ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك ٨ - ٩].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِي النَّارِ فَوْجٌ أَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ جَاءَهُمْ النَّذِيرُ فَكَذَّبُوهُ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُلْقَى فِيهَا فَوْجٌ إِلَّا مَنْ كَذَّبَ النَّذِيرَ.

وَقَالَ تَعَالَى فِي خِطَابِهِ لِإِبْلِيسَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٨٥]. **فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَمْلَؤُهَا بِإِبْلِيسَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ، فَإِذَا مُلِئَتْ بِهِمْ لَمْ يَدْخُلْهَا غَيْرُهُمْ.**

فَعُلِمَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إلا مَنْ تَبِعَ الشَّيْطَانَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ لا ذَنْبَ لَهُ، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَمْ يَتَّبِعْ الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَكُنْ مُذْنِبًا، وَمَا تَقَدَّمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لا يَدْخُلُهَا إِلَّا مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِالرُّسُلِ.

الشـــرح:

هذا الكتاب فيه ذكر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، يعني الفاصل والفصل، وما يميز هذا من هذا، وقد سبق أن الأصل في الفرق هو قول الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

وإذا كان كذلك فإن أولياء الله هم المؤمنون المتقون، والإيمان يتبعض، والناس ليسوا فيه سواء، وكذلك التقوى تتبعض، والناس ليسوا في التقوى سواء، فحصل من ذلك أن ولاية الله ﷻ لعباده المؤمنين المتقين ليست واحدة، بل متفاضلة، فالله ﷻ يحب المؤمن المتقي بعامة، ومن كان أكثر إيمانًا وتقوى كان أحب إلى الله ﷻ، وهذا من جهة محبة الله ﷻ للعبد؛

فإن كل مؤمن تقي له نصيب من ولاية الله ﷻ، وله نصيب من محبة الله ﷻ ونصرته بحسب ما معه من الإيمان والتقوى، وكذلك إذا كان معه عصيان، وبدع، وضلال، وفجور، وفسوق، فله نصيب من بغض الله ﷻ وعداوته له.

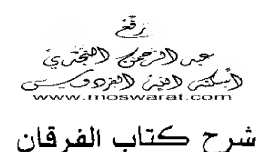
فعندنا أنه يجتمع في حق المعين: ما يوجب الولاية، وما يوجب العداوة هذا من جهة الوصف، أما من جهة الاسم - وهو اسم الولي - فإنما يُطلق في الاصطلاح على من حقق الإيمان والتقوى، وكمل ذلك بحسب وسعه وطاقته، فلا يُقال: فلان ولي لحصول أصل الإيمان والتقوى فيه؛ لأن كل مسلم عنده أصل الإيمان وأصل التقوى؛ فإن كل مسلم عنده قدر من الإيمان، وكل مسلم عنده قدر من التقوى.

فالمقصود: أن الولي هو من حقق الإيمان والتقوى، هذا من حيث الاصطلاح، أما من حيث الشرع، فكما ذكر في أول الكلام أن الولي هو المؤمن التقي، وأن كل واحد له نصيب من هذه الولاية إذا كان عنده إيمان وتقوى.

ذكر شيخ الإسلام بعد ذلك أن أصل حصول الولاية إنما هو باتباع الرسل؛ فإن من الإيمان: الإيمان بالرسل وبما جاءت به الرسل.

والتقوى هي: اتقاء ما حذر منه الرسل وأنذروا وخوفوا، فإذا كان كذلك رجعت إلى الولاية، وبحصول هذه المحبة والنصرة من الله ﷻ رجعت إلى الإيمان بالرسل، وإلى متابعة الرسل، والتصديق بما جاءت به الرسل، كلٌّ بحسب الرسول الذي بُعث إليه، ولما بُعث المصطفى محمد بن عبدالله ﷺ صار الإيمان والتقوى راجعًا إلى هذه الوسيلة العظيمة، وهو

محمد ﷺ، فكل ولاية أو كل ادعاء لولاية ليس سببها الإيمان بالنبي ﷺ واتقاء ما حذر منه فهو ادعاء كاذب؛ ولهذا سيفصل في ذكر الإيمان بالرسل لتحقيق أن الولاية لا تكون إلا باتباع الرسول ﷺ.



فَصْلٌ

وَمِنْ النَّـاسِ مَنْ يُؤْمِـنُ بِالرُّسُـلِ إيمَانًا مُجْمَلًا، وَأَمَّـا الْإِيمَـانُ الْمُفَصَّلُ فَيَكُونُ قَدْ بَلَغَهُ كَثِيرٌ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَلَمْ يَبْلُغْهُ بَعْضُ ذَلِكَ، فَيُؤْمِنُ بِمَا بَلَغَهُ عَنْ الرُّسُلِ، وَمَا لَمْ يَبْلُغْهُ لَمْ يَعْرِفْهُ، وَلَوْ بَلَغَهُ لَآمَنَ بِهِ، وَلَكِنْ آمَنَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ إيمَانًا مُجْمَلًا، فَهَذَا إذَا عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِهِ مَعَ إيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ إيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ، وَمَا لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُكَلِّفْهُ مَعْرِفَتَهُ وَالْإِيمَانَ الْمُفَصَّلَ بِهِ، فَلَا يُعَذِّبُهُ عَلَى تَرْكِهِ، لَكِنْ يَفُوتُهُ مِنْ كَمَالِ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ مَا فَاتَهُ مِنْ ذَلِكَ، فَمَنْ عَلِمَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَآمَنَ بِهِ إيمَانًا مُفَصَّلًا وَعَمِلَ بِهِ، فَهُوَ أَكْمَلُ إيمَانًا وَوِلَايَةً لِلَّهِ مِمَّنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ مُفَصَّلًا وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ، وَكِلَاهُمَا وَلِيٌّ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَالْجَنَّةُ دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلَةٌ تَفَاضُلًا عَظِيمًا، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ فِي تِلْكَ الدَّرَجَاتِ بِحَسَبِ إيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ.

قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

فَبَيَّنَ اللَّهُ ﷻ، أَنَّهُ يَمُدُّ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ مِنْ

عَطَائِهِ، وَأَنَّ عَطَاءَهُ مَا كَانَ مَحْظُورًا مِنْ بَرٍّ وَلَا فَاجِرٍ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ يَتَفَاضَلُونَ فِيهَا أَكْثَرُ مِمَّا يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّ دَرَجَاتِهَا أَكْبَرُ مِنْ دَرَجَاتِ الدُّنْيَا، وَقَدْ بَيَّنَ تَفَاضُلَ أَنْبِيَائِهِ عليهم السلام كَتَفَاضُلِ سَائِرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَلَا تَعْجِزَن، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْت لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»(٢)، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦]، **وقال تعالى**: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٩ - ٢٢]، **وقال تعالى**: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]، **وقال تعالى**: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

الشـــرح:

هذا الاستطراد من شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليبين أن المؤمنين بالرسل من هذه الأمة ليسوا على مرتبة سواء، فبعضهم إيمانه مجمل وليس عنده إيمان مفصل، ويكون مؤمنًا تقيًا مؤمنًا بما جاء به الرسول ﷺ إيمانًا مجملًا، وهناك من إيمانه مفصل، يعني علم ما جاء به الرسول ﷺ فآمن به مفصلًا، ومنهم من آمن بما جاءه مفصلًا لكن ما جاء غيره من العلم أكثر مما عنده، فصار الذين يؤمنون بالرسول ﷺ متفاضلين، فبعضهم أعظم إيمانًا من بعض بما وصله من العلم، كذلك من جهة العمل؛ فإن الإيمان منه العمل، فإذا

عمل بما جاء به الرسول ﷺ كان أعظم إيمانًا به ونتج من ذلك أنه أعظم ولاية؛ فإذًا الأولياء ليسوا على مرتبة واحدة.

ثم ذكر الأدلة الدالة على أن التفاضل بين أهل الإيمان كثير في النصوص فذكر أن المؤمنين فضل الله بعضهم على بعض في عدة نصوص من القرآن، كذلك المجاهدون فضَّلَ الله بعضهم على بعض، والصحابة يختلفون في مراتبهم.

فهذا الاستطراد يدل على أن الأصل الذي أصله معروف في الشريعة، فعلى طالب العلم أن ينتبه لطريقة شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث إنه يقرر في صدر الكلام ما يريده ثم يستحضر سؤالًا أو استشكالًا يورده؛ ولأجل ذلك أنشأ هذه الرسالة أو غيرها، فهو يستطرد ويأتي بالنظائر، والأدلة التي تدل على أن أصله الذي أصَّله سليم من جهة الاستدلال وسليم من جهة النظر، وهذا لا شك أنه قوة في الحجة مع المجادلين والمبتدعة؛ لأن هذه الكتب ألفها شيخ الإسلام لهداية من ضل في باب السلوك[١].

---

(١) للشارح - حفظه الله - محاضرة ممتعة بعنوان (كيف تقرأ كتب شيخ الإسلام؟).

فَصْلٌ

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ - وَقَدْ تَقَدَّمَ - يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»(١) وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا تَقِيًّا حَتَّى يَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ، فَيَكُونُ مِنْ الْأَبْرَارِ أَهْلِ الْيَمِينِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يَكُونَ مِنْ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ لَا يَصِحُّ إِيمَانُهُ وَعِبَادَاتُهُ، وَإِنْ قَدَرَ أَنَّهُ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ - وَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُمْ لَا يُعَذَّبُونَ حَتَّى يُرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ - فَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إِلَّا إِذَا كَانُوا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، فَمَنْ لَمْ يَتَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ لَا بِفِعْلِ الْحَسَنَاتِ وَلَا بِتَرْكِ السَّيِّئَاتِ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ الْمَجَانِينُ وَالْأَطْفَالُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ»(٢).

---

(١) انظر: تخريجه (ص٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي (٦/ ١٥٦)، وابن ماجه (٢٠٤١)، وأحمد (٦/ ١٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أبو داود (٤٣٩٩)، والترمذي (١٤٢٣) =

وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ وَعَائِشَةَ ﵄، وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ عَلَى تَلَقِّيهِ بِالْقَبُولِ.

لَكِنَّ الصَّبِيَّ الْمُمَيِّزَ تَصِحُّ عِبَادَاتُهُ وَيُثَابُ عَلَيْهَا عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ. وَأَمَّا الْمَجْنُونُ الَّذِي رُفِعَ عَنْهُ الْقَلَمُ فَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ عِبَادَاتِهِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَلَا يَصِحُّ مِنْهُ إيمَانٌ وَلَا كُفْرٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَاتِ؛ بَلْ لا يَصْلُحُ هُوَ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُقَلَاءِ لِأُمُورِ الدُّنْيَا كَالتِّجَارَةِ وَالصِّنَاعَةِ.

فَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ بَزَّازًا وَلَا عَطَّارًا وَلَا حَدَّادًا وَلَا نَجَّارًا وَلَا تَصِحُّ عُقُودُهُ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.

فَلَا يَصِحُّ بَيْعُهُ وَلَا شِرَاؤُهُ وَلَا نِكَاحُهُ وَلَا طَلَاقُهُ وَلَا إقْرَارُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ، وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِهِ، بَلْ أَقْوَالُهُ كُلُّهَا لَغْوٌ لا يَتَعَلَّقُ بِهَا حُكْمٌ شَرْعِيٌّ وَلَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ.

بِخِلَافِ الصَّبِيِّ الْمُمَيِّزِ فَإِنَّ لَهُ أَقْوَالًا مُعْتَبَرَةً فِي مَوَاضِعَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَفِي مَوَاضِعَ فِيهَا نِزَاعٌ.

وَإِذَا كَانَ الْمَجْنُونُ لا يَصِحُّ مِنْهُ الْإِيمَانُ وَلَا التَّقْوَى وَلَا التَّقَرُّبُ إلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ، وَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ؛ لا سِيَّمَا أَنْ تَكُونَ حُجَّتُهُ عَلَى ذَلِكَ إمَّا مُكَاشَفَةُ سَمِعَهَا مِنْهُ، أَوْ نَوْعٌ مِنْ تَصَرُّفٍ، مِثْلِ: أَنْ يَرَاهُ قَدْ أَشَارَ إلَى وَاحِدٍ فَمَاتَ أَوْ صُرِعَ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ

= وابن ماجه (٢٠٤٢)، وأحمد (١/ ١١٨) من حديث علي ﵁.

- مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ - لَهُمْ مُكَاشَفَاتٌ وَتَصَرُّفَاتٌ شَيْطَانِيَّةٌ، كَالْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ وَعُبَّادِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ عَلَى كَوْنِ الشَّخْصِ وَلِيًّا لِلَّهِ، وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ وِلَايَةَ اللَّهِ، فَكَيْفَ إِذَا عُلِمَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ وِلَايَةَ اللَّهِ؟! مِثْلُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لا يَعْتَقِدُ وُجُوبَ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا؛ بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَتَّبِعُ الشَّرْعَ الظَّاهِرَ دُونَ الْحَقِيقَةِ الْبَاطِنَةِ.

أَوْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ غَيْرَ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام.

أَوْ يَقُولُ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ ضَيَّقُوا الطَّرِيقَ، أَوْ هُمْ عَلَى قُدْوَةِ الْعَامَّةِ دُونَ الْخَاصَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقُولُهُ بَعْضُ مَنْ يَدَّعِي الْوِلَايَةَ، فَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ مِنْ الْكُفْرِ مَا يُنَاقِضُ الْإِيمَانَ. فَضْلًا عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ $ا، فَمَنْ احْتَجَّ بِمَا يَصْدُرُ عَنْ أَحَدِهِمْ مِنْ خَرْقِ عَادَةٍ عَلَى وِلَايَتِهِمْ كَانَ أَضَلَّ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

وَكَذَلِكَ الْمَجْنُونُ؛ فَإِنَّ كَوْنَهُ مَجْنُونًا يُنَاقِضُ أَنْ يَصِحَّ مِنْهُ الْإِيمَانُ وَالْعِبَادَاتُ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ، وَمَنْ كَانَ يَجُنُّ أَحْيَانًا وَيُفِيقُ أَحْيَانًا، إِذَا كَانَ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤَدِّي الْفَرَائِضَ وَيَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ؛ فَهَذَا إِذَا جُنَّ لَمْ يَكُنْ جُنُونُهُ مَانِعًا مِنْ أَنْ يُثِيبَهُ اللَّهُ عَلَى إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ الَّذِي أَتَى بِهِ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ، وَيَكُونُ لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ مَنْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ بَعْدَ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُثِيبُهُ وَيَأْجُرُهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ. وَلَا يُحْبِطُهُ

بِالْجُنُونِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ فَعَلَهُ، وَالْقَلَمُ مَرْفُوعٌ عَنْهُ فِي حَالِ جُنُونِهِ.

الشـــرح:

كلام شيخ الإسلام رحمه الله من أول الفصل إلى هذا الموطن يريد به بيان أن التقوى والإيمان سبب ولاية الله لعبده، وأن الولي هو المؤمن التقي، وأن الإيمان والتقوى لا تصح من العبد الا إذا كانت باختياره، يعني: إذا كان مكلفًا، فصار متقيًا برغبته واختياره، وصار مؤمنًا برغبته واختياره.

وأما من رُفع عنه القلم فلا يوصف بالإيمان والتقوى، حتى ولو حصل منه بعض الأشياء التي هي من العبادات؛ فإنه لا يوصف بالإيمان والتقوى حتى يأتيها اختيارًا، ومثل لذلك بالمجنون؛ لأن الصوفية لهم اعتقاد في المجانين - كما سيأتي في بقية الكلام - فالمجنون هذا لم يقع منه في جنونه إيمان وتقوى برغبة واختيار وطاعة لله.

فإذًا تعريف الولي بأنه كل مؤمن تقي وليس بنبي، هذا لا يصدق عليه؛ لأنه لم يأت الإيمان والتقوى طاعة لله، بل هو غافل أو مجنون لا يُبايع ولا يُنْكَح، إلى آخره مما يأباه الناس حتى لا يقعوا في تصرفات له لا يعقلها كذلك أعظم الأمور وأهم المهمات وهو الإيمان، فإنه لا يوصف المجنون بذلك، فإذا عرض له الجنون ومات عليه، فإن حاله على ما كان عليه قبل الجنون، يعني: إذا كان قبل الجنون رجلًا صالحًا؛ فإنه يُعتبر رجلًا صالحًا إلى حين أن يجن، وما بعد ذلك فلا يوصف بصلاح ولا بغيره، بل بداية الجنون كنزول الموت، فيُقال: كان رجلًا صالحًا.

أما في حال جنونه، من جهة تصرفاته، وأخذه، وعطائه الشرعي؛ فإنه مرفوع عنه القلم، يعني: قلم التكليف. وقد يقع من المجنون أشياء غريبة وتوافق صوابًا بنفسها.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في (**أنباء الغُمْرِ**)[1] أن أحد ولاة دمشق مر في سوق، وكان في الطريق رجل من المجاذيب - أي من المجانين - فلما مر عليه صاح بالوالي، فقال: يا هذا ما فعلت الخبزة؟ فارتاع الوالي لهذه الكلمة، ونزل وسأل عنه، قالوا: هذا المجذوب فلان، وكانوا يعتقدون في المجانين، فأخذه وقبل يده، قال: فكان هذا المجنون ربما أتى في مجلس الوالي وبصق في وجهه، وذاك مسرور بفعله؛ لأنهم يعتقدون أن الجنون سببه انجذاب الروح عن المخلوق إلى الخالق، فالظاهر فيما بينه وبين الناس أنه لا عقل له؛ لأن عقله مع ربه ﷻ.

لهذا يعدلون عن اسم المجنون إلى اسم المجذوب، يعني الذي جُذِبَ عقله وروحه إلى ربه، فغاب عقله عن الناس فصار مع ربه؛ ولهذا يقولون: إذا تصرف هو يتصرف بأمر الله وأشباه ذلك مما يتنزه العقلاء عن ظنه فضلًا عن اليقين به، وفي هذا قال قائلهم في وصف المجانين:

مَجَانِينُ إلا أَنَّ سِرَّ جُنُونِهِمْ ... عَزِيزٌ عَلَى أَبْوَابِهِ يَسْجُدُ الْعَقْلُ[2]

---

(١) هذه القصة وقعت للملك الظاهر، انظر: أنباء الغُمْرِ (١/ ٢٢٢).

(٢) هذا البيت من قصيدة لبدر الدين بن هود الحسن بن علي أبو علي بن عضد الدولة أبي الحسن أخي المتوكل، مولده سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بمرسية، حصل له زهد مفرط وفراغ عن الدنيا وسكرة عن ذاته وغفلة عن نفسه، فسافر وترك الحشمة، وصحب ابن سبعين، واشتغل بالطب والحكمة وزهديات الصوفية، وخلط هذا بهذا، قال عنه الذهبي: «**كان فلسفي التصوف يشرب الخمر أخذه الأعوان مخمورًا**» ا.هـ. =

يعني: أن سبب الجنون، هو كمال المحبة والانجذاب إلى الله ﷻ نسأل الله العافية.

= انظر: سير الأعلام (٢٣/ ٢٢)، والوافي بالوفيات (١٢/ ٩٧)، وفوات الوفيات (١/ ٣٣١).

وقد أورد هذا البيت ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٥٧٦)، وشيخ الإسلام في الجواب الصحيح (٣/ ١٨٧)، (٤/ ٤٠١)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٤٤٥)، ولم ينسباه لأحد، وفيه «**على أقدامه يسجد. .**»، ونسبه إليه ابن أيبك في الوافي بالوفيات (١٢/ ٩٨)، وابن شاكر في فوات الوفيات (١/ ٣٣٣)، وفيه:

مَجَانِينُ إِلَّا أَنَّ ذُلَ جُنُونَهُمْ عَزِيزٌ عَلَى أَعْتَابِهِم يَسْجُدُ الْعَقْلُ

فَعَلَى هَذَا، فَمَنْ أَظْهَرَ الْوِلَايَةَ، وَهُوَ لا يُؤَدِّي الْفَرَائِضَ، وَلَا يَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ، بَلْ قَدْ يَأْتِي بِمَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: هَذَا وَلِيٌّ لِلَّهِ، فَإِنَّ هَذَا إِنْ لَمْ يَكُنْ مَجْنُونًا؛ بَلْ كَانَ مُتَوَلِّهًا مِنْ غَيْرِ جُنُونٍ، أَوْ كَانَ يَغِيبُ عَقْلُهُ بِالْجُنُونِ تَارَةً وَيُفِيقُ أُخْرَى، وَهُوَ لا يَقُومُ بِالْفَرَائِضِ، بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لا يَجِبُ عَلَيْهِ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ، فَهُوَ كَافِرٌ. وَإِنْ كَانَ مَجْنُونًا بَاطِنًا وَظَاهِرًا قَدْ ارْتَفَعَ عَنْهُ الْقَلَمُ، فَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعَاقَبًا عُقُوبَةَ الْكَافِرِينَ فَلَيْسَ هُوَ مُسْتَحِقًّا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ ﷻ، فَلَا يَجُوزُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ أَنْ يَعْتَقِدَ فِيهِ أَحَدٌ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لَهُ حَالَةٌ فِي إِفَاقَتِهِ كَانَ فِيهَا مُؤْمِنًا بِاللَّهِ مُتَّقِيًا كَانَ لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ لَهُ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ فِيهِ كُفْرٌ أَوْ نِفَاقٌ، أَوْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا ثُمَّ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ، فَهَذَا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ مَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ، وَجُنُونُهُ لا يُحْبِطُ عَنْهُ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ حَالَ إِفَاقَتِهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ.

الشـــرح:

ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا أن شُبَهَ المعتقدين في المجنونين، والمجذوبين والمتولهين ما يحصل لهم من نوع خوارق العادات، سواء كانت خوارق علمية بذكر أشياء؛ كأن يقول: أنت تقول كذا! وحصل منك كذا! وهو مجنون، فيوافق صوابًا، أو خوارق من جهة القدرة؛ كأن يشير إلى أحد فيموت، أو يشير إلى الماء فيمشي عليه، أو يشير بإصبعه فينزل عليه رغيف، وأشباه ذلك من أنواع القدرة والعلم، هذه أنواع الخوارق والمتقرر أن

الخوارق حصلت للكهان، والسحرة، والمشعوذين الكفار، والشياطين، وحصلت أيضًا الخوارق للمؤمنين، وحصلت الخوارق أيضًا للرسل والأنبياء؛ ولهذا قسم العلماء الخوارق إلى ثلاثة أقسام باعتبار من حصلت له:

القسم الأول: خوارق حصلت للأنبياء والرسل، فهذه تسمى آيات وبراهين.

القسم الثاني: خوارق تحصل لأتباع الرسل، وهذه تسمى كرامات.

القسم الثالث: خوارق تحصل للمنافقين والعاصين للرسل، فهذه خوارق شيطانية ليست إكرامًا من الله ﷻ لهم؛ لأن الله لا يكرم من لم يتبع رسله - عليهم الصلاة والسلام - .

فإذًا ليس اعتبار كون المرء محبوبًا لله وليًا لله أنه يحصل له خارق؛ لأن الخارق يحصل للشياطين، والكفار، والمنافقين، والسحرة، فلابد من النظر فيمن حصل له الخارق، فإن حصل الخارق لمطيع للرسل معظم ومتبع لهم في الظاهر والباطن صارت هذه الخوارق كرامات، وإن حصل لمنافق عاص للرسل مبتدع أو مجنون، فنقول: هذه من الشياطين؛ لإيقاع الناس في الفتنة، أو في الكفر والشرك، هذا باعتبار.

وباعتبار آخر فإن الخوارق راجعة من حيث الصفات إلى نوعين من الصفات، وهما:

* صفة الغنى.

* وصفة القدرة.

ومعلوم أن غنى المغتني وقدرته على الشيء إنما هي بأقدار الله ﷻ له،

وبإغنائه ﷻ، وإذا كان كذلك فإن الخارق للعادة إذا كان راجعًا على صفة الغنى فقد يكون لحاجة مَنْ حصل له الخارق، فالخارق حصل له لأجل إغنائه، فهذا يدل على أن من حصل له الخارق لا يفضل على من لم يحصل له الخارق؛ لأن الخوارق راجعة إلى صفتي الغنى والاقتدار، فإذا كان ليس بغني، ومحتاج، وضعفت نفسه، فقد يحصل له خارق، وهو ليس كالولي الذي لم يحصل له الخارق؛ لهذا نجد أن بعض الصحابة ﵃ كان أكثر خوارق ممن هو أفضل منه كأبي بكر وعمر ﵄، وذلك لكمال غنى أبي بكر وعمر ﵄ الكمال البشري، وافتقار ذاك إلى ما يقوي إيمانه، ويصحح أو يثبت يقينه، فحصول الخارق من حيث هو باعتبار صفات الكمال راجع إلى النقص، فيحصل الخارق لفائدة الشخص لرفع النقص في صفات الكمال، أو لزيادته في صفات الكمال، فإذا كان ضعيفًا من جهة الغنى، زيد في غناه بالخارق ليقوي إيمانه، وكذلك من جهة القدرة ربما أعطي ليظهر إيقانه؛ كما يحصل للمجاهدين، فإن بعضهم يكرم بأشياء؛ لأنهم لم يحققوا من أمر الله ﷻ ما يوجب اغتناءهم عن الكرامات، فيكون إتيانهم بالكرامات من أجل عدم قدرتهم، والله يريد نصر دينه ونصر أتباع دينه على أعدائه وأعداء دينه. وهذه مسألة تحتاج إلى مزيد بسط في معرفة أفراد صفات الغنى وتقسيماتها وأفراد صفات الاقتدار والقدرة وتقسيماتها، وهي مبسوطة في كتب أهل العلم(١).

المقصود من هذا: أن المجنون لا يجوز له أن يوصف بأنه من الأولياء لأنه ليس له اختيار، وليس له فعل بنفسه، وإنما الأولياء هم المؤمنون المتقون.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٩٤ - ٩٧)، وشرح الطحاوية (ص٤٩٤).

فَصْلٌ

وَلَيْسَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ شَيْءٌ يَتَمَيَّزُونَ بِهِ عَنْ النَّاسِ فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْأُمُورِ الْمُبَاحَاتِ، فَلَا يَتَمَيَّزُونَ بِلِبَاسٍ دُونَ لِبَاسٍ إذَا كَانَ كِلَاهُمَا مُبَاحًا، وَلَا بِحَلْقِ شَعْرٍ أَوْ تَقْصِيرِهِ أَوْ ظَفْرِهِ إذَا كَانَ مُبَاحًا، كَمَا قِيلَ: كَمْ مِنْ صِدِّيقٍ فِي قَبَاءٍ، وَكَمْ مِنْ زِنْدِيقٍ فِي عَبَاءٍ[1]، بَلْ يُوجَدُونَ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، إذَا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ الظَّاهِرَةِ وَالْفُجُورِ، فَيُوجَدُونَ فِي أَهْلِ الْقُرْآنِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ، وَيُوجَدُونَ فِي أَهْلِ الْجِهَادِ وَالسَّيْفِ، وَيُوجَدُونَ فِي التُّجَّارِ وَالصُّنَّاعِ وَالزُّرَّاعِ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ أَصْنَافَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

وَكَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ أَهْلَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ: «الْقُرَّاءَ»، فَيَدْخُلُ فِيهِمْ الْعُلَمَاءُ وَالنُّسَّاكُ، ثُمَّ حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْمُ «الصُّوفِيَّةِ وَالْفُقَرَاءِ».

وَاسْمُ «الصُّوفِيَّةِ» هُوَ نِسْبَةٌ إلَى لِبَاسِ الصُّوفِ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ

---

(١) قال في التوضيحات الحسان (ص٧٧): القباء: الجبة وهي من لباس الأغنياء. والعباء: الثياب الخشنة التي يعتاد لبسها الفقراء. وانظر القاموس المحيط مادة (قبا)، وإيضاح مختار الصحاح (ص٤٤).

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ نِسْبَةٌ إِلَى صَفْوَةِ الْفُقَهَاءِ، وَقِيلَ: إِلَى صُوفَةَ بْنِ أُدِّ بْنِ طانجة، قَبِيلَةٌ مِنْ الْعَرَبِ كَانُوا يُعْرَفُونَ بِالنُّسُكِ، وَقِيلَ: إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ، وَقِيلَ: إِلَى الصَّفَا، وَقِيلَ: إِلَى الصَّفْوَةِ، وَقِيلَ: إِلَى الصَّفِّ الْمُقَدَّمِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ أَقْوَالٌ ضَعِيفَةٌ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ: صَفِّيٌّ أَوْ صَفَائِيٌّ أَوْ صَفَوِيٌّ أَوْ صِفِّيٌّ، وَلَمْ يَقُلْ: صُوفِيٌّ.

وَصَارَ أَيْضًا اسْمُ «الْفُقَرَاءِ» يُعْنَى بِهِ أَهْلَ السُّلُوكِ، وَهَذَا عُرْفٌ حَادِثٌ، وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ أَيُّمَا أَفْضَلُ: مُسَمَّى «الصُّوفِيِّ»، أَوْ مُسَمَّى «الْفَقِيرِ»؟ وَيَتَنَازَعُونَ أَيْضًا أَيُّمَا أَفْضَلُ: الْغَنِيُّ الشَّاكِرُ، أَوْ الْفَقِيرُ الصَّابِرُ؟[١].

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِيهَا نِزَاعٌ قَدِيمٌ بَيْنَ الْجُنَيْدِ[٢] وَبَيْنَ أبي الْعَبَّاسِ ابْنِ عَطَاءٍ[٣]، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ فِيهَا رِوَايَتَانِ.

وَالصَّوَابُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَا قَالَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) انظر: شرح الطحاوية (ص٣٦١).

(٢) هو أبو القاسم الجنيد البغدادي، أصله من نهاوند، مولده بالعراق، تفقه على مذهب أبي ثور، توفي سنة ٢٩٧هـ انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٦)، وطبقات الحنابلة (١/ ١٢٧).

(٣) هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي، متصوف صحح مذهب الحلاج، صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز، توفي سنة ٣٠٩هـ.
انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٥٥)، وصفة الصفوة (٢/ ٤٤٥).

وَفِي الصحيح عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ: «أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ أَتْقَاهُمْ. قِيلَ لَهُ: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُك، فَقَالَ: يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ يَعْقُوبَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ إِسْحَاقَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ. فَقِيلَ لَهُ: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُك. فَقَالَ: عَنْ مَعَادِنَ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا»[1]. فَدَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ أَنَّ أَكْرَمَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ.

وَفِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ، وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ إلا بِالتَّقْوَى، كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»[2].

وَعَنْهُ أَيْضًا ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، النَّاسُ رَجُلَانِ: مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ»[3].

فَمَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَتْقَى لِلَّهِ فَهُوَ أَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِذَا اسْتَوَيَا فِي التَّقْوَى اسْتَوَيَا فِي الدَّرَجَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤١١) من حديث أبي نضرة ﷺ، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٨٤): «رواه الطبراني في الأوسط، والبزار بنحوه، ورجال البزار رجال الصحيح» ا. هـ.

(٣) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وقال: حديث حسن، وأحمد في المسند (٢/ ٣٦١).

الشـــرح:

هذا الفصل تفريع على تعريف الولي، وشروط الولاية، وقد ذكرنا أن الولي هو كل مؤمن تقي ليس بني، فالولي من حصَّل الإيمان والتقوى، ومعلوم أن الإيمان والتقوى لا يشترط على أهله أن يكونوا على صفة ما في المأكل، أو في المشرب، أو في اللباس، إلا أن يكون ذلك إتيان الحلال وترك الحرام؛ فإن هذا هو الذي جعلهم أولياء مؤمنين أتقياء. فتميز الأولياء بلباس خاص يُشار إليهم به ليس له أصل، وتميزهم بشكل شعورهم ليس له أصل، إما بحلق الرأس، أو بتكثيره، أو ما أشبه ذلك، هذا كله ليس له أصل، وكذلك تميزهم في مأكلهم، أو في مراكبهم، أو في مشاربهم، ونحو ذلك، هذا كله ليس له أصل؛ بل يختلفون في هذه إذا كان ما يأتون من المباح لهم.

وإن كان من صفة أولياء الله ﷻ أنهم لا يتوسعون في المباحات، يعني: ليس كل مباح يأتونه؛ لأن الله ﷻ نهى نبيه عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١]، فذكر أن النظر إلى ما متع به الناس من زهرة الحياة الدنيا، هذا من عاجلة الدنيا، وقد نُهي النبي ﷺ عن مد العين إلى كل المباحات بهذه الآيات، وأن رزق الله خير وأبقى، يعني: في الآخرة[١]. وهذا يدل على أن من صفة العباد، ومن صفة أولياء الله الذين كملوا الإيمان والتقوى أنهم

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٦٠)، وتفسير البغوي (٤/ ٣٩٢)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٨)، وأضواء البيان (٣/ ٢٦٤)، وتفسير السعدي (٤٣٤).

لا يتوسعون في المباحات، فربما كان الشيء مباحًا وتُرك؛ لأن فيه نوع تعلق بالدنيا، لكن من جهة الأمور الظاهرة لا يختلفون عن غيرهم، إلا فيما يكون فيه نوع خرم للمروءة ودناءة، أو أشباه ذلك؛ فإنهم يتنزهون عنه؛ ولهذا كان الناس يأتون النبي ﷺ في مجلسه فيسألون: أيكم محمد؟ لأنه لم يكن ﷺ يتميز عنهم بمكان، أو بلباس، أو بشارة، ونحو ذلك.

وأما إحداث بعض الألبسة الخاصة من الناس؛ فإنما حدث في المائة الثانية؛ كما أحدث الصوفية لباسًا خاصًا، يعني للزهاد أو للفق-راء، وكما حدث في المائة الثامنة أن يخص آل البيت بلباس أخضر يجعلونه على أكتافهم، أو بعمامة خضراء ليدل الناس على أن هذا من آل البيت، حتى يعطوه حقه الذي أوجبه الله ﷻ لهم.

هذه كلها أمور حادثة، فعُلم منه أن الصالحين والأولياء والمتقين ليس لهم لباس خاص، فمن منع بعض الأشياء؛ لأجل أنها ليست بلباس الأولياء، فهذا من جنس المحدثين في الدين؛ فإن اعتقد ذلك صار بدعة وقولًا على الله ﷻ بلا علم، وهذا له أصناف شتى قد يقع فيها الناس من حيث لا يشعرون، فيرون -مثلًا - أن بعض الألوان تناسب، وبعضها لا تناسب، وأن بعض الغتر تناسب وبعضها لا تناسب، وأشباه هذه.

وهذا لا أصل له، إذا كان من جهة الرأي، أما إذا كان من جهة ترك مشابهة الفساق، فإنه مطلوب، فإن الأولياء والصالحين لا يلبسون لباسًا يشابهون فيه لباس الفساق وإن كان مباحًا، ولا يعملون عملًا يشابهون فيه الفساق ولو كان مستحبًا، بل ربما تركوه لترك المشابهة.

وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ في التمهيد، حينما أتى لبيان حال النبي ﷺ في شعره، وأنه ﷺ كانت له جمة تضرب أنصاف أذنيه، وكان له غدائر، يعني: الشعر الطويل، ربما جعله غدائر، قال: وكان على هذا العلماء، حتى نشأ في فسقة الجند أنهم يتخذون الشعر للزينة عند أهل الفسق والمجون، فلما شاع ذلك فيهم ترك العلماء إكرام الشعر وتربيته، واختاروا قصه مخالفة لفسقة الجند، وهذا أصل معروف[1]. وقد شاع في الأزمنة المتأخرة أنه يكون من صفة أهل الفسق، أو من صفة أهل عدم الطاعة أن لهم كذا وكذا من الأحوال، فهذه وإن كانت مباحة فتترك إذا كانت مميزة لهم، فهذا يتميز به الصالحون، ولا حرج في ذلك.

أما أن يعتقد شيئًا من المباحات لازمًا لأهل الصلاح، أو يعتقد في بعض المباحات أنه لا يجوز لأهل الصلاح دون سبب شرعي من مشابهة، ونحو ذلك، فهذا لا يسوغ بل إن أولياء الله هم المؤمنون المتقون؛ كما وصفهم الله ﷻ بأنهم من جميع الفئات، فمنهم العابد، والعالم، والتاجر، والغازي في سبيل الله، وأشباه هؤلاء في أصناف الأمة؛ كما قال الله ﷻ في آخر سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المزمل: ٢٠] فذكر فيها أصناف الناس، وأن منهم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، وأن منهم من يقاتل في

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٦/ ٨٠ - ٨٢)، وأحاديث صفة شعره ﷺ أخرجها البخاري (٥٩٠٣)، ومسلم (٢٣٣٨).

سبيل الله، وهذا يعم أنواعًا كثيرة. أما لفظ الصوفية، ولفظ الفقراء، فهذان لفظان حدثا من جهة وسم المتعبدين والزهاد بهما. وذكر عدة أقوال في الصوفية وفي اشتقاقها، وذكر أن الصحيح منها أنها نسبة إلى الصوف، ولبس الصوف الخشن في الصيف والشتاء، يدل على بعد عن التلذذ بالدنيا ولذلك صار سمةً لهم أنهم لا يلبسون الرقيق من الثياب، ولاالقطن، ولا الكتان، وأشباه ذلك من الثياب الناعمة؛ لأن فيها نوع تلذذ ونوع إقبال على الدنيا.

وهذا لاشك في أصله خروج عن السنة؛ لأن النبي ﷺ كان يلبس من الثياب ما جرت عادة قومه بلبسه، ما لم يكن مما يخص المشركين في هيئتهم الظاهرة، أو يخص أهل الكتاب في هيئتهم الظاهرة، فلبس ﷺ الإزار والرداء، ولبس القميص والسراويلات، ولبس العمائم، ولبس الصوف والخز والكتان والقطن، ونحو ذلك، وهذا يدل على أن التزام لبس الخشن من الثياب لأهل الصلاح بدعة.

قال: **(واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف هذا هو الصحيح)**، وهذا أرجح الأقوال؛ كما ذكر[١].

ومن الأقوال أيضًا في نسبتهم التي لم يذكرها، أنهم منسوبون إلى كلمة يونانية، هي كلمة: (صوفيا) فهم صوفية نسبة إلى صوفيا، **وهؤلاء هم متنسكة اليونان الذين يطلبون الحكمة**[٢]. فالفلسفة أصلها كلمة: (فلا صوفيا)، وترجمتها بالعربية تكون بالسين وتكون بالصاد.

---

(١) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف (ص٢١)، وتلبيس إبليس (ص٢٠١).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٣٢٢).

وإذا عرفت تاريخ ظهور هؤلاء الصوفية في بلاد الإسلام، عرفت أنه جاء من جهة النصارى؛ فإن اتصال من لا علم عنده من المتزهدة بالنصارى، وانقطاع أولئك مع النصارى في معابدهم، ليست الكنائس التي في البلاد المعمورة إنما في الأديرة خارج المدن، نشأ هذا المذهب، أو هذه الطريقة الصوفية؛ كما هو ظاهر من كتاب **(الديارات)** للشابشتي[1]، وغيره مما هو معروف في تاريخ الصوفية، يعني: أنهم - أي الصوفية - أهل الإشراق، أو أهل الحكمة والإشراق الروحي، أو أهل الحكمة السلوكية. فهذا قول نصره أيضًا طائفة من العلماء.

---

(١) هو علي بن محمد أبو الحسين الكاتب الشابُشتي، وقيل اسمه محمد بن إسحاق وكنيته أبو عبد الله، كان أديبًا فاضلًا، كان له مصنَّفات منها: كتاب الديارات ذكر فيه كل دير بالعراق والشام ومصر، وكتاب اليسر بعد العسر وكتاب مراتب الفقهاء وكتاب التوقيف والتخويف. توفي بمصر سنة ٣٨٨هـ وقيل سنة ٣٩٠هـ.
انظر: معجم الأدباء (٥/ ٢٢٧)، ووفيات الأعيان (٣/ ٣١٩)، والوافي بالوفيات (٢٢/ ١٠٩).

وَلَفْظُ الْفَقْرِ فِي الشَّرْعِ يُرَادُ بِهِ الْفَقْرُ مِنْ الْمَالِ، وَيُرَادُ بِهِ فَقْرُ الْمَخْلُوقِ إلَى خَالِقِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة ٦٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ صِنْفَيْنِ مِنْ الْفُقَرَاءِ: أَهْلَ الصَّدَقَاتِ وَأَهْلَ الْفَيْءِ، فَقَالَ فِي الصِّنْفِ الْأَوَّلِ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] وَقَالَ فِي الصِّنْفِ الثَّانِي -وَهُمْ أَفْضَلُ الصِّنْفَيْنِ- ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَجَرُوا السَّيِّئَاتِ وَجَاهَدُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ»(١).

أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي يَرْوِيه بَعْضُهُمْ أَنَّهُ قَالَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: «رَجَعْنَا مِنْ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»، فَلَا أَصْلَ لَهُ، وَلَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِأَقْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالِهِ(٢).

---

(١) أخرجه أحمد بطوله من حديث فضالة بن عبيد (٦/ ٢٦)، وأخرج بعضه: البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، وأبو داود (٢٤٨١)، والترمذي (٢٥٠٤)، والنسائي (٨/ ١٠٥) وابن ماجه (٢٩٣٤).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٣/ ٤٩٨) عن جابر رضي الله عنه وذكره المزي =

وَجِهَادُ الْكُفَّارِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ، بَلْ هُوَ أَفْضَلُ مَا تَطَوَّعَ بِهِ الْإِنْسَانُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٩ - ٢٢].

وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْت عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي إلا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إلَّا أَنْ أَسْقِيَ الْحَاجَّ، وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إلَّا أَنْ أُعَمِّرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا ذَكَرْتُمَا، فَقَالَ عُمَرُ: لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ إذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ سَأَلْته، فَسَأَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1].

= في تهذيب الكمال (٢/ ١٤٤) موقوفًا على إبراهيم بن أبي عبلة. وقال العراقي في تخريج الإحياء: رواه البيهقي في الزهد من حديث جابر، وقال: هذا إسناد فيه ضعف. ا.هـ. انظر: المغني عن حمل الأسفار (٢٥٨٤)، وانظر كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٥١١). وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٢٤٦٠)، وقال منكر.

(١) أخرجه مسلم (١٨٧٩).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَزَدْته لَزَادَنِي[1].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إيمَانٌ بِاَللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ «حَجٌّ مَبْرُورٌ»[2].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلِ يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: «لَا تَسْتَطِيعُهُ» أَوْ «لَا تُطِيقُهُ»، قَالَ فَأَخْبِرْنِي بِهِ قَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ وَتَقُومَ وَلَا تَفْتُر»[3].

وَفِي السُّنَنِ عَنْ مُعَاذٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ وَصَّاهُ لَمَّا بَعَثَهُ إلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ! اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْت، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[4].

وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ ! إنِّي لَأُحِبُّك، فَلَا تَدَعُ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعَنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك»[5]، وَقَالَ لَهُ وَهُوَ رَدِيفُهُ: «يَا مُعَاذُ: أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟»

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣).
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨).
(٤) أخرجه الترمذي (١٩٨٧).
(٥) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٤٥).

قُلْت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» قُلْت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إلا يُعَذِّبَهُمْ»[(١)]. وَقَالَ أَيْضًا لِمُعَاذِ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ أَلَا أُخْبِرُك بِأَبْوَابِ الْبِرِّ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ - ١٧]، **ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ أَلَا أُخْبِرُك بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْت: بَلَى! فَقَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْك لِسَانَك هَذَا»، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْك أُمُّك يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ أَلَا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[(٢)].**

الشرح:

هذه الأحاديث التي ذكر الشيخ فيها بيان خصال أهل الإيمان والتقوى، وأن من أتى بهذه الخصال فهو أحب إلى الله ﷻ، ومعلوم أن من يسمون بالفقراء في البلاد التي تنتشر فيها الصوفية أو المتصوفة، أنهم يتركون الجهاد في سبيل الله، وينقطعون عن الأعمال، ويلزمون مجالسهم في مساجدهم،

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١).

أو يلزمون الذكر، أو يلتزمون البيوت، ولا يعملون من الأعمال الصالحة مما ذكر الله ﷻ في كتابه، أو بينه النبي ﷺ في سنته من حال أهل الإيمان والتقوى، فعلم منه أنهم يفوتهم شيء كثير من الطاعات، فمن أتى بهذه الطاعات فإنه أفضل منهم ولو كانوا منقطعين؛ فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما كان المرء أكثر طاعة لله كلما كان أقرب وأعظم وأكرم عند الله ﷻ.

لهذا ليس من صفة الأولياء الانقطاع عن مخالطة الناس، وليس من صفة الأولياء أنهم يلتزمون البحث عن النفس وعيوبها، ويتركون جهاد الأعداء بأصناف الجهاد، بل أولياء الله ﷻ هم الذين يمتثلون الأوامر حيث وجبت عليهم أو حيث توجهت، فإذا كان المقام مقام إصلاح للنفس أصلحوها، وإذا كان المقام مقام ترك للحرام تركوه، وإذا كان المقام مقام جهاد في سبيل الله جاهدوا، وإذا كان المقام مقام دعوة دعوا، وإذا كان المقام مقام أمر ونهي أمروا ونهوا، كل ذلك لتحصيل ما أمر الله ﷻ.

أما من يترك هذه الأشياء، ويلتزم الذكر الطويل والعبادة والصلاة الطويلة، ويترك واجبات شرعية كثيرة، هذا ليس بأفضل ممن يقوم بالواجبات حيث وجبت، فيقوم بكل ما أوجب الله ﷻ عليه حسب طاقته.

وَتَفْسِيرُ هَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(١).

فَالتَّكَلُّمُ بِالْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ السُّكُوتِ عَنْهُ، وَالصَّمْتُ عَنْ الشَّرِّ خَيْرٌ مِنْ التَّكَلُّم بِهِ، فَأَمَّا الصَّمْتُ الدَّائِمُ فَبِدْعَةٌ مَنْهِيٌّ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ الِامْتِنَاعُ عَنْ أَكْلِ الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَشُرْبِ الْمَاءِ، فَذَلِكَ مِنْ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ أَيْضًا، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا قَائِمًا فِي الشَّمْسِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» فَقَالُوا: أَبُو إسْرَائِيلَ، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ، وَلَا يَسْتَظِلَّ، وَلَا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مُرُوهُ فَلْيَجْلِسْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»(٢).

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رِجَالًا سَأَلُوا عَنْ عِبَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيُّنَا مِثْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَلَا أَنَامُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَا أَنَا فَلَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَالُ رِجَالٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا؟! وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَآكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(٣).

فقوله: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» أَيْ: سَلَكَ غَيْرَهَا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

ظَانًّا أَنَّ غَيْرَهَا خَيْرٌ مِنْهَا، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، بَلْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ: «أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ بِذَلِكَ كُلَّ يَوْمِ جُمْعَةٍ»(١).

الشـــرح:

هذا تتمه لما سبق في بيان أن أولياء الله ﷻ ليس لهم وصف غير الإيمان والتقوى والسعي في تكميل ما أوجب الله ﷻ عليهم، والابتعاد عما نهى بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وأن هؤلاء لهم صفات متعددة، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وأعلاهم منزلة عند الله ﷻ أمثلهم وأكثرهم امتثالًا لشرعه، ودينه، وسنة رسوله ﷺ، فليسوا باسم الفقر، أو الصوفي، أو العالِم، أو المحدث أو باسم المؤلف أو باسم كذا، يكونون أولياء.

وإنما يكونون أولياء بتقربهم إلى الله ﷻ بالطاعات الواجبة والمستحبة، وابتعادهم عما نهى الله ﷻ عنه، ونهى عنه رسوله ﷺ، هذه صفتهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).

فَصْلٌ

وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ وَلِيِّ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا لا يَغْلَطُ وَلا يُخْطِئُ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَخْفى عَلَيْهِ بَعْضُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهِ بَعْضُ أُمُورِ الدِّينِ، حَتَّى يَحْسب بَعْضَ الْأُمُورِ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَمِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَظُنَّ فِي بَعْضِ الْخَوارِقِ أَنَّهَا مِنْ كَرامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ لَبَّسَهَا عَلَيْهِ؛ لِنَقْصِ دَرَجَتِهِ، وَلا يَعْرِفُ أَنَّهَا مِنْ الشَّيْطَانِ، وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ تَجاوَزَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ(١)، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣)، وابن حبان (١٦/ ٢٠٢)، والطبراني في الكبير (١١٢٧٤)، والأوسط (٨/ ٢٦٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢١٦)، والدارقطني في سننه (٤/ ١٧٠)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ».

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اسْتَجَابَ هَذَا الدُّعَاءَ وَقَالَ: «قَدْ فَعَلْت»، فَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ)[(١)] عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْهَا قَبْلَ ذَلِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا»، قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ اللَّهُ: «قَدْ فَعَلْت»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ: «قَدْ فَعَلْت»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قَالَ: «قَدْ فَعَلْت».

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥].

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أبي هُرَيْرَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما مَرْفُوعًا أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[(٢)]، فَلَمْ يُؤَثِّمْ الْمُجْتَهِدَ الْمُخْطِئَ؛ بَلْ جَعَلَ لَهُ أَجْرًا عَلَى اجْتِهَادِهِ، وَجَعَلَ خَطَأَهُ مَغْفُورًا لَهُ، وَلَكِنَّ الْمُجْتَهِدَ الْمُصِيبَ لَهُ أَجْرَانِ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ وَلِيُّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

اللَّهِ يَجُوزُ أَنْ يَغْلَطَ لَمْ يَجِبْ عَلَى النَّاسِ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يَقُولُهُ مَنْ هُوَ وَلِيٌّ لِلَّهِ لِئَلَّا يَكُونَ نَبِيًّا؛ بَلْ وَلَا يَجُوزُ لِوَلِيِّ اللَّهِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مَا يُلْقَى إِلَيْهِ فِي قَلْبِهِ إلا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ، وَعَلَى مَا يَقَعُ لَهُ مِمَّا يَرَاهُ إِلْهَامًا وَمُحَادَثَةً وَخِطَابًا مِنْ الْحَقِّ؛ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِضَ ذَلِكَ جَمِيعَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَإِنْ وَافَقَهُ قَبْلَهُ، وَإِنْ خَالَفَهُ لَمْ يَقْبَلْهُ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ أَمُوَافِقٌ هُوَ أَمْ مُخَالِفٌ؟ تَوَقَّفَ فِيهِ.

الشـــرح:

هذا التفصيل أصل في مسألة الولاية، وهو أنه ليس من شرط ولي الله ﷻ أنه لا يُخطئ البتة، أو لا يغلط أبدًا، أو لا يكون عنده التباس في بعض المسائل المهمة في العقيدة أو في الشريعة، أو لا يكون عنده نقص في العمل في بعض الأشياء، وليس من شرط ولي الله ﷻ أن يكون كاملًا؛ إذ لو شُرط هذا لقيل إن الولي في مرتبة النبي لأن النبي هو الذي لا يغلط، وهو الذي لا ينقص عن الكمال في مسألة الطاعة، ولا يلتبس عليه شيء. أما أولياء الله ﷻ في هذه الأمة وفي غيرها من الأمم، فهم أكمل أقوامهم، وأكمل أتباع الأنبياء، وقد يحصل لهم غلط، والتباس، واشتباه، وبعض القصور في العمل، ولا ينفي ذلك أن يكونوا أولياء لله ﷻ، ولكن من كان أتم في العلم والعمل كان أكثر وأعظم؛ لأن الولاية تتبعض؛ كما ذكرنا فيما مضى.

ومن المهم في هذا الباب، أن الولي - كما ذكر شيخ الإسلام - قد يحصل له اشتباه فيما يحصل من أنواع الكرامات أو الخوارق فقد يأتيه

خارق ويحصل له اشتباه بأن يظنه كرامة، وهذا لا يقدح في أن يكون وليًا، ولو كان هذا الخارق شيطانيًا؛ لأن هذا راجع إلى العلم.

فالتفرقة بين العرض الشيطاني والعرض الرحماني، أو الكرامة الرحمانية والخارق الشيطاني، هذا يحتاج إلى العلم في التفريق فيما بين هذا وهذا. فإذا لم يُفرق كان ذلك بسبب قصور العلم، وقصور العلم لا ينفي أن يكون وليًا لله في مثل هذا؛ لأن الالتباس وقع على كثير من الصفوة في مثل هذه المسائل، فيقع لهم أشياء صارت من خوارق الشيطان، وقد يكون ضعيفًا عن العلم بها.

فالقاضي يكون وليًا لله ﷻ، وقد يخطئ في اجتهاده فيَقتل خطأ، لكنه حين اجتهد استفرغ وسعه، أو يُعطي مالًا لغير مستحقه في نفس الأمر، لكنه حين أعطى استفرغ وسعه في الاجتهاد، وبذل طاقته.

والله ﷻ رفع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان، وثبت كما نقل شيخ الإسلام في (**الصحيح**) أنه ﷺ قال: «**إذا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وإذا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[(١)]، وهو أجر الاجتهاد وبذل الوسع في معرفة حكم الشرع في هذه المسألة، فهذا لا يعني أن من رؤي عليه نقص في العلم والعمل مما لا يقوده على معصية فإنه لا ينبغي أن يكون وليًا لله ﷻ، وقد يكون عنده قصور في السنة في بعض المسائل، أو قصور في العلم في بعض المسائل ويكون عنده من الخير والعبادة، وتحقيق الإيمان والتقوى ما به يكون وليًا لله ﷻ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

والأولياء مراتب ودرجات وليسوا على مرتبة واحدة، إما أن تحصل وإما إلا تحصل، بل هم متفاوتون في ذلك؛ كما قال ﷻ: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٣].

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: طَرَفَانِ، وَوَسَطٌ:
فَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا اعْتَقَدَ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ وَافَقَهُ فِي كُلِّ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ حَدَّثَ بِهِ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَفْعَلُهُ.
وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا رَآهُ قَدْ قَالَ أَوْ فَعَلَ مَا لَيْسَ بِمُوَافِقٍ لِلشَّرْعِ أَخْرَجَهُ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا.
وَخِيَارُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا، وَهُوَ أَنْ لا يُجْعَلَ مَعْصُومًا وَلَا مَأْثُومًا إِذَا كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا، فَلَا يُتَّبَعُ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ، وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكُفْرِ وَالْفِسْقِ مَعَ اجْتِهَادِهِ.
وَالْوَاجِبُ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَأَمَّا إِذَا خَالَفَ قَوْلَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ وَوَافَقَ قَوْلَ آخَرِينَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يُلْزِمَهُ بِقَوْلِ الْمُخَالِفِ، وَيَقُولَ: هَذَا خَالَفَ الشَّرْعَ.

الشرح:

قوله: (وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكُفْرِ وَالْفِسْقِ مَعَ اجْتِهَادِهِ): المقصود فيما يسوغ فيه الاجتهاد، أما الاجتهاد في المسائل المجمع عليها، أو في العقيدة - عقيدة أهل السنة - أو ما أشبه ذلك، فهذه لا يسوغ فيها الاجتهاد، ومن خالف فيما ليس مجالًا للاجتهاد فهو ملوم ومؤثم.

أما المسائل التي يقبل فيها الاجتهاد، فهذه لا يُلام صاحبها، بل يُشكر ولا يُؤثم إذا أخطأ، فيُقال: أخطأ وأراد الخير، حيث اجتهد فيما يسوغ له فيه الاجتهاد[1].

---

(١) انظر: روضة الناظر لابن قدامة (ص٣٧٥)، وشرح الأصول من علم الأصول =

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ مِنْهُمْ»(١).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ لَمْ أُبْعَثْ فِيكُمْ لَبُعِثَ فِيكُمْ عُمَرُ»(٢). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ»(٣) وَفِيهِ: «لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرُ»(٤).

الشرح:

قوله: (مُحَدَّثُونَ) يعني: ملهمون، فيلقى الصواب في رُوع أحدهم، فيدركه ويأتيه مثل الشيء يغشاه فيدرك الصواب، وعبر عنه بلفظ المحدَّث؛ لأن صاحبه يشعر بأنه يُحَدَّث بهذا الصواب كأن أحدًا يكلمه في داخله، ويقول: كذا وكذا من الكلام في المسألة، مثل ما حصل لعمر رضي الله عنه، فقد

= للعلامة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (ص٦٢٦)، وشرح الورقات للدكتور سعد الشثري (ص١٨٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٩)، ومسلم (٢٣٩٨).

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٩٤)، ولم أجده بهذا اللفظ عند الترمذي، والذي في الترمذي سيذكره الشيخ وسيأتي تخريجه بعد حديث. وقال ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٢٠): لا يصح عن رسول الله ﷺ ففي سنده وضاع ومتروك. ا.هـ.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٩٦١ - ٢٩٦٢)، والترمذي (٣٦٨٣)، وصححه، وابن ماجه (١٠٨)، وأحمد (٥/ ١٤٥)، وابن أبي عاصم (١٢٤٨)، والطبراني في الكبير (١٠٧٧) بألفاظ متقاربة.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٨٦)، وقال: حسن غريب. وأحمد (٤/ ١٥٤)، والطبراني في الكبير (٨٢٢)، والحاكم (٣/ ٩٢).

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ»، وعمر رضي الله عنه حُدِّث بحال سارية، فتكلم به وقال: «يا ساريةُ الجبل، الجبل»[(١)] يعني: الزم الجبل، حُدِّث بحاله فأوصاه بهذا وكُشِف له حجاب البصر، فرأى ما يفعل سارية فأوصاه، فإذًا التحديث راجع على علم سمعي. فالكرامات منها ما يحصل من جهة العمل، ومنها ما يحصل من جهة السمع، ومنها ما يحصل من جهة البصر، ومنها ما يحصل من جهة القدرة فهي أربعة أقسام:

كرامات علمية، وكرامات سمعية، وكرامات بصرية، وكرامات قدرية.

فالعلمية: مثل ما ثبت عن أبي بكر رضي الله عنه أنه نظر إلى بطن امرأته فقال: «أُرَاهَا جَارِيَةً»[(٢)].

وذُكر عن جماعة من الصالحين وأهل العلم أنهم عندهم كشف علمي بما يُلهمهم الله ﷻ، فيعلمون ما في الرحم - يعني: بعد مدة - فيقولون: هذا فيه ذكر أو أنثى. ومعلوم أن هذا بعد استبانة المخلوق في البطن - مثل ما هو حاصل الآن من بعض الأجهزة الطبية أنهم يُصورون فيعلمون هل هو ذكر أو

---

(١) هو سارية بن زنيم بن عمرو الدؤلي، له صحبة، وكان أميرًا في بعض حروب الفرس، روى هذا الأثر اللالكائي في كرامات الأولياء (ص١٢٠)، والبيهقي في الاعتقاد (ص٣١٤)، وذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص١٦٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠/ ١٩، ٢٠)، وشيخ الإسلام في منهاج السنة النبوية (٨/ ١٩٧)، وصححه الحافظ ابن حجر في الإصابة (٣/ ٦).

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (١٤٣٨)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩/ ١٠١)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٦٩)، واللالكائي في كرامات الأنبياء (ص١١٦) من طريق عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها.

أنثى بالصورة، بدلائل وجود علامة الذكورة في فرج الجنين، وعلامة الأنوثة - كذلك ويدخل في الكرامات العلمية أيضًا قول عمر ﷺ: (يا سارية الجبل الجبل).

والسمعية: مثل سماع سارية لكلام عمر ﷺ، فهذه كرامة من جهة السمع.

ومن جهة البصر: يرى مالا يراه غيره، أو يحجب عنه ما يرى بالبصر، مثل: أن الشُرَط دخلوا على الحسن رحمه الله يريدونه، فبحثوا في البيت، فلم يجدوا أحدًا، فخرجوا، وهو بفناء الدار جالس يُسَبح أمامهم، فحجب عنهم أن يبصروه[1]، هذا من جهة الكرامات البصرية.

والكرامات القُدْرِيَّة: من جهة القدرة، أن يقدر على مالا يقدر عليه غيره، فيقدر على أن يمشي على الماء بإقدار الله ﷻ وإكرامه له[2]، ويقدر على أن يحي له الميت، مثل ما حصل للتابعي مع فرسه[3]، أو حصلت له من جهة القدرة أنه يرفع فلا يعرف له مكان[4]، أو يدخل النار

---

(١) يعني جند الحجاج لما دخلوا على الحسن البصري للقبض عليه، انظر: تاريخ دمشق (١٢/ ٤٨)، وتهذيب الكمال (٥/ ٣٩٠)، وجامع العلوم والحكم (١/ ١٨٩).

(٢) مثل ما حصل لجند سعد في العراق فقد عبروا دجلة بلا جسور يمشون على الماء انظر: كرامات الأولياء لللاكائي (ص١٥٢).

(٣) من ذلك ما حصل لصلة بن أشيم مع فرسه، سيأتي ذكره - إن شاء الله - في كلام شيخ الإسلام على أنواع الكرامات (ص٢٧٢).

(٤) أخرج الطبراني في الأوسط (٤/ ١٥) عن أبي هريرة ﷺ قال: «لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ **الْعَلاءَ بْن الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْبَحْرَيْنِ تَبِعْتُهُ، فَرَأَيْتُ مِنْهُ ثَلاثَ خِصَالٍ لَا أَدْرِي أَيَّتُهُنَّ أَعْجَبُ، انْتَهَيْنَا إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَقَالُوا: سَمُّوا وَاقْتَحِمُوا فَسَمَّيْنَا وَاقْتَحَمْنَا، فَعَبَرْنَا فَمَا بَلَّ الْمَاءُ إِلَّا أَسَافِلَ أَخْفَافِ إِبِلِنَا، فَلَمَّا قَفَلْنَا صِرْنَا بَعْدُ بِفَلاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَلَيْسَ مَعَنَا** =

فلا يضره ذلك[١]، وأشباه هذا[٢].

إذًا هي أقسام، يمكن أن ترجع أنواع الكرامة إلى واحد منها، وكل قسم من هذه الأقسام منقسم إلى قسمين: لازمٍ، ومتعدٍ، وحصول اللازم والمتعدي لمن حصلت له لا يدل على قوةٍ إيمانه، ولا قوة إيمان من حصلت لهم أو فيهم؛ لأنه قد يكون محتاجًا إلى ذلك، فيثبت بالكرامة، وقد يكون الناس في حاجة فيُثَبتون بالكرامة إذا حصلت لبعضهم.

= مَاءٌ، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ دَعَا، فَإِذَا سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ ثُمَّ أَرْخَتْ عَزَالِيَهَا فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا، وَمَاتَ بَعْدَ ما بَعَثَهُ أبو بَكْرٍ إلى الْبَحْرَيْنِ لَمَّا ارْتَدَّتْ رَبِيعَةُ، فَأَظْفَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ وَأَعْطُوا ما مَنَعُوا مِنَ الزَّكَاةِ، وَمَاتَ فَدَفَنَّاهُ في الرَّمْلِ، فَلَمَّا سِرْنَا غير بَعِيدٍ، قُلْنَا: يَجِيءُ سَبْعٌ فَيَأْكُلُهُ، فَرَجَعْنَا فَلَمْ نَرَهُ».

(١) من ذلك ما حدث لأبي مسلم الخولاني حيث وضعه الأسود العنسي - مدعي النبوة - في النار فلم تضره؛ كما ذكر ذلك ابن حبان في صحيحه (٥٧٧)، وانظر الحلية (٢/ ١٢٢)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٧).

(٢) مثل ما حدث لخباب ﷺ، حيث كان يأتيه العنب وهو موثق في قيده؛ كما عند البخاري (٣٠٤٥)؛ وكذلك ما حصل لأسيد بن حضير ﷺ، وعباد بن بشر ﷺ، كانا عند رسول الله ﷺ في ليلة ظلماء، فلما خرجا أضاءت عصا أحدهما فجعلا يمشيان بضوئها، فلما تفرقا أضاءت عصا الآخر. رواه أحمد (٣/ ١٩٠).

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ ﵁ يَقُولُ: «مَا كُنَّا نُبْعِدُ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»[١]، ثَبَتَ هَذَا عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ الشَّعْبِيِّ.

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ ﵄: «مَا كَانَ عُمَرُ يَقُولُ فِي شَيْءٍ: إِنِّي لَأَرَاهُ كَذَا إِلَّا كَانَ كَمَا يَقُولُ»[٢].

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ طَارِقٍ قَالَ: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ عُمَرَ يَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِ مَلَكٌ»[٣].

وَكَانَ عُمَرُ ﵁ يَقُولُ: «اقْتَرِبُوا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُطِيعِينَ، وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ، فَإِنَّهُ تَتَجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ»[٤].

وَهَذِهِ الْأُمُورُ الصَّادِقَةُ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﵁ عنه أَنَّهَا تَتَجَلَّى لِلْمُطِيعِينَ هِيَ الْأُمُورُ الَّتِي يَكْشِفُهَا اللَّهُ ﷻ لَهُمْ. فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ مُخَاطَبَاتٍ وَمُكَاشَفَاتٍ.

الشرح:

قوله (السَّكِينَةَ) اسم لما يسكن إليه من الأقوال، والاعتقادات، والأعمال

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٠٦)، وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢٢٢)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٩)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٦٨٢).

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٤٢)، والطبراني في الكبير (٨/ ٣٨٤).

(٤) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة (٧/ ٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥١) قال: قال عمر ﵁ «جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ شَيْءٍ أَفْئِدَةً».

ويسكن إليه لأنه الحق؛ كما قال ﷻ في الاعتقادات في آية سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، فقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ دل على أن السكينة حصل بها لهم زيادة إيمان، فهي نوع اعتقاد نتج عنه الطمأنينة والراحة، كذلك ما يسكن إليه من الحق في الأقوال يُقال له: سكينة، وما يسكن إليه من الأعمال للحق يقال له: سكينة، مثل التابوت مثلًا، قال ﷻ: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وهنا قال: «**مَا كُنَّا نُبْعِدُ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ**»، فالسكينة تنطق هذه سكينة قولية. ومن هذه الموافقات أن عمر وافق حكمُه حكمَ الرب ﷻ في مواضع[1].

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري (٤٠٢)، ومسلم (٢٣٩٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال عمر رضي الله عنه: «**وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، وَفِي الْحِجَابِ، وَفِي أُسَارَى بَدْرٍ**»، وهذا لفظ مسلم. قال ابن حجر في الفتح (١/ ٥٠٥): وليس في تخصيصه العدد بالثلاث ما ينفي الزيادة عليها؛ لأنه حصلت له الموافقة في أشياء غير هذه من مشهورها قصة أسارى بدر، وقصة الصلاة على المنافقين وهما في الصحيح، [البخاري (١٢٦٩)، ومسلم (٢٤٠٠)] وصحح الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «**مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ أَوْ قَالَ ابْنُ الْخَطَّابِ فِيهِ شَكٌّ خَارِجَةُ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ**»، وهذا دال على كثرة موافقته.

وقد وافق عمر رضي الله عنه ربه في مواضع منها: قوله لأزواج النبي ﷺ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ . . . ، فنزلت الآية كما قال، انظر: البخاري (٤٩١٦)، ومسلم (١٤٧٩).

ومنها موافقته في آية المؤمنين كما روى أبو داود الطيالسي في مسنده برقم (٤١): وافقت ربي لما نزلت ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فقلت أنا: تبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت. ومنها موافقته في تحريم الخمر، كما عند النسائي (٨/ ٢٨٦)، ومنها موافقته في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ الآية، «**إِنَّ يَهُودِيًّا لَقِيَ عُمَرَ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ جِبْرِيلَ الَّذِي يَذْكُرُهُ صَاحِبُكَ هُوَ عَدُوٌّ لَنَا. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ** =

قوله: (مُخَاطَبَاتٍ): ليست المخاطبات التي يخاطب بها الرب عباده، أو تخاطب بها الملائكة العباد؛ فإن هذا للأنبياء، وإنما يُقصد بالمخاطبات الإلهام القولي الذي يحس به الولي المُحَدَّثُ في نفسه، فيحس أنه يُخاطب بشيء، وأن كلامًا يقال له في أذنه أو في قلبه، وهذا نوع من الإلهام له قد يكون بواسطة الملك الذي يلازمه، وقد يكون بواسطة ملكًا آخر، أو غير ذلك، المهم أنه ليس وحيًا إليه ولا مكاشفة قولية من الرب ﷻ كما يزعم الصوفية.

= وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ. قَالَ: فَنَزَلَتْ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»، كما ذكره الطبري في تفسيره (١/ ٤٤٧).

فَأَفْضَلُ هَؤُلَاءِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ[١].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ تَعْيِينُ عُمَرَ بِأَنَّهُ مُحَدَّثٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ[٢]، فَأَيُّ مُحَدَّثٍ وَمُخَاطَبٍ فُرِضَ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَعُمَرُ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَمَعَ هَذَا فَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه يَفْعَلُ مَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ، فَيَعْرِضُ مَا يَقَعُ لَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَتَارَةً يُوَافِقُهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ فَضَائِلِ عُمَرَ كَمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ[٣]، وَتَارَةً يُخَالِفُهُ فَيَرْجِعُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا رَجَعَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ لَمَّا كَانَ قَدْ رَأَى مُحَارَبَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَالْحَدِيثُ مَعْرُوفٌ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ[٤]؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ اعْتَمَرَ سَنَةَ سِتٍّ مِنْ الْهِجْرَةِ وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ نَحْوُ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَهُمْ الَّذِينَ بَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَكَانَ قَدْ صَالَحَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ مُرَاجَعَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وَيَعْتَمِرَ مِنْ الْعَامِ الْقَابِلِ، وَشَرَطَ لَهُمْ شُرُوطًا فِيهَا نَوْعُ غَضَاضَةٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الظَّاهِرِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ

---

(١) كما أخرج البخاري (٣٦٥٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنهم».
وأخرج البخاري (٣٦٧١)، وأبو داود (٤٦٢٩) «عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الحَنَفِيَّةِ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: أبو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ».

(٢) سبق الحديث وتخريجه (ص١٦٤).

(٣) انظر: الهامش (ص١٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥).

الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم وَأَحْكَمَ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْمَصْلَحَةِ، وَكَانَ عُمَرُ فِيمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ، حَتَّى قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: أَفَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَهُوَ نَاصِرِي، وَلَسْت أَعْصِيه». ثُمَّ قَالَ: أَفَلَمْ تَكُنْ تُحَدِّثُنَا أَنَّا نَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: «أَقُلْت لَكَ أَنَّك تَأْتِيهِ الْعَامَ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «إِنَّك آتِيهِ وَمَطُوفٌ بِهِ».

فَذَهَبَ عُمَرُ إِلَى أبي بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ مِثْلَ جَوَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ يَسْمَعُ جَوَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه أَكْمَلَ مُوَافَقَةً لِلَّهِ وَلِلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ عُمَرَ، وَعُمَرُ رضي الله عنه رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ: فَعَمِلْت لِذَلِكَ أَعْمَالًا[1].

وَكَذَلِكَ لَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْكَرَ عُمَرُ مَوْتَهُ أَوَّلًا، فَلَمَّا قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّهُ مَاتَ، رَجَعَ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ[2].

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٢٧٣١- ٢٧٣٢) في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٧) عن عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النبي ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَاتَ وأبو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ قال إِسْمَاعِيلُ -شيخ البخاري- يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ فَقَامَ عُمَرُ يقول: واللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أبو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رِسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَبَّلَهُ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، =

وَكَذَلِكَ فِي قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: «كَيْفَ نُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا»؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «أَلَمْ يَقُلْ: إِلَّا بِحَقِّهَا؟ فَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهَا». قَالَ عُمَرُ: «فَوَاَللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْت اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أبي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَلِمْت أَنَّهُ الْحَقُّ»[1].

وَلِهَذَا نَظَائِرُ تُبَيِّنُ تَقَدُّمَ أبي بَكْرٍ عَلَى عُمَرَ مَعَ أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه مُحَدَّثٌ، فَإِنَّ مَرْتَبَةَ الصِّدِّيقِ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْمُحَدَّثِ؛ لِأَنَّ الصِّدِّيقَ يَتَلَقَّى عَنْ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ كُلَّ مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ، وَالْمُحَدَّثُ يَأْخُذُ عَنْ قَلْبِهِ أَشْيَاءَ، وَقَلْبُهُ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِضَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُشَاوِرُ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم وَيُنَاظِرُهُمْ وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ[2]، وَيُنَازِعُونَهُ فِي أَشْيَاءَ، فَيَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ

= ثُمَّ خَرَجَ. فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أبو بَكْرٍ، جَلَسَ عُمَرُ فَحَمِدَ اللَّهَ أبو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ...» الحديث.

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩) ومسلم (٢٠)، وفيه: «لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا»، بدل: «عَنَاقًا».

(٢) من ذلك ما رواه البخاري (٣٤٧)، ومسلم (٣٦٨) عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عبد اللهِ، وَأَبِي مُوسَى، فَقَالَ أبو مُوسَى: يَا أَبَا عبد الرَّحْمَنِ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَجْنَبَ فَلَمْ يَجِدِ الْمَاءَ شَهْرًا كَيْفَ يَصْنَعُ بِالصَّلَاةِ؟ فَقَالَ عبد اللهِ: لَا يَتَيَمَّمُ وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ شَهْرًا. فَقَالَ أبو مُوسَى: فَكَيْفَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾؟. فَقَالَ عبد اللهِ: لَوْ رُخِّصَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَأَوْشَكَ إِذَا بَرَدَ عَلَيْهِمُ =

وَيَحْتَجُّونَ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيُقَرِّرُهُمْ عَلَى مُنَازَعَتِهِ وَلا يَقُولُ لَهُمْ: أَنَا مُحَدَّثٌ مُلْهَمٌ مُخَاطَبٌ فَيَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَقْبَلُوا مِنِّي وَلا تُعَارِضُونِي.

فَأَيُّ أَحَدٍ ادَّعَى، أَوْ ادَّعَى لَهُ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ مُخَاطَبٌ يَجِبُ عَلَى أَتْبَاعِهِ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ كُلَّ مَا يَقُولُهُ، وَلا يُعَارِضُوهُ، وَيُسَلِّمُوا لَهُ حَالَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَهُوَ وَهُمْ مُخْطِئُونَ، وَمِثْلُ هَذَا مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ، فَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَفْضَلُ مِنْهُ وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُنَازِعُونَهُ فِيمَا يَقُولُهُ، وَهُوَ وَهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إلا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ[1]، وَهَذَا مِنْ الْفُرُوقِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ

= الْمَاءُ أَنْ يَتَيَمَّمُوا بِالصَّعِيدِ، فَقَالَ أبو مُوسَى، لِعَبْدِ اللهِ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ فَأَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدِ الْمَاءَ، فَتَمَرَّغْتُ فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْكَ هَكَذَا، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدَيْهِ الْأَرْضَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ مَسَحَ الشِّمَالَ عَلَى الْيَمِينِ، وَظَاهِرَ كَفَّيْهِ، وَوَجْهَهُ فَقَالَ: عبد اللهِ أَوَلَمْ تَرَ عُمَرَ لَمْ يَقْنَعْ بِقَوْلِ عَمَّارٍ؟».

وزاد يَعْلَى عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ شَقِيقٍ «كُنْتُ مَعَ عبد اللَّهِ وَأَبِي مُوسَى فَقَالَ أبو مُوسَى: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ لِعُمَرَ: أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنِي أنا وَأَنْتَ فَأَجْنَبْتُ فَتَمَعَّكْتُ بِالصَّعِيدِ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا وَمَسَحَ وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ وَاحِدَةً». وفي أحد روايات مسلم أن عمر قال لعمار رضي الله عنهما: «اتَّقِ اللَّهَ يَا عَمَّارُ قَالَ إِنْ شِئْتَ لَمْ أُحَدِّثْ بِهِ، فَقَالَ: عُمَرُ نُوَلِّيكَ مَا تَوَلَّيْتَ».

(١) من ذلك ما رواه أحمد (١/ ٣٣٧) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «تَمَتَّعَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: نَهَى أبو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا يَقُولُ عُرَيَّةُ؟ =

. . . .

= قَالَ: يَقُولُ: نَهَى أبو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَيَقُولُ: نَهَى أبو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

وأخرج ابن عبد البر في التمهيد (٨/ ٢٠٨) عن مَعْمَرٍ عَنْ أَيُّوبَ قَالَ: «قَالَ عُرْوَةُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ تُرَخِّصُ فِي الْمُتْعَةِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَلْ أُمَّكَ يَا عُرَيَّةُ، فَقَالَ عُرْوَةُ: أَمَّا أبو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَلَمْ يَفْعَلَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَاللَّهِ مَا أَرَاكُمْ مُنْتَهِينَ حَتَّى يُعَذِّبَكُمُ اللَّهُ نُحَدِّثُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتُحَدِّثُونَا عَنْ أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ». وقول ابن عباس ﭬ لعروة بن الزبير ﭬ: «سَلْ أُمَّكَ»؛ لأنها شهدت حجة الوداع مع رسول الله ﷺ وتمتعت.

وأخرج الترمذي (٨٢٤) عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّ سَالِمَ بْنَ عبد اللَّهِ، حَدَّثَهُ، «أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَهُوَ يَسْأَلُ عبد اللَّهِ بْنَ عُمَرَ عَنِ التَّمَتُّعِ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ؟ فَقَالَ عبد اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: هِيَ حَلَالٌ، فَقَالَ الشَّامِيُّ: إِنَّ أَبَاكَ قَدْ نَهَى عَنْهَا، فَقَالَ عبد اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ أَبِي نَهَى عَنْهَا وَصَنَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَأَمْرَ أَبِي نَتَّبِعُ؟ أَمْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟، فَقَالَ الرَّجُلُ: بَلْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: لَقَدْ صَنَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

وأخرج البخاري(٩٠٠) عن ابن عمر ﭬ قال: «كَانَتْ امْرَأَةٌ لِعُمَرَ تَشْهَدُ صَلَاةَ الصُّبْحِ وَالْعِشَاءِ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقِيلَ لها: لِمَ تَخْرُجِينَ وَقَدْ تَعْلَمِينَ أَنَّ عُمَرَ يَكْرَهُ ذَلِكَ وَيَغَارُ، قَالَتْ: وَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْهَانِي؟ قَالَ: يَمْنَعُهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ».

وأخرج مسلم (٤٤٢) عن ابن عمر ﭬ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَّكُمْ إِلَيْهَا. قَالَ: فَقَالَ: بِلَالُ بَن عبد اللَّهِ وَاللَّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ عبد اللَّهِ فَسَبَّهُ سَبًّا سَيِّئًا مَا سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مثله قَطُّ، وَقَالَ: أُخْبِرُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُ: وَاللَّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ».

وعمر ﭫ لما أراد منع أبي بكر ﭫ من قتال مانعي الزكاة، ولم يقبل قوله، فاستدل أبو بكر بقوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ. . . . » الحديث، فانشرح صدر عمر ﭫ لما أمر به أبو بكر ﭫ من قتال مانعي الزكاة.

وقد ورد في تعظيم الأئمة للسنن مثل ذلك، قال الترمذي في تعليقه على الحديث =

. . . .

= رقم (٩٠٦) في إشعار الهدي بعد كلام: (قال أبو السائب كنا عند وكيع، فقال رجل قدري: وعن إبراهيم النخعي أن الإشعار مُثْلة، قال: فرأيت وكيعًا غضب غضبًا شديدًا وقال: أقول لك قال رسول الله ﷺ وتقول: قال إبراهيم، ما أحقك بأن تحبس ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا).

وأما الأئمة الأربعة فإن كلًا منهم صرح بأنه لا يقدم قوله على قول رسول الله ﷺ، فقد قال ابن القيم في إعلام الموقعين (٢/ ٢٠٠)، وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة، فقال الشافعي: «مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري ذكره البيهقي».

وقال إسماعيل بن يحيى المزني في أول مختصره: (اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى قوله: لأقربه على من أراده مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه).

وقال أبو داود: (قلت لأحمد: الأوزاعي هو أتبع من مالك، قال: لا تقلد دينك أحدًا من هؤلاء ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به، ثم التابعي بعد الرجل فيه مخير. وقد فرق أحمد بين التقليد والاتباع فقال أبو داود سمعته يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه ثم هو من بعد في التابعين مخير. وقال أيضًا: لا تقلدني ولا تقلد مالكًا ولا الثوري ولا الأوزاعي وخذ من حيث أخذوا. وقال: من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال).

وقال أبو يوسف: (لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا).

وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي أنه يستتاب فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله. ا.هـ.

وقال ابن القيم أيضًا في إعلام الموقعين (٤/ ١٢٣) «قال نعيم بن حماد: حدثنا عبدالله ابن المبارك قال: سمعت أبا حنيفة يقول: إذا جاء عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أصحاب رسول الله ﷺ نختار من قولهم، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم» ا.هـ.

فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ يَجِبُ لَهُمُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ اللَّهِ ﷻ، وَتَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ؛ بِخِلَافِ الْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ لا تَجِب طَاعَتُهُمْ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ وَلَا الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ؛ بَلْ يُعْرَضُ أَمْرُهُمْ وَخَبَرُهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَا وَافَقَ الْكِتَاب وَالسُّنَّةَ وَجَبَ قَبُولُهُ، وَمَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مَرْدُودًا وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَكَانَ مُجْتَهِدًا مَعْذُورًا فِيمَا قَالَهُ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اجْتِهَادِهِ. لَكِنَّهُ إذَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مُخْطِئًا وَكَانَ مِنْ الْخَطَإِ الْمَغْفُورِ إذَا كَانَ صَاحِبُهُ قَدْ اتَّقَى اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وَهَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ: حَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ[1]. أَيْ: بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لا يُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ الْإِيمَانَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٦٥).

وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، **وَقَالَ تعالى:** ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

هَذَا الَّذِي ذَكَرْته مِنْ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ الِاعْتِصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ مَعْصُومٌ يَسُوغُ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ اتِّبَاعُ مَا يَقَعُ فِي قَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ هُوَ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ﷻ، مَنْ خَالَفَ فِي هَذَا فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِاتِّبَاعِهِمْ، بَلْ إمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُفْرِطًا فِي الْجَهْلِ.

وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْمَشَايِخِ، كَقَوْلِ الشَّيْخِ أبي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ[١]: إنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي النُّكْتَةُ مِنْ نُكَتِ الْقَوْمِ، فَلَا أَقْبَلُهَا

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد الداراني، نسبة إلى داريا، قرية من دمشق، كان من الزهاد المشهورين، توفي سنة ٢١٥ هـ.
انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٢)، والحلية (٩/ ٢٥٤).

إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ: الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ[١].

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْجُنَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: عِلْمُنَا هَذَا مُقَيَّدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ الْقُرْآنَ وَيَكْتُبْ الْحَدِيثَ لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي عِلْمِنَا، أَوْ قَالَ: لَا يُقْتَدَى بِهِ.

وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ[٣]: مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَّرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ [فِي كَلَامِهِ الْقَدِيمِ][٤]: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤].

الشـــرح:

قوله: (النُّكْتَةُ مِنْ نُكَتِ الْقَوْمِ) يعني: يأتي في خاطره وفي قلبه شيء مما يتصل بالإيمان، والأحوال، والتزكية، ورؤية الأشياء، والتفكر، وأشباه

---

(١) ذكر هذا القول: ابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٢٢٩)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٣).

(٢) سبقت ترجمته (ص١٧٣)، وهذا القول ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٧).

(٣) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري النيسابوري أصله من الري، شيخ الصوفية بنيسابور، توفي سنة ٢٩٨ هـ. انظر: ترجمته وأقواله في طبقات الصوفية (ص١٧٠)، وصفة الصفوة (٤/ ٨٥)، وتاريخ بغداد (٩/ ٩٩)، والرسالة القشيرية (١/ ١٠٩).

(٤) هذه العبارة لم أجدها في المراجع التي ذكرت قول أبي عثمان هذا، وقد أورد شيخ الإسلام هذا القول بدونها أيضًا في منهاج السنة (٥/ ٣٣١)، ومجموع الفتاوى (١١/ ٥٨٦)، والاستقامة (١/ ٢٥٠).

ذلك، فيقع في الخاطر أشياء، قال: (**فَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ: الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ**)؛ لأنه قد يكون هذا الخاطر الذي جاءه ليس بحق، قد يكون هذا التأمل الذي جاءه باطل، قد يكون هذا الاستنتاج الذي استنتجه باطل، فإذا شهد له الكتاب والسنة، وهما القاضيان، والشاهدان، والمعدلان، والمزكيان للأفكار والآراء؛ فإنه يُقبل، وإذا لم يشهد له؛ فإنه باطل.

قوله: (**فِي كَلَامِهِ الْقَدِيمِ**): غلط؛ لأن القرآن محدث ليس بقديم؛ كما قال الله ﷻ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]، وكذلك قوله ﷻ في آية سورة الشعراء: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ [الشعراء: ٥]، فالقرآن محدث، بمعنى: حديث النزول من ربه ﷻ، حديث العهد بربه ﷻ، تكلم الله به فسمعه جبريل عليه السلام فبلغه للنبي ﷺ. وأما الذي يُقال: بأنه قديم، هو كلام الله وليس القرآن، وكلام الرحمن ﷻ قديم النوع، حادث الآحاد، ويجوز أن تقول: كلام الله قديم، يعني قديم النوع، لا بأس بهذا؛ لأن الله ﷻأول ليس قبله شيء، وكذلك صفاته ﷻ أزلية، يعني: الصفات الذاتية أولية قديمة، فهو ﷻ يتكلم كيف يشاء إذا شاء، وكلامه قديم، ولا يزال يتجدد كلامه بتجدد الأحوال متعلقًا بمشيئته ﷻ وقدرته.

فالقرآن لا يسوغ وصفه بأنه قديم، بل هذا مذهب الأشاعرة؛ فإنهم يجعلون القرآن قديمًا تكلم الله به وفرغ في الأزل؛ كسائر كلام أراده الله، ثم يتعلق هذا الكلام بالإرادة، وبالزمن الذي يصلح له، فيتجدد، فليس عندهم أن القرآن كلام الله ﷻ الذي تكلم به حين أنزل القرآن؛ **ولهذا اعترض عليهم الآمدي**[1] - وهو أشعري ومن كبارهم ومن علماء الكلام -

(١) هو علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي سيف الدين الآمدي شيخ المتكلمين =

في هذه المسألة في كتابه (**أبكار الأفكار**) وفي كتابه (**غاية المراد**)، وفي غيرهما بأن قول الأشاعرة باطل بل إما أن يكون الحق - يعني من جهة التقسيم - هو قول أهل السنة، وإما أن يكون قول المعتزلة الذي هو أن القرآن مخلوق، ثم استدل على بطلان قول المعتزلة فبقى الحق، وهو قول أهل السنة. قال: قد تأملت قول من يقول القرآن قديم، فإذا في القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وفي القرآن: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وفي القرآن: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾، ونحو ذلك مما فيه ذكر صيغة الماضي؛ فإن كان هذا الكلام قديمًا، كان قوله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ لشيء لم يصدر، وهذا لا يجوز؛ لأنه نوع من الكذب، وهذا يدل على بطلان هذا القول... إلى آخر كلامه.

المقصود أن قوله: (**في كلامه القديم**) هذا غلط موافق لطريقة الأشاعرة[(١)]

= في زمانه ولد بآمد بعد الخمسين وخمسمائة بيسير ورحل إلى بغداد، تفنن في علم النظر والكلام والحكمة وصنف في ذلك كتبًا، وصنف كتاب الأبكار في أصول الدين والإحكام في أصول الفقه والمنتهى ومنائح القرائح وشرح جدل الشريف وله طريقة في الخلاف وتعليقات حسنة وتصانيفه فوق العشرين تصنيفًا كلها منقحة حسنة.
انظر: ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٣٠٧)، وطبقات الشافعية (٢/ ٧٩)، والنجوم الزاهرة (٦/ ٢٨٦)، وأبجد العلوم (٣/ ١١٨).

(١) انظر: في هذا المبحث شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٦٨- ١٧٩)، وشرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى (١/ ٢٧٩)، ولشيخنا - حفظه الله - تفصيل ممتع في هذه المسألة. انظر: شرحه للطحاوية (١/ ٢١٨-٢٧٠)، واللآلئ البهية في شرح الواسطية (١/ ٥٥١ - ٥٧١).

وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنِ نُجَيْدٍ[1]: كُلُّ وَجْدٍ لا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ. وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَغْلَطُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَيَظُنُّ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، وَيَظُنُّ أَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ يَقْبَلُ مِنْهُ كُلَّ مَا يَقُولُهُ، وَيُسَلِّمُ إلَيْهِ كُلَّ مَا يَقُولُهُ، وَيُسَلِّمُ إلَيْهِ كُلَّ مَا يَفْعَلُهُ وَإِنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، فَيُوَافِقُ ذَلِكَ الشَّخْصُ لَهُ، وَيُخَالِفُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ تَصْدِيقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَطَاعَتَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَجَعَلَهُ الْفَارِقَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَبَيْنَ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ، فَمَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَجُنْدِهِ الْمُفْلِحِينَ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَمَنْ لَمْ يَتْبَعْهُ كَانَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْخَاسِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، فَتَجُرُّهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ وَمُوَافَقَةُ ذَلِكَ الشَّخْصِ أَوَّلًا إلَى الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالِ، وَآخِرًا إلَى الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَيَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠

---

(١) هو إسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف السلمي، جد أبو عبد الرحمن السلمي لأمه، لقي الجنيد وكان أكبر مشايخ عصره، توفي سنة ٣٦٦هـ.
انظر: ترجمته في طبقات الصوفية (ص٤٥٤)، والأنساب (٣/ ٢٧٩)، والبدية والنهاية (١١/ ٢٨٨)، وسير أعلام النبلاء (١٦/ ١٤٦)، وطبقات الشافعية (٣/ ٢٢٢)، وشذرات الذهب (٣/ ٥٠).

﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب ٦٦-٦٨].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

الشـــرح:

هذا الكلام الذي سبق كله تفريع على ما ذكر في أول الفصل من أن أولياء الله ﷻ ليس من شرطهم أن يكونوا معصومين من الغلط؛ بل قد يكون المرء يغلط في العمل، وقد يكون عنده بعض غفلة أو بعض عصيان، فقد يغلط في بعض ما يجتهد فيه، سواء في أمور العمليات، أو العلميات، فكل هذا يقع، وهم على نوعين:

النوع الأول: منهم من يغلط بعد استفراغ الوسع والطاقة في الاجتهاد، فهذا معذور، وله أجر على اجتهاده؛ لأنه نظر واجتهد وأفرغ الوسع والطاقة والله ﷻ يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

النوع الثاني: ومنهم من لا يفرغ الوسع والطاقة ولا يجتهد عن بذل لتحري الحق وبذل لطاقته في تحصيل الحق، وإنما يثق بأول خاطر أو إذا ظهر له شيء نطق به، وتكلم وذكر ذلك عن نفسه أو حث الناس إليه دون

الاجتهاد والرجوع إلى النصوص، فهذا مذموم، وإن كان يسمي نفسه مجتهدًا، فهو مذموم.

فأولياء الله ﷻ لا يشترط فيهم عدم الغلط؛ بل يكون وليًا وإن كان عنده نوع معصية، أو غفلة لا يقيم عليها، أو عنده نوع اجتهاد يغلط فيه ويبقى على غلطه؛ لعدم ظهور الحجة له، أو لتأوله، أو لاجتهاده، وهذا بخلاف حال الأنبياء؛ فإن الأنبياء هم الذين لا يتكلمون إلا بحق، ولا يوافقون أو يقرون على اجتهاد باطل، وهذا من الفروق بين الأنبياء وبين الأولياء، وهذا يبين ضلال من قال: إن الأولياء أرفع مرتبة من الأنبياء.

مثل ما قاله الضال الزنديق حيث يقول: (**إن النبي ﷺ طاف ببناء الأنبياء فوجد لبنة في زاوية منه لم تكمل، فقال: «فأنا تلك اللبنة»** فيرى الولي أو خاتم الأولياء نفسه في مقام لبنتين في البناء، لبنة ظاهرة من ذهب، ولبنة باطنة من فضة، أو العكس، فَيَستَقي بها من المعدن الذي استقى منه الملك)[١]، يعني: يأخذ عن الله ﷻ مباشرة أو من جبريل، وهذا رفع لمقام الأولياء على مقام الأنبياء، وهو من أنواع الزندقة فمن فضل وليًا على نبي؛ فإنه كافر بالله ﷻ؛ لأن الأنبياء هم أفضل خلق الله، والأولياء تبع لهم؛ بل ما ارتفع الأولياء إلا لكونهم أتباعًا للأنبياء. فدليل ولاية الولي أنه تابع للنبي، فكيف يكون أفضل منه؟! أو يأمر بشيء لم يجئ في الكتاب والسنة؟!، أو ينهى عن شيء قد جاء الأمر به في الكتاب والسنة؟! وأشباه ذلك.

إن هذا ليس من صنيع أولياء الله، ومثل هذا الكلام، ربما نحن هنا ما نعرف أبعاده، لكن في البلاد التي يكثر فيها الصوفية وغلاة الصوفية يرون

(١) قائل هذا الكلام هو ابن عربي انظر: (ص٤٥).

من هذا شيئًا عجيبًا، حتى إن الشعراني[١] يقول: ومنهم - يعني من الأولياء - سيدي فلان الفلاني كان ﷺ يتلو آيات ليست في القرآن، وكان فلان من الأولياء يخطب الجمعة في سبع قرى - يعني في نفس الوقت - ونحو ذلك مما يفضلون به الأولياء على الأنبياء، مثلما قال قائلهم:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ   فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيّ[٢]

يعني: أعلى المقامات الولي ثم يليه النبي ثم يليه الرسول.

---

(١) هو عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الشافعي الفقيه الصوفي، كتبه مملوءة بالطامات والبواطل، من تآليفه: الطبقات الكبرى، والميزان، والعهود المحمدية. توفي بمصر سنة ٩٧٣هـ. انظر: شذرات الذهب (٨/ ٣٦٩).

(٢) قائل هذا البيت هو ابن عربي كما ذكره شيخ الإسلام ﷺ في منهاج السنة (٨/ ٢٢)، وابن أبي العز في شرح الطحاوية (٥٥٦).

وَهَؤُلَاءِ مُشَابِهُونَ لِلنَّصَارَى الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

وَفِي الْمَسْنَدِ وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ، لَمَّا سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهَا، فَقَالَ: مَا عَبَدُوهُمْ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَأَطَاعُوهُمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ عِبَادَتَهُمْ إِيَّاهُمْ»(١).

وَلِهَذَا قِيلَ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ: إِنَّمَا حَرَّمُوا الْوُصُولَ بِتَضْيِيعِ الْأُصُولِ فَإِنَّ أَصْلَ الْأُصُولِ تَحْقِيقُ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَلَابُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ إِنْسِهِمْ وَجِنِّهِمْ وَعَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ عُلَمَائِهِمْ وَعُبَّادِهِمْ مُلُوكِهِمْ وَسُوقَتِهِمْ، وَأَنَّهُ لا طَرِيقَ إِلَى اللَّهِ ﷻ لِأَحَدٍ مِنْ الْخَلْقِ إِلا بِمُتَابَعَتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، حَتَّى لَوْ أَدْرَكَهُ مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرُهُمَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ لَوَجَبَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١ - ٨٢].

(١) سؤال النبي ﷺ عدي بن حاتم رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وقال: «هذا حديث غريب»، وقد روى الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٥٧، ٣٧٨، ٣٧٩) قصة إسلام عدي، دون السؤال المذكور.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إلا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ»[1]

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٥].

وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مُقَلِّدًا فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ فَإِنَّهُ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، وَأَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ لا يُخَالِفُ فِي شَيْءٍ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَكْبَرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، كَأَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ مَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ؛ فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؟! وَتَجِدُ كَثِيرًا مِنْ

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٥٦)، والدر المنثور للسيوطي (٢/ ٤٧، ٤٨).

هَؤُلَاءِ عُمْدَتُهُمْ فِي اعْتِقَادِ كَوْنِهِ وَلِيًّا لِلَّهِ أَنَّهُ قَدْ صَدَرَ عَنْهُ مُكَاشَفَةٌ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ أَوْ بَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، مِثْلِ أَنْ يُشِيرَ إِلَى شَخْصٍ فَيَمُوتَ، أَوْ يَطِيرَ فِي الْهَوَاءِ إِلَى مَكَّةَ أَوْ غَيْرِهَا، أَوْ يَمْشِيَ عَلَى الْمَاءِ أَحْيَانًا؛ أَوْ يَمْلَأَ إِبْرِيقًا مِنْ الْهَوَاءِ، أَوْ يُنْفِقَ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ مِنْ الْغَيْبِ أَوْ أَنْ يَخْتَفِيَ أَحْيَانًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، أَوْ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ اسْتَغَاثَ بِهِ وَهُوَ غَائِبٌ أَوْ مَيِّتٌ فَرَآهُ قَدْ جَاءَهُ فَقَضَى حَاجَتَهُ، أَوْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِمَا سُرِقَ لَهُمْ، أَوْ بِحَالِ غَائِبٍ لَهُمْ أَوْ مَرِيضٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ.

وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهَا وَلِيٌّ لِلَّهِ، بَلْ قَدْ اتَّفَقَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ لَمْ يُغْتَرَّ بِهِ حَتَّى يَنْظُرَ مُتَابَعَتَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمُوَافَقَتَهُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَهَذِهِ الْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ يَكُونُ عَدُوًّا لِلَّهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْخَوَارِقَ تَكُونُ لِكَثِيرِ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَتَكُونُ لِأَهْلِ الْبِدَعِ، وَتَكُونُ مِنْ الشَّيَاطِينِ.

فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، بَلْ يُعْتَبَرُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ بِصِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَيُعْرَفُونَ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ، وَبِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ.

الشـــرح:

هذا الكلام مبني على تفصيل ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في الفصل، وأن أولياء الله ﷻ لا يكونون أولياء حتى يكونوا من المتبعين للكتاب وللسنة، فليست الولاية دعوى بلا برهان، فمن الناس من يغلط في هذا الموضع، فيقول: هذا ولي لله. فيقبل منه، وقد لا يكون وليًا لله في الواقع لمخالفته الأمر والنهي، ولوقوعه في مفسقات، أو في أمور بدعية، أو شركية إلى غير ذلك، فيسلم له الأمور الشركية والبدعية على أساس أنه ولي لله ﷻ، وهذا هو الذي جعل البدع والشركيات تنتشر في الأمصار من جراء الاعتقاد في الأولياء، ولا سيما إذا كان هذا الولي حيًا، وقد يكون فاسقًا، فيحبب للناس بعض المنكرات، أو بعض البدع، ليحصل منهم على مال، أو على جاه، أو غير ذلك، فيعتقد الناس أنه ولي، ويتبعونه على ذلك، ويقولون: قالها الولي الفلاني.

والذي يُحطم هذا الأمر هو إقامة البرهان عند الناس على أن الولاية لا تكون إلا للمؤمنين المتقين؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

فالمؤمن الذي حقق الإيمان بأركانه، المتقي، الخائف من الله ﷻ، الذي يتمثل الواجب، وينتهي عن المحرم، ويوجل قلبه من الله، ويستعد للقائه، فهذا هو المتقي، وهو المؤمن الذي يُرجى أن يكون وليًا لله جل جلاله. وهؤلاء الذين أتوا بالبدع والشركيات ليسوا من أولياء الله، فراج أمرهم في الناس، والناس لا ينظرون هل هو ولي أم لا؟

وقد يكون انتشر في الناس أنه ولي فقبلوا كل ما جاء به؛ ولهذا ذكر شيخ الإسلام في أول الكلام قول أبي عمرو بن نجيد: **(كُلُّ وَجْدٍ لا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ)** والوجد يعنون به ما يظهر للمرء من استحسان أشياء في العبادة، أو في التأملات والتفكر، أو في السلوك مع الناس، فكل وجد ليس عليه دليل فهو باطل.

ومن عجائب ذلك ما ذكره بعض العلماء أن رجلًا من أحفاد أحد الأولياء - كما يزعمون في المغرب - زعم عند بعض الناس أنه من أولياء الله، وأن جده حدثه بكذا وكذا وكذا، فعظمه مَنْ حل بهم، وأسكنوه عندهم، فصار يأمرهم وينهاهم وهم يطيعون، فقال: لا أكافئكم إلا بأن تحجوا معي هذا العام، قالوا: أو تحج؟، قال: نعم وستحجون معي جميعًا - وهم في المغرب والمسير إلى مكة يحتاج إلى مدة طويلة - فلما صار وقت الحج وقرب أول ذي الحجة، قالوا له: إلا نحج؟ قال: سوف نحج، الأمر عند الأولياء يسير، وجاء اليوم الثاني والثالث والرابع حتى أتى يوم عرفة فقالوا له: إلا نحج؟ قال: بلى، إذا أتى بعد العصر ذهبنا إلى عرفة، فلما أتى بعد العصر أمرهم بالاستعداد ولما تجهزوا هم وأهلوهم وأولادهم قال: هلموا فصعد بهم إلى سطح البيت، فقال لهم: هذا جبل عرفة، قالوا: أين جبل عرفة؟، قال: وهل تريدون أن تروا ما يرى الأولياء؟ هذا جبل عرفة فادعوا هنا، فدعوا فلما مكث مدة قال: غربت الشمس في عرفة فارحلوا، فرحلوا قليلا، قال: افعلوا كذا، أتريدون أن نطوف؟ هذه الكعبة، فطوفوا فأخذ يعمل بهم مثل هذه الحركات، وهم يسلمون له الولاية. . . .

يعني: أن الدرجة الأولى التي يبطل بها صنيع الدجالين، والمشعوذين، والكهنة، وأمثال هؤلاء: أن يعلم الناس أن الولي لا يكون إلا مؤمنًا تقيًا.

فإذا كان حيًا في الناس يأمرهم، وينهاهم، ويدعوهم إلى أشياء، ويعتقد الناس فيه، فيُقال لهم: إن الولي هو المؤمن التقي، وهذا من أفعاله كذا وكذا، وكذا من المحرمات، والدجالون أشاعوا في الناس أن الأولياء أعمالهم الظاهرة غير أعمالهم الباطنة، حتى ما يأتي مثل هذا، فيقال هو في الظاهر يعمل أشياء، وفي الباطن قلبه وعمله لله ﷻ.

ومنهم طائفة تسمى الملامتية(١)، وهم الذين ادعوا أنهم لإخلاصهم يظهرون خلاف التوحيد، أو خلاف الاستقامة والإخلاص؛ لأجل إلا يُتهموا بالرياء، قالوا: نظهر هذا في الناس؛ لأجل الإخلاص حتى لا يقال: هم مراؤون، فيخفون الطاعات ويظهرون الفسوق؛ لأجل إلا يراؤوا الناس، وفي مثل هؤلاء قال الفضيل بن عياض وجماعة: **(ترك العمل من أجل الناس رياء - أي العمل الصالح الواجب - والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما)**(٢).

المقصود من هذا بيان تأصيل شيخ الإسلام لهذه المسألة المهمة.

---

(١) قال ابن الجوزي: «**وقد تسمى قوم من الصوفية بالملامتية فاقتحموا الذنوب، فقالوا: مقصودنا أن نسقط من أعين الناس فنسلم من آفات الجاه والمرائين، وهؤلاء مثلهم كمثل رجل زنى بأمرأة فاحبلها فقيل له: لم تعزل، فقال: بلغني أن العزل مكروه، فقيل له: وما بلغك أن الزنا حرام، وهؤلاء الجهلة قد أسقطوا جاههم عند الله سبحانه ونسوا أن المسلمين شهداء الله في الأرض**». انظر: تلبيس إبليس (ص٤٣٠).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٤٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/ ٤٠٢) والمزي في تهذيب الكمال (٢٣/ ٢٩١).

مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الْمَذْكُورَةَ وَأَمْثَالَهَا قَدْ تُوجَدُ فِي أَشْخَاصٍ وَيَكُونُ أَحَدُهُمْ لا يَتَوَضَّأُ، وَلَا يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةَ، بَلْ يَكُونُ مُلَابِسًا لِلنَّجَاسَاتِ، مُعَاشِرًا لِلْكِلَابِ، يَأْوِي إِلَى الْحَمَّامَاتِ وَالْقَمَّامِينَ وَالْمَقَابِرِ وَالْمَزَابِلِ، رَائِحَتُهُ خَبِيثَةٌ، لا يَتَطَهَّرُ الطَّهَارَةَ الشَّرْعِيَّةَ وَلَا يَتَنَظَّفُ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ جُنُبٌ وَلَا كَلْبٌ»[1].

وَقَالَ عَنْ هَذِهِ الْأَخْلِيَةِ: «إِنَّ هَذِهِ الْحُشُوشَ مُحْتَضِرَةٌ»[2]، أَيْ يَحْضُرُهَا الشَّيْطَانُ.

وَقَالَ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ الْخَبِيثَتَيْنِ فَلَا يَقْرَبَن مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»[3].

وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»[4].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٢٧)، والنسائي (١/ ١٤١)، وأحمد (١/ ١٠)، وهو ضعيف بهذا اللفظ، والحديث في الصحيحين بدون زيادة: (أو جنب) انظر: البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٦)، وابن ماجه (٢٩٦).

(٣) أخرجه مسلم (٥٦٧) من قول عمر رضي الله عنه، وورد عنده (٥٦٤) من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ: «مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»، ورواه البخاري (٨٥٥) بلفظ: «مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ لِيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا».

(٤) أخرجه مسلم (١٠١٥).

وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ»[١].

وَقَالَ: «خَمْسٌ مِنْ الْفَوَاسِقِ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ وَالْفَأْرَةُ وَالْغُرَابُ وَالْحِدَأَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»[٢]. وَفِي رِوَايَةٍ: «الْحَيَّةُ وَالْعَقْرَبُ»[٣].

وَأَمَرَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ - بِقَتْلِ الْكِلَابِ[٤]، وَقَالَ: «مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا لا يُغْنِي عَنْهُ زَرْعًا وَلَا ضَرْعًا نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ»[٥].

وَقَالَ: «لَا تَصْحَبُ الْمَلَائِكَةُ رُفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ»[٦].

وَقَالَ: «إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ، فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ إِحْدَاهُنَّ بِالتُّرَابِ»[٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ». وقال: «غريب».

(٢) أخرجه البخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨).

(٣) أخرجه أبو داود (١٨٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٢٣)، ومسلم (١٥٧٠) ثم نسخ القتل بما جاء عند مسلم (١٥٧٢) من حديث جابر رضي الله عنه، قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب حتى إن المرأة تقدم من البادية بكلبها فنقتله ثم نهى النبي ﷺ عن قتلها، وقال: «عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ الْبَهِيمِ ذِي النُّقْطَتَيْنِ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ».

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٢٣)، ومسلم (١٥٧٦).

(٦) أخرجه مسلم (٢١١٣).

(٧) أخرجه البخاري (١٧٢)، ومسلم (٢٧٩).

وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

فَإِذَا كَانَ الشَّخْصُ مُبَاشِرًا لِلنَّجَاسَاتِ وَالْخَبَائِثِ الَّتِي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ، أَوْ يَأْوِي إِلَى الْحَمَّامَاتِ وَالْحُشُوشِ الَّتِي تَحْضُرُهَا الشَّيَاطِينُ، أَوْ يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَالزَّنَابِيرَ، وَآذَانَ الْكِلَابِ الَّتِي هِيَ خَبَائِثُ وَفَوَاسِقُ، أَوْ يَشْرَبُ الْبَوْلَ وَنَحْوَهُ مِنْ النَّجَاسَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ، أَوْ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ؛ فَيَسْتَغِيثُ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا، أَوْ يَسْجُدُ إِلَى نَاحِيَةِ شَيْخِهِ، وَلَا يُخْلِصُ الدِّينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْ يُلَابِسُ الْكِلَابَ أَوْ النِّيرَانَ، أَوْ يَأْوِي إِلَى الْمَزَابِلِ وَالْمَوَاضِعِ النَّجِسَةِ، أَوْ يَأْوِي إِلَى الْمَقَابِرِ، وَلَا سِيَّمَا إِلَى مَقَابِرِ الْكُفَّارِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْ الْمُشْرِكِينَ، أَوْ يَكْرَهُ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ، وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ سَمَاعَ الْأَغَانِي وَالْأَشْعَارِ، وَيُؤْثِرُ سَمَاعَ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ عَلَى سَمَاعِ كَلَامِ الرَّحْمَنِ، فَهَذِهِ عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ لَا عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ.

الشرح:

هذه الصفات موجودة في فئات ممن يُدّعى أنهم من الأولياء، وأنهم

أصحاب كرامات:

الفئة الأولى: المجاذيب أو المجانين، ففيهم مثل هذه الصفات من ترك الوضوء والصلاة؛ لأنه مجنون أصلًا، وأولئك يعتقدون في جنونه؛ كما سبق أن ذكرنا.

الفئة الثانية: الدجالون الذين عرفوا أن مثل هذه الصفات يعتقد الناس فيها الولاية، فأرادوا أن يجعلوها لأنفسهم مقامًا، فتلبسوا بهذه الصفات المنكرة - والعياذ بالله - لأجل أن يعظمهم الناس، وأن يدَّعوا فيهم الولاية.

والفئة الثالثة: الكهنة، والسحرة، وأصحاب المخاريق الشيطانية، والمشعوذين ممن هم عقلاء، ولكن يستعينون بالجن، ويستخدمون الجن، فيكون عندهم مثل هذه الصفات السيئة.

فهذه الفئات الثلاثة ادّعى فيها الناس إلى يومنا هذا أنهم من أهل الكرامات والأولياء، فتجد في بعض البلاد يُقال للكاهن: إنه ولي، وهو كاهن إنما يخبر من طريق الجن، وكذلك منهم من يجعل المجنون الذي يترك الصلوات، ويلابس النجاسات، ولا ينطق بكلمة عاقلة يجعلون ذلك أيضًا دليلًا على ولايته وكرامته، وكذلك الفئة الثالثة - فكما ذكر شيخ الإسلام هنا - أن أهل الإيمان لهم صفة، وهؤلاء وإن ظهرت على أيديهم خوارق؛ فإنها من الشياطين لتغوي الناس، وشياطين الجن قد تظهر للمرء بعض المعلومات، وقد تجعل له بعض الأحوال بمساعدتهم، فيغتر الناس بذلك، والجن أقدرهم الله ﷻ على بعض الأمور لا يقدر عليها البشر؛ كما قال ﷻ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٩ - ٤٠]. دلت الآية على أن الجن يقدرون على أشياء أقدرهم الله ﷻ عليها؛ لذلك قال الجن لسليمان عليه السلام: أنا أحمل لك العرش من اليمن إلى دار مملكتك في الشام قبل أن تقوم من مقامك فقط، أي: مدة مقامك في المجلس. والذي عنده علم من الكتاب - يعني من الإنس - ممن علم الاسم الأعظم الذي إذا سئل الله به أجاب، وإذا طلب به شيء أعطى، قال: إنه يستطيع الإتيان بالعرش قبل أن يرتد إلي سليمان عليه السلام طرفه.

فالجن يخبرون بمغيبات ليست بمغيبات مطلقة، مغيبات عن بعض البشر وهذا يسمى (**العرافة**) يخبرون بمغيبات تحدث في المستقبل، ومنهم من يكون صادقًا فيما أخبر، ويكون مما التقطه مسترقو السمع[(١)]، ومنهم من يكون كاذبًا، وأكثرهم كَذَبَةٌ، فيكذبون مع الخبر الصادق مائة كَذْبَةٍ[(٢)]، فيروج هذا في الناس.

ومنهم من يوحي، يعني يلقي في نفس وليه ما في قلب صاحبه، فيأتيه آتٍ ويقول له كلامًا، فيأتيه الجني فيقول هذا كاذب؛ لأنه حصل منه كذا وكذا، فيقول: أنت كاذب، أو في بيتك كذا، أو كيف تقول هذا وفي بيتك كذا؟!

---

(١) كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨].

(٢) كما عند البخاري (٣٢١٠)، ومسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْكُهَّانَ كَانُوا يُحَدِّثُونَنَا بِالشَّيْءِ فَنَجِدُهُ حَقًّا قَالَ: «**تِلْكَ الْكَلِمَةُ الْحَقُّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقْذِفُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ وَيَزِيدُ فِيهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**».

كيف تفعل، وأنت البارحة قد عملت كذا؟! ، فيغتر هذا السائل بحال هذا المسؤول، وقد اتفق أهل العلم على أن الشياطين لا تخدم أهل الإيمان؛ لهذا وجب على المؤمنين إلا يغتروا بمثل هذه الظواهر التي يكون فيها ادعاء للخوارق.

وكما ذكرنا أن الخوارق تنقسم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خوارق جرت على أيدي الأنبياء، فهذه تسمى آيات وبراهين ودلائل، ومعجزات.

القسم الثاني: خوارق جرت على أيدي أولياء صالحين مؤمنين متقين، وهذه تسمى كرامات.

القسم الثالث: خوارق جرت على أيدي فسقة، وربما كفرة بعيدون عن الشريعة لا يصلون، ولا يتطهرون، أو عندهم بدع، وعندهم خرافات، وأشباه ذلك، وهذه تكون من الشياطين.

والخرق الشيطاني غير الكرامة في ضابطها، وغير الآية والبرهان.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: لا يُسْأَلُ أَحَدُكُمْ عَنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْقُرْآنُ، فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُبْغِضُ اللَّهَ وَرَسُولَه(١).

وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه: لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُنَا لَمَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عز وجل(٢).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: الذِّكْرُ يُنْبِتُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ، وَالْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ(٣).

وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ خَبِيرًا بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ فَارِقًا بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فَيَكُونُ قَدْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نُورِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، **فَهَذَا مِنْ**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٣٢)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٥٩)، وابن المبارك في الزهد (١١٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٢)، وأورده ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٥٥).

(٣) أخرجه البيهقي (١٠/ ٢٢٣) موقوفًا، وهو أصح من المرفوع الذي أخرج البيهقي (١٠/ ٢٢٣) الشطر الثاني منه مرفوعًا من حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ لأن فيه شيخ لم يسم، وأخرج أبو داود (٤٩٢٧) الشطر الثاني منه بدون التشبيه، وفيه ذاك الشيخ الذي لم يسم.

الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاءَ فِيهِمْ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»[١].

الشرح:

أظهر دلالة على المقصود من استدلاله بالآيتين قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، فبتقوى الله ﷻ يجعل للمرء فرقان، وهذا الفرقان قد يكون في الأمور العلمية، وقد يكون في الأمور العملية، وقد يكون في الأمور القدرية، يعني: الراجعة إلى القدرة، وهذه هي أنحاء الكرامات.

فالكرامة قد تكون راجعة إلى العلم، وقد تكون راجعة إلى العمل، وقد تكون راجعة إلى القدرة؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، يعني: فرقانًا بين الحق والباطل في الأمور العلمية، وبين الهدى والضلال في الأمور العملية، وما بين صنيع الشياطين وصنيع الأولياء، وكرامات الأولياء والصالحين، ومخاريق الكهنة والشياطين، فهذا يكون بالتقوى. إذا اتقى العبد الله وكان في تقواه محسنًا؛ فإنه يؤتى هذا الفرقان، فيبصر الحق، ويبصر الباطل؛ كما قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٨٦) رواه الطبراني عن أبي أسامة واسناده حسن.

غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]، وهذا النور هو الفراسة في قوله ﷺ: «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ**»(١).

والفراسة قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام(٢):

النوع الأول: فراسة خلقية رياضية: وهذه الفراسة هي التي كتبت فيها المؤلفات التي تسمى بكتب الفراسة، يعني: يستدلون بالخَلْق على الخُلُق، يستدلون بالخلق على الصفات، فيستدلون بصفة العينين على ذكائه من عدمه، ويستدلون بكبر الرأس على ذكائه من عدمه، ويستدلون بسعة الصدر على حلمه من عدم حلمه، ويستدلون بوفرة جسمه على كذا من كذا، يستدلون بتقاطيع وجهه، أو بعرض جبهته، أو بشموخ أنفه، أو بسعة وجهه، أو بطول وجهه... إلى آخره، وبلون الشعر، وبلون العينين على صفات هذا المتصف بتلك الصفات، هذه أُلِّفت فيها مؤلفات كثيرة، وهذه الفراسة الخلقية راجعة إلى تجارب الناس، فمنها ما هو حق، ومنها ما هو باطل؛ لذلك لا يجوز أن يعتمد ما فيها بإطلاقه، ولا يرد؛ لما فيه من الحق، ومن العلماء من كان يغلو في مثل هذه ويعتمدها مثل ما يذكر - وهو صحيح - عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ(٣) فإنه تعلم هذا النوع من الفراسة، وأكثر فيها جدًا، حتى ربما اشتُري له الشيء فسأل عن صفة البائع، فربما لم يطعم الطعام من أجل صفته، وقد أرسل خادمه مرة ليشتري بعض البقول، يعني: بعض الخضروات، فلما أتاه بها، قال له: ممن اشتريت؟، قال: من رجل،

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.
(٢) انظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٤٩٤).
(٣) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٧٨).

قال: ما صفته؟ قال: أعرج، فقال: لا أكله؛ كلوه! وأشباه ذلك.

فهذا نوع من التشاؤم وإن كان وقع فيه بعض أجلة أهل العلم، وأجلة الأئمة، لكنه شيء يغلب على النفس، وكل يؤخذ من قوله ويرد.

وبعض العلماء أيضًا كان يُكثر من هذا ويستعمله في حياته، وهذا لا ينبغي فإن الصحابة ﷺ كانت صفاتهم مختلفة، منهم من كان دقيقًا قصيرًا جدًا، ومنهم من كان طويلًا، ومنهم من كان كبير الرأس، ومنهم من كان صغير الرأس، ومنهم من كان صغير العينين... إلى آخر هذه الصفات التي يزعمون، وكانوا في مقامات الإيمان والصلاح والفأل بمخالطتهم ما هو معلوم.

والنوع الثاني: فراسة علمية، وهذه الفراسة العلمية تسمى فراسة؛ لأن العلم الصحيح يأتي لصاحبه كركوب صاحب الفرس عليه، فقوة صاحب الفرس منه، وتمكنه من ذلك أيضًا هذا يأتيه من العلم والإلهام بما يعلم به الحق، وهذا النوع من الفراسة هو الذي يكون كرامة من الكرامات؛ ولهذا يبحث العلماء الفراسة وأنواعها في مبحث كرامات الأولياء؛ لأجل هذا النوع، فقوله ﷺ: «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ**»[1] يعني هذا النوع من الفراسة في الأمور العلمية، يعني الراجعة إلى علمه بالأشياء، علمه بما في نفس صاحبه، ينظر إليه بعلمه فيعلم ما يجول بخاطره، يعلم أنه يفكر في كذا وأشباه هذا، فهذا من النور الذي يقذفه الله ﷻ في القلب، لكن لا يسوغ أن يُحكم به، يعني أن يُجعل دليلًا على الحكم، فيستعمله المستعمل على أنه دليل، بل هذا خاطر يأتي للقلب، ويهجم عليه ويكون

(١) سبق تخريجه (ص١٩٩).

في أهل الولاية، وأهل الإيمان الصحيح، والتقوى، فراسة من نور الله ﷻ لكن لا يسوغ لصاحبه أن يحكم به، وأن يستعمله فيظن بالناس الظنون لأجل هذه الفراسة، أو أن يحمدهم لأجل هذه الفراسة؛ لأن الفراسة دليل ناقص، قد تكون من نور الله ﷻ، وقد لا تكون، فالمرء لا يزكي نفسه؛ لأنه لا يدري هل هذا الخاطر الذي هجم عليه من نور الله ﷻ، أو هو من الظن السيئ، أو هو من الظن الحسن الذي فيه تزكية لغيره، وأشباه ذلك مما لا يسوغه؟ فله أن يستعمله من جهة الاحتياط وجهة المعرفة، لكن ليس له أن يحكم به إلا في بعض الأحوال التي يقوى فيها، بحيث يكون عنده يقين بذلك، وقد قال ﷺ: «**قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ** - يعني: ملهمين - **فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ مِنْهُمْ**»(١).

النوع الثالث: القيافة، والقافة منهم من يعلم الأشكال فَيُلحق هذا بأبيه، ومنهم من يعلم الأثر وهذه القيافة معروف أهلها، بعض قبائل العرب فيها هذا الأمر؛ كبني مرة ونحوهم، يعرفون مِنْ وطء القدم هو من أي قبيلة، ويعرفون من وطء القدم إذا كان رجلًا أم امرأة، وهل المرأة حائض أم طاهر، وهذا يسمى في القيافة تتبع الأثر، وهذا علم خاص يتداولونه فيما بينهم، وهو صحيح دلت التجارب على صحته، والشريعة جاء فيها الحكم بالقيافة. فالقائف يُحْكَمُ بقوله في المسائل التي يحتاج فيها إلى قائف، مثل تنازع الأنساب وأشباه هذه، والنبي ﷺ كان عنده زيد بن حارثة نائمًا وابنه أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وقد غطيا وجهيهما وبدت أقدامهما، فأتى رجل من القافة، فقال: يا رسول الله هذه الأقدام بعضها من بعض، فسر النبي ﷺ،

---

(١) انظر: تخريجه (ص١٦٤).

وبرقت أسارير وجهه ﷺ؛ ذلك لمحبته لأسامة ولأبيه رضي الله عنهما[١].

هذا النوع صحيح شرعًا ويحكم به، ويصير القاضي إليه، وهو من حيث الظاهر أقوى الأدلة، أعني بالأدلة أنواع الفراسة السالفة، وليست الأدلة التي هي البينات عند القاضي، فهو أقوى أنواع الفراسة من حيث الحكم الظاهر، أما الباطن فالثاني الذي هو الكرامة، فراسة المؤمن، والأول قد يكون وقد لا يكون.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٥)، ومسلم (١٤٥٩).

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، قَالَ فِيهِ: «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُه كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنهُ، وَمَا تَرَدَّدْت فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»(١).

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مِنْ هَؤُلَاءِ فُرِّقَ بَيْنَ حَالِ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، كَمَا يُفَرِّقُ الصَّيْرَفِيُّ بَيْنَ الدِّرْهَمِ الْجَيِّدِ وَالدِّرْهَمِ الزَّيْفِ، وَكَمَا يُفَرِّقُ مَنْ يَعْرِفُ الْخَيْلَ بَيْنَ الْفَرَسِ الْجَيِّدِ وَالْفَرَسِ الرَّدِيءِ، وَكَمَا يُفَرِّقُ مَنْ يَعْرِفُ الْفُرُوسِيَّةَ بَيْنَ الشُّجَاعِ وَالْجَبَانِ، وَكَمَا أَنَّهُ يَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ الصَّادِقِ وَبَيْنَ الْمُتَنَبِّئِ الْكَذَّابِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ الْأَمِينِ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمُوسَى وَالْمَسِيحِ وَغَيْرِهِمْ وَبَيْنَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ(٢)، وَالْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ(٣)،

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٣).

(٢) مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي، لقب برحمان اليمامة فدمغه الله بالكذب فلا يقال: مسيلمة، إلا ومعها الكذاب، ادعى النبوة وارتد عن الإسلام، ثم قتله وحشي قاتل حمزة بحربته، رماه بها فخرجت من الجانب الآخر وذلك في حرب المرتدين في عهد أبي بكر رضي الله عنه. انظر: فتوح البلدان (ص٩٧)، والكامل في التاريخ (٢/ ١٦٧) والبداية والنهاية (٦/ ٣٦٤).

(٣) الأسود العنسي الكذاب خرج بصنعاء وادعى النبوة في آخر حياة النبي ﷺ واسمه عبهلة ابن كعب وكان يقال له: ذو الخمار بالخاء المعجمة؛ لأنه كان يخمر وجهه، وقيل: هو اسم شيطانه. =

وَطُلَيْحَةَ الْأَسَدِيِّ(١)، وَالْحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ(٢)، وَبَابَاهُ الرُّومِيِّ(٣)، وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْكَذَّابِينَ(٤).

= انظر: تاريخ دمشق (٤٩/ ٤٨٣)، والبداية والنهاية (٦/ ٣٠٧)، وفتح الباري (٨/ ٩٣).

(١) هو طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الأسدي، كان ممن شهد مع الأحزاب الخندق ثم قدم على رسول الله ﷺ سنة تسع، فأسلم ثم ارتد وادعى النبوة في عهد أبي بكر الصديق، وكانت له مع المسلمين وقائع ثم خذله الله فهرب حتى لحق بأعمال دمشق، ونزل على آل جفنة، ثم أسلم وقدم مكة معتمرًا، ثم خرج إلى الشام مجاهدًا وشهد اليرموك وشهد بعض حروب الفرس. انظر: تاريخ دمشق (٢٥/ ١٤٩)، والإصابة (٣/ ٥٤٢)، والبداية والنهاية (٧/ ١١٨).

(٢) الحارث بن سعيد الدمشقي الكذاب المتنبي صلبه عبد الملك بن مروان، وكان الحارث من أهل دمشق، وكان متعبدًا، ويتكلم في التحميد بكلام لم يسمع مثله، فتعرض له إبليس فأغواه، فتوهم أنه نبي، فكان يجيء إلى أهل المسجد فيذاكرهم مرة، ويريهم الأعاجيب حتى كان يأتي إلى رخامة المسجد فينقرها بيده فتسبح، وكان يطعمهم فاكهة الصيف في الشتاء، فبلغ أمره القاسم بن مخيمرة فكلمه، فقال له شيئًا، فقال: كذبت يا عدو الله، وقام فدخل على عبد الملك فبعث في طلبه، فلم يقدر عليه، واختفى الحارث ببيت المقدس فلم يزل عبد الملك يطلبه إلى أن قبض عليه ثم أمر بصلبه ثم أمر به فطعن حتى قتل. انظر: لسان الميزان (٢/ ١٥١)، وتاريخ دمشق (١١/ ٤٢٧).

(٣) جاء في تاريخ الإسلام (١/ ٤٦٧٠)، والوافي في الوفيات (١/ ١٣٥١) في أحداث سنة ٦٣٨، قالا: وفيها ظهر بالروم البابا التركماني وادعى النبوة وكان يقول: لا إله إلا الله البابا ولي الله، واجتمع عليه خلق عظيم فجهز صاحب الروم جيشًا لقتاله، فالتقوا، وقتل في الوقعة أربعة آلاف، وقتل البابا.

(٤) مثل المختار بن أبي عبيد الكذاب الذي ادعى النبوة وكان قد خرج في أيام ابن الزبير، فجهز ابن الزبير لقتاله إلى أن ظفر به في سنة سبع وستين وقتله.
انظر: تاريخ الخلفاء (ص١٨٧). =

وَكَذَلِكَ يُفَرِّقُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ الضَّالِّينَ.

فَصْلٌ

وَالْحَقِيقَةُ حَقِيقَةُ الدِّينِ - دِينُ رَبِّ الْعَالَمِينَ - هِيَ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، وَإِنْ كَانَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَاجٌ.

فَالشِّرْعَةُ هِيَ الشَّرِيعَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩]، و«الْمِنْهَاجُ» هُوَ الطَّرِيقُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦ - ١٧].

فَالشِّرْعَةُ بِمَنْزِلَةِ الشَّرِيعَةِ لِلنَّهْرِ، وَالْمِنْهَاجُ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي سَلَكَ فِيهِ، وَالْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ هِيَ حَقِيقَةُ الدِّينِ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهِيَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا يَسْتَسْلِمُ لِغَيْرِهِ، فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ

= وذكر ابن كثير في البداية والنهاية (١٤/ ٩٦) في أحداث سنة ٧٢٠ أنه ضربت عنق شخص يقال له: عبدالله الرومي، وكان غلامًا لبعض التجار، وكان قد لزم الجامع ثم ادعى النبوة، واستتيب فلم يرجع، فضربت عنقه، وكان أشقر أزرق العينين جاهلًا، وكان قد خالطه شيطان حسن له ذلك واضطرب عقله في نفس الأمر، وهو في نفسه شيطان إنس.

كَانَ مُشْرِكًا، وَاللَّهُ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لِلَّهِ بَلْ اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَتِهِ كَانَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وَدِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، عَامٌّ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

فَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَالْحَوَارِيُّونَ كُلُّهُمْ دِينُهُمْ الْإِسْلَامُ، الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١، ٧٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

وَقَالَ السَّحَرَةُ: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وَقَالَتْ بِلْقِيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وَقَالَ تَعَالَى ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤].

وَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

فَدِينُ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّا مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ»(١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣].

الشرح:

هذا الفصل في بيان دين الإسلام العام، فكل دين بعث به الرسل هو دين الإسلام لكنه دين الإسلام العام، يعني: الذي يشترك فيه الأنبياء والمرسلون، الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله(٢).

أما الإسلام الخاص: فهو شريعة الإسلام الذي أُرسِل به محمد ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٢) انظر: عقيدة الفرقة الناجية لشيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (ص١٧).

فالإسلام يطلق على ثلاثة أشياء:

الإسلام العام: وهو دين الأنبياء والمرسلين جميعا الذي فيه قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

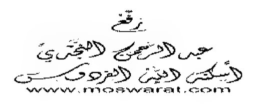
الإسلام الخاص: وهو الإسلام الذي بُعِثَ به محمد ﷺ.

الإسلام الأخص: وهو أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا[1].

فالإسلام في النصوص له هذه الإطلاقات الثلاثة: عام، وخاص، وأخص.

---

(١) كما روى البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ على خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ**».



فَصْلٌ

وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا وَسَائِرُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، وَقَدْ رَتَّبَ اللَّهُ عِبَادَهُ السُّعَدَاءَ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ»[(١)].

وَأَفْضَلُ الْأُمَمِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ﴾ [فاطر: ٣٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي الْمُسْنَدِ: «أَنْتُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»[(٢)].

وَأَفْضَلُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْقَرْنُ الْأَوَّلُ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْت فِيهِ، ثُمَّ الَّذِينَ

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (ص١٠١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٢٥)، وابن حبان في الثقات (٧/ ٩٤)، وزاد: (وعمر)، والخطيب في تاريخه (١٢/ ٤٣٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٢٠٨)، وزاد: (وعمر)، والواسطي في تاريخه (ص٢٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٧)، والترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨).

يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ﷺ»(١)، وَهَذَا ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(٢).

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا، وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ: صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ؛ فَإِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۞﴾ [الفتح: ١، ٢]، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوَفَتْحٌ هُوَ؟! قَالَ: «نَعَمْ»(٣).

وَأَفْضَلُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ، وَأَفْضَلُهُمْ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ

---

(١) البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم(١٧٨٥) بلفظ: «فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْفَتْحِ فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ فَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ».

وَأَئِمَّةِ الْأُمَّةِ وَجَمَاهِيرِهَا، وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ دَلَائِلُ بَسَطْنَاهَا فِي: «مِنْهَاجِ أَهْلِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي نَقْضِ كَلَامِ أَهْلِ الشِّيعَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ»[١].

وَبِالْجُمْلَةِ اتَّفَقَتْ طَوَائِفُ السُّنَّةِ وَالشِّيعَةِ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا وَاحِدٌ مِنْ الْخُلَفَاءِ[٢]، وَلَا يَكُونُ مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ أَفْضَلُ مِنْ الصَّحَابَةِ، وَأَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُهُمْ مَعْرِفَةً بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَاتِّبَاعًا لَهُ، كَالصَّحَابَةِ الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُ الْأُمَّةِ فِي مَعْرِفَةِ دِينِهِ وَاتِّبَاعِهِ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ أَكْمَلُ مَعْرِفَةً بِمَا جَاءَ بِهِ وَعَمَلًا بِهِ، فَهُوَ أَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إذْ كَانَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلَ الْأُمَمِ، وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَفْضَلُهُمْ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه.

وَقَدْ ظَنَّ طَائِفَةٌ - غَالِطَةً - أَنَّ خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلُ الْأَوْلِيَاءِ، قِيَاسًا عَلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ مِنْ الْمَشَايِخِ الْمُتَقَدِّمِينَ بِخَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ إلا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ[٣]، فَإِنَّهُ صَنَّفَ مُصَنَّفًا[٤] غَلِطَ فِيهِ فِي مَوَاضِعَ، ثُمَّ صَارَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٤/ ٢١٤- ٢٩٨).

(٢) انظر: فضائل الصحابة (١/ ٣٠٣)، والسنة لابن أبي عاصم (٢/ ٥٧٢)، والجواب الصحيح (٢/ ٤٠١).

(٣) هو محمد بن علي بن الحسن، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي، له حكم ومواعظ وجلالة لولا هفوة بدت منه. قاله الذهبي. انظر: طبقات الصوفية (ص٢١٧)، وصفة الصفوة (٤/ ١٦٧)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٣٩).

(٤) قال أبو عبدالرحمن السلمي: أخرجوا الحكيم من ترمذ وشهدوا عليه بالكفر؛ وذلك بسبب تصنيفه كتاب (ختم الولاية)، وكتاب (علل الشريعة)، وقالوا: إنه يقول إن =

يَزْعُمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلُ مِنْ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَسْتَفِيدُونَ الْعِلْمَ بِاللَّهِ مِنْ جِهَتِهِ، كَمَا يَزْعُمُ ذَلِكَ ابْنُ عَرَبِيٍّ[1] صَاحِبُ كِتَابِ: «الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ»[2]، وَكِتَابِ: «الْفُصُوصِ»[3]، فَخَالَفَ الشَّرْعَ وَالْعَقْلَ مَعَ مُخَالَفَةِ جَمِيعِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ

= للأولياء خاتمًا كالأنبياء لهم خاتم، وإنه يفضل الولاية على النبوة، واحتج بحديث: «**يغبطهم النبيون والشهداء**»، فقدم بلخ، فقبلوه لموافقته لهم في المذهب.
انظر: طبقات الصوفية (ص٢١٧)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٤١).

(١) سبقت ترجمته (ص٤٥).

(٢) كتاب الفتوحات المكية في معرفة أسرار المالكية والملكية لابن عربي، وهو من أكبر كتبه وآخرها تأليفًا قضى في وضعه ثلاثين سنة أو أكثر، قال فيه: كنت نويت الحج والعمرة، فلما وصلت أم القرى أقام الله ﷻ في خاطري أن أعرف الولي بفنون من المعارف حصلتها في غيبتي، وكان الأغلب هذه منها ما فتح الله ﷻ علي عند طوافي ببيته المكرم. وقال في الباب الثامن والأربعين: واعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختياري ولا عن نظر فكري، وإنما الحق تعالى يملي لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره، وقد نذكر كلامًا بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده، وذلك شبيه بقوله ﷻ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ بين آيات طلاق ونكاح وعدة ووفاة. وقال: واعلم أن جميع ما أتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه، فإني أعطيت مفاتيح الفهم فيه والإمداد منه. انتهى. انظر: كشف الظنون (٢/ ١٢٣٨)، والكتاب مطبوع في أربع مجلدات بمطبعة دار الكتب العربية.

(٣) كتاب فصوص الحكم لابن عربي. قال عنه الذهبي في الميزان (٦/ ٢٧٠): وكذلك من أمعن النظر في فصوص الحكم، أو أنعم التأمل لاح له العجب؛ فإن الذكي إذا تأمل من ذلك الأقوال والنظائر والأشباه فهو أحد رجلين: إما من الاتحادية في الباطن، وإما =

تَعَالَى وَأَوْلِيَائِهِ، كَمَا يُقَالُ لِمَنْ قَالَ: فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ تَحْتِهِمْ: لا عَقْلَ وَلَا قُرْآنَ.

ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ فِي الزَّمَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ أَفْضَلُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ، فَكَيْفَ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ؟ وَالْأَوْلِيَاءُ إِنَّمَا يَسْتَفِيدُونَ مَعْرِفَةَ اللَّهِ مِمَّنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ وَيَدَّعِي أَنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ؟! وَلَيْسَ آخِرُ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلَهُمْ كَمَا أَنَّ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُهُمْ، فَإِنَّ فَضْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»[(١)]، وَقَوْلِهِ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»[(٢)].

وَلَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ رَفَعَ اللَّهُ دَرَجَتَهُ فَوْقَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، فَكَانَ أَحَقَّهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ

= من المؤمنين بالله الذين يعدون أن هذه النحلة من أكفر الكفر، نسأل الله العفو، وأن يكتب الإيمان في قلوبنا، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فوالله لأن يعيش المسلم جاهلًا خلف البقر لا يعرف من العلم شيئًا سوى سور من القرآن يصلي بها الصلوات، ويؤمن بالله وباليوم الآخر، خير له بكثير من هذا العرفان، وهذه الحقائق، ولو قرأ مائة كتاب، أو عمل مائة خلوة. ا هـ. والكتاب مطبوع في مجلد واحد سنة ١٣٦٥هـ بدار إحياء الكتب العربية، مع تعليقات لأبي العلا عفيفي.
وانظر كشف الظنون (٢/ ١٢٦١).

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) بلفظ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، ومسلم (٢٢٧٨) بلفظ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وأخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) بلفظه.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧).

ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الدَّلَائِلِ، كُلٌّ مِنْهُمْ يَأْتِيه الْوَحْيُ مِنْ اللَّهِ لا سِيَّمَا مُحَمَّدٌ ﷺ، لَمْ يَكُنْ فِي نُبُوَّتِهِ مُحْتَاجًا إِلَى غَيْرِهِ، فَلَمْ تَحْتَجْ شَرِيعَتُهُ إِلَى سَابِقٍ وَلَا إِلَى لَاحِقٍ، بِخِلَافِ الْمَسِيحِ أَحَالَهُمْ فِي أَكْثَرِ الشَّرِيعَةِ عَلَى التَّوْرَاةِ وَجَاءَ الْمَسِيحُ فَكَمَّلَهَا؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّصَارَى مُحْتَاجِينَ إِلَى النُّبُوَّاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى الْمَسِيحِ؛ كَالتَّوْرَاةِ وَالزَّبُورِ وَتَمَامِ الْأَرْبَعِ وَالْعِشْرِينَ نُبُوَّةً، وَكَانَ الْأُمَمُ قَبْلَنَا مُحْتَاجِينَ إِلَى مُحَدَّثِينَ، بِخِلَافِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَاهُمْ بِهِ، فَلَمْ يَحْتَاجُوا مَعَهُ إِلَى نَبِيٍّ وَلَا إِلَى مُحَدَّثٍ؛ بَلْ جَمَعَ لَهُ مِنْ الْفَضَائِلِ وَالْمَعَارِفِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا فَرَّقَهُ فِي غَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، فَكَانَ مَا فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ اللَّهِ بِمَا أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ لَا بِتَوَسُّطِ بَشَرٍ.

وَهَذَا بِخِلَافِ الْأَوْلِيَاءِ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إلا بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكُلُّ مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ هُوَ بِتَوَسُّطِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكَذَلِكَ مَنْ بَلَغَهُ رِسَالَةُ رَسُولٍ إِلَيْهِ لا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إلا إِذَا اتَّبَعَ ذَلِكَ الرَّسُولَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِ.

الشرح:

هذا الكلام من أول الفصل إلى هنا في مسألة أن الأنبياء أفضل من الأولياء قطعًا، وتفضيل النبي على الولي ظاهر من جهة الدليل؛ كما ذكر شيخ الإسلام في هذا الباب الكثير من الأدلة، وظاهر أيضًا من جهة التعليل؛ فإن

الولي لم يكن وليًا إلا باتباعه للنبي؛ فبسبب اقتدائه بالنبي واتباعه له صار وليًا، وجاءته الكرامة من جهة اتباعه للنبي ﷺ، فهو دائمًا أقل رتبة، والأولياء في هذه الأمة أكملهم وأرفعهم درجة الأربعة الخلفاء: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم.

والطوائف التي فضلت الأولياء على الأنبياء، أو فضلت خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء، ثلاث طوائف:

الأولى: هم غلاة الصوفية.

الثانية: هم الرافضة والإسماعيلية[(١)]. باعتبار أن أصلهم طائفة واحدة

والثالثة: الفلاسفة.

فأما غلاة الصوفية فزعموا أن جهة تفضيل الولي على النبي أن النبي إنما يأخذ من الملك، وأما الولي فيأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك؛ كما قال ابن عربي في فصوصه: فالنبي يأخذ بواسطة والولي يأخذ بلا واسطة. لهذا كتب ابن عربي كتابه المعروف **(الأربعين عن رب العالمين)**[(٢)] يعني التي حدث بها عن رب العالمين مباشرة بما سمعه منه، هذا من جهة التفضيل فعندهم أن الولي يصل إلى المكاشفة بحيث لا يكون هناك حجاب، والأنبياء

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق (ص٦٨، ٢١٣)، والاعتصام (٤٤٣).

(٢) هو كتاب مشكاة الأنوار فيما روى عن الله ﷻ من الأخبار لابن عربي قال فيه: «جمعت هذه الأربعين بمكة المكرمة في شهور سنة ٥٩٩هـ، وشرطت فيها أن تكون من الأحاديث المسندة إلى الله ﷻ خاصة، وربما اتبعتها بأحاديث عن الله تعالى مرفوعة إليه غير مسندة إلى رسول الله ﷺ مما رويتها وقيدتها ثم أردفتها بأحد وعشرين حديثًا فجاءت واحدًا ومائة حديث إلهية». انظر: كشف الظنون (٢/ ١٦٩٤).

حجبوا: منهم من كُلِّم في بعض الأحيان، أما الولي فإنه إذا اختار أن يسمع الكلام فلا عليه إلا أن يصفي قلبه، ويعمل بالرياضات الخاصة عندهم - الرياضات الروحية - ثم ينكشف عنه الحجاب، فيصبح يرى ما يحدث في الملكوت، ويسمع أوامر الحق ﷻ للملائكة.

والطائفة الثانية: الرافضة والإسماعيلية؛ فإن الرافضة يزعمون أن أئمتهم لهم من المقام ما ليس للأنبياء، وعندهم هذا من ضروريات المذهب، حيث يقول بعض أئمتهم: من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبي مرسل - يعني بالضروري - ما لا يحتاج فيه إلى استدلال أصلًا، فالأئمة الاثنا عشر، ابتداءً من علي إلى العسكري(١)، هؤلاء لا يبلغهم ملك مقرب ولا نبي مرسل. قال: وأنهم كانوا قبل خلق هذا العالم أنوارًا، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لم يجعله لأحد من العالمين. والإسماعيلية، القرامطة(٢)

---

(١) قال ابن أبي العز الحنفي: الرافضة توالى بدل العشرة المبشرين بالجنة اثني عشر إمامًا، أولهم علي بن أبي طالب ويدعون أنه وصي النبي ﷺ دعوى مجردة عن الدليل، ثم الحسن، ثم الحسين ﷺ، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسى الرضى، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد الهادي، ثم الحسن بن علي العسكري، ثم محمد بن الحسن. انظر: تلبيس إبليس (ص١١٨)، وشرح الطحاوية (ص٥٥٢).

(٢) هم أحد فرق الإسماعيلية، وللمؤرخين في سبب تسميتهم بهذا قولان:
أحدهما: أن رجلًا من ناحية خوزستان قدم سواد الكوفة فأظهر الزهد، ودعا إلى أمام من أهل بيت الرسول، ونزل على رجل يقال له: كرميتة، لقب بهذا لحمرة عينيه، وهو بالنبطية حاد العين، فأخذه أمير تلك الناحية فحبسه وترك مفتاح البيت تحت رأسه ونام، فرقت له جارية فأخذت المفتاح ففتحت البيت وأخرجته، وردت المفتاح إلى =

والعبيديين [(١)] . . . .

= مكانه، فلما طلب فلم يوجد زاد افتتان الناس به، فخرج إلى الشام فسمى كرميتة باسم الذي كان نازلًا عليه ثم خفف فقيل قرمط، ثم توارث مكانه أهله وأولاده.

والثاني: أن القوم قد لقبوا بهذا نسبة إلى رجل يقال له حمدان قرمط كان أحد دعاتهم في الابتداء، فاستجاب له جماعة فسموا قرامطة وقرمطية، وكان هذا الرجل من أهل الكوفة، وكان يميل إلى الزهد، فصادفه أحد دعاة الباطنية في فريق وهو متوجه إلى قرية وبين يديه بقر يسوقها، فقال حمدان لذلك الراعي وهو لا يعرفه: أين مقصدك؟ فذكر قرية حمدان فقال له اركب بقرة من هذه لئلا تتعب فقال: إني لم أؤمر بذلك، فقال وكأنك لا تعمل إلا بأمر؟ قال: نعم، قال: وبأمر من تعمل؟ قال: بأمر مالكي ومالكك ومالك الدنيا والآخرة، فقال: ذلك إذن هو الله رب العالمين، فقال: صدقت، قال له: فما غرضك في هذه القرية التي تقصدها؟ قال: أمرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الشقاء إلى السعادة، وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر، وأملكهم ما يستغنون به عن الكد، فقال له حمدان: أنقذني أنقذك الله وأفض علي من العلم ما تحييني به فما أشد احتياجي إلى مثل هذا، فقال: ما أمرت أن أخرج السر المخزون إلى كل أحد إلا بعد الثقة به والعهد إليه، فقال: أذكر عهدك فإني ملتزم به، فقال له: أن تجعل لي وللإمام على نفسك عهد الله وميثاقه ألا تخرج سر الإمام الذي ألقيه إليك ولا نفس سري أيضًا فالتزم حمدان عهده ثم اندفع الداعي في تعليمه فنون جهله حتى استغواه فاستجاب له، ثم انتدب للدعاء وصار أصلًا من أصول هذه البدعة فسمي أتباعه القرامطة والقرمطية. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٢٦)، وتلبيس إبليس (ص١٢٦- ١٢٨)، وفضائح الباطنية (ص١٢).

(١) فرقة من فرق الإسماعيلية، ويسمون بالفاطميين، كانوا يتظاهرون بالإسلام، ويقولون: إنهم شيعة. والظاهر عنهم الرفض، وكان باطنهم الإلحاد والزندقة، والمتسمون بالخلافة من العبيديين أربعة عشر: ثلاثة بالمغرب: المهدي، والقائم، والمنصور، وأحد عشر بمصر: المعز، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد، وكان ابتداء أمر مملكتهم سنة بضع =

والنصيرية[١] والدروز[٢]، زعموا أن أولياءهم أعظم من الأنبياء من جهة أن

= وتسعين ومائتين، وانقراضها في سنة سبع وستون وخمسمائة، قال الذهبي: «**وهي الدولة المجوسية واليهودية لا العلوية والباطنية لا الفاطمية وكانوا أربعة عشر متخلفًا لا مستخلفًا**» انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢١٢)، والرد على المنطقيين (ص٢٨٠)، والبداية والنهاية (١٢/ ٢٦٤).

(١) النصيرية أتباع أبي شعيب محمد بن نصير من غلاة الرافضة، يقولون في علي بن أبي طالب نظير ما يقوله النصارى في المسيح، قالوا: حل الله في علي، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى باتفاق المسلمين، وهم قدرية من أصحاب الحبة والقيراط الذين يزعمون أن من أخذ حبة أو قيراطًا أو دانقًا حرامًا فهو كافر، وقولهم يضاهي قول الخوارج، وهم من الطوائف الذين يظهرون التشيع، وإن كانوا في الباطن كفارًا منسلخين من كل ملة، ويقولون: ظهور الروحاني بالجسماني لا ينكر، ففي طرف الشر كالشياطين؛ فإنه كثيرًا ما يتصور الشيطان بصورة الإنسان ليعلمه الشر ويكلمه بلسانه، وفي طرف الخير كالملائكة؛ فإن جبريل ﷺ كان يظهر بصورة دحية الكلبي، والأعرابي فلا يمتنع حينئذ أن يظهر الله تعالى في صورة بعض الكاملين وأولى الخلق بذلك أشرفهم وأكملهم وهو العترة الطاهرة، وهو من يظهر فيه العلم التام والقدرة التامة من الأئمة من تلك العترة، ولم يتحاشوا عن إطلاق الآلهة على أئمتهم، وهذه ضلالة بينة. والنصيرية طائفة ملعونة مرذولة مجوسية المعتقد لا تحرم البنات ولا الأخوات ولا الأمهات.
انظر: المدخل لابن بدران (ص٩٦)، والمواقف للإيجي (٣/ ٦٧٥)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٤٥٢)، والجواب الصحيح (٤/ ٣٠٣)، ومصرع التصوف (ص٨٠)، وصبح الأعشى (١٣/ ٢٥٤).

(٢) الدرزية قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هم أتباع هشتكين الدرزي، وكان من موالى الحاكم [العبيدي] أرسله إلى أهل وادي تيم الله بن ثعلبة فدعاهم إلى إلهية الحاكم، ويسمونه الباري العلام، ويحلفون به وكانوا أولًا من الإسماعيلية القائلين بأن محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله، ثم خرجوا عن كل ما تمحلوه وهدموا كل ما أثلوه، وهم أعظم كفرًا من النصيرية، ويقولون بقدم العالم، وإنكار المعاد، وإنكار =

الولي - وهم أولياء سبعة عندهم أو أربعة - أن الولي يحل فيه الحق ﷻ، وليس كل نبي يستحق هذه المنزلة، فالأولياء تميزوا على الأنبياء بأنهم يحل فيهم الحق ﷻ، فيصبحون صورة لله ﷻ، صورة ناسوتية وليس بلاهوتية(١)، يعني بحلول الحق ﷻ، فالجثمان جثمان إنساني، ولكن العلم والحكمة والأمر والنهي إلهي.

والطائفة الثالثة: ممن يقولون بتفضيل الأولياء على الأنبياء: الذين يقولون: النبوة والفلسفة تجتمع في شيء واحد، وهو أن الجميع فيه تحصيل غاية الحكمة، والنبوة تحصيل الحكمة فيها بواسطة الملك، ولا دور للنبي في تحصيل الحكمة بإدراكه وسعيه وبذله، وأما الفيلسوف الحكيم فإنه حصل له هذا المقام، وهو إدراك الحكمة بفعله، وإدراكه، وبذله، وعقله، وفهمه؛ فلهذا الفيلسوف تساوى مع النبي في إدراك الحكمة، ولكن زاد عليه أنه أدركها بعقله، وبحثه، ونظره، وذاك بواسطة. وهذا القول وكل أقوال الفلاسفة زندقة، وكل من قال بهذا القول فهو زنديق، يستتاب على الكفر وإلا قُتل، وقال بعض أهل العلم: من أظهر هذا القول فإنه يجب قتله بلا استتابة؛ لأن هذا القول مما لا شبهة فيه أصلًا، وإنما هي زندقة محضة، وقد أوضح شيخ الإسلام في هذا الفصل تفصيل الكلام من أن الرسالات

= واجبات الإسلام ومحرماته، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب وغايتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله أو مجوسًا، وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس ويظهرون التشيع نفاقًا والله أعلم. انظر: مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٦١).

(١) انظر: فضائح الباطنية (١/ ١٠٩)، واعتقادات فرق المسلمين (ص٧٣).

جميعهًا جاءت بالإسلام، وأن الرسل إنما يفضلون بالإسلام لله رب العالمين، وباتباع الأنبياء والرسل يشرف أقوام منهم الأولياء، إلى آخر ما ساق من الآيات والأحاديث في هذا الباب.

وَمَنْ ادَّعَى أَنَّ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى اللَّهِ لا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى مُحَمَّدٍ فَهَذَا كَافِرٌ مُلْحِدٌ، وَإِذَا قَالَ: أَنَا مُحْتَاجٌ إِلَى مُحَمَّدٍ فِي عِلْمِ الظَّاهِرِ دُونَ عِلْمِ الْبَاطِنِ، أَوْ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ دُونَ عِلْمِ الْحَقِيقَةِ، فَهُوَ شَرٌّ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ إِلَى الْأُمِّيِّينَ دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ.

فَإِنَّ أُولَئِكَ آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ فَكَانُوا كُفَّارًا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي يَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا بُعِثَ بِعِلْمِ الظَّاهِرِ دُونَ عِلْمِ الْبَاطِنِ آمَنَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَهُوَ أَكْفَرُ مِنْ أُولَئِكَ؛ لِأَنَّ عِلْمَ الْبَاطِنِ الَّذِي هُوَ عِلْمُ إيمَانِ الْقُلُوبِ وَمَعَارِفِهَا وَأَحْوَالِهَا هُوَ عِلْمٌ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ، وَهَذَا أَشْرَفُ مِنْ الْعِلْمِ بِمُجَرَّدِ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ. فَإِذَا ادَّعَى الْمُدَّعِي أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إنَّمَا عَلِمَ هَذِهِ الْأُمُورَ الظَّاهِرَةَ دُونَ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ لا يَأْخُذُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ عَنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَقَدْ ادَّعَى أَنَّ بَعْضَ الَّذِي آمَنَ بِهِ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ دُونَ الْبَعْضِ الْآخَرِ، وَهَذَا شَرٌّ مِمَّنْ يَقُولُ: أُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَأَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَلَا يَدَّعِي أَنَّ هَذَا الْبَعْضَ الَّذِي آمَنَ بِهِ أَدْنَى الْقِسْمَيْنِ.

وَهَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ يَدَّعُونَ أَنَّ الْوِلَايَةَ أَفْضَلُ مِنْ النُّبُوَّةِ، وَيُلَبِّسُونَ عَلَى النَّاسِ فَيَقُولُونَ: وِلَايَتُهُ أَفْضَلُ مِنْ نُبُوَّتِهِ، وَيُنْشِدُونَ:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ ... فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيّ[1]

---

(١) قائل هذا البيت هو ابن عربي كما ذكره شيخ الإسلام في منهاج السنة (٨/ ٢٢)، وابن أبي العز في شرح الطحاوية (٥٥٦).

وَيَقُولُونَ: نَحْنُ شَارَكْنَاهُ فِي وِلَايَتِهِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِنْ رِسَالَتِهِ. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ ضَلَالِهِمْ؛ فَإِنَّ وِلَايَةَ مُحَمَّدٍ لَمْ يُمَاثِلْهُ فِيهَا أَحَدٌ لا إبْرَاهِيمُ وَلَا مُوسَى، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُمَاثِلَهُ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ. وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلِيٌّ، فَالرَّسُولُ نَبِيٌّ وَلِيٌّ، وَرِسَالَتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِنُبُوَّتِهِ، وَنُبُوَّتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِوِلَايَتِهِ، وَإِذَا قَدَّرُوا مُجَرَّدَ إنْبَاءِ اللَّهِ إيَّاهُ بِدُونِ وِلَايَتِهِ لِلَّهِ فَهَذَا تَقْدِيرٌ مُمْتَنِعٌ؛ فَإِنَّهُ حَالَ إنْبَائِهِ إيَّاهُ مُمْتَنِعٌ أَنْ يَكُونَ إلا وَلِيًّا لِلَّهِ، وَلَا تَكُونُ مُجَرَّدَةً عَنْ وِلَايَتِهِ، وَلَوْ قُدِّرَتْ مُجَرَّدَةً لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مُمَاثِلًا لِلرَّسُولِ فِي وِلَايَتِهِ.

وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَقُولُونَ - كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ «الْفُصُوصِ» ابْنُ عَرَبِيٍّ: إنَّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنْ الْمَعْدِنِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُوحَى بِهِ إلَى الرَّسُولِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا عَقِيدَةَ الْمُتَفَلْسِفَةِ، ثُمَّ أَخْرَجُوهَا فِي قَالَبِ الْمُكَاشَفَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَفَلْسِفَةَ الَّذِينَ قَالُوا: إنَّ الْأَفْلَاكَ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ لَهَا عِلَّةٌ تَتَشَبَّهُ بِهَا - كَمَا يَقُولُهُ أَرِسْطُو وَأَتْبَاعُهُ - أَوْ لَهَا مُوجِبٌ بِذَاتِهِ - كَمَا يَقُولُهُ مُتَأَخِّرُوهُمْ: كَابْنِ سِينَا وَأَمْثَالِهِ - وَلَا يَقُولُونَ: إنَّهَا لِرَبِّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَلَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَلَا يَعْلَمُ الْجُزْئِيَّاتِ، بَلْ إمَّا أَنْ يُنْكِرُوا عِلْمَهُ مُطْلَقًا كَقَوْلِ أَرِسْطُو، أَوْ يَقُولُوا إنَّمَا يَعْلَمُ فِي الْأُمُورِ الْمُتَغَيِّرَةِ كُلِّيَّاتِهَا كَمَا يَقُولُهُ ابْنُ سِينَا. وَحَقِيقَةُ هَذَا الْقَوْلِ إنْكَارُ عِلْمِهِ بِهَا، فَإِنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ فِي الْخَارِجِ فَهُوَ مُعَيَّنٌ جُزْئِيٌّ: الْأَفْلَاكُ كُلُّ مُعَيَّنٍ مِنْهَا جُزْئِيٌّ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَعْيَانِ وَصِفَاتُهَا وَأَفْعَالُهَا، فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ إلا الْكُلِّيَّاتِ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا مِنْ الْمَوْجُودَاتِ، وَالْكُلِّيَّاتُ إنَّمَا تُوجَدُ كُلِّيَّاتٍ فِي الْأَذْهَانِ لا فِي الْأَعْيَانِ.

وَالْكَلَامُ عَلَى هَؤُلَاءِ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي «رَدِّ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ»[1] وَغَيْرِهِ.

فَإِنَّ كُفْرَ هَؤُلَاءِ أَعْظَمُ مِنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بَلْ وَمُشْرِكِي الْعَرَبِ، فَإِنَّ جَمِيعَ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنَّهُ خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَرِسْطُو وَنَحْوُهُ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْيُونَانِ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ، وَهُمْ لا يَعْرِفُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ، وَلَيْسَ فِي كُتُبِ أَرِسْطُو ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا غَالِبُ عُلُومِ الْقَوْمِ الْأُمُورُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَأَمَّا الْأُمُورُ الْإِلَهِيَّةُ فَكُلٌّ مِنْهُمْ فِيهَا قَلِيلُ الصَّوَابِ كَثِيرُ الْخَطَأِ، وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْدَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ أَعْلَمُ بِالْإِلَهِيَّاتِ مِنْهُمْ بِكَثِيرٍ، وَلَكِنْ مُتَأَخِّرُوهُمْ كَابْنِ سِينَا أَرَادُوا أَنْ يُلَفِّقُوا بَيْنَ كَلَامِ أُولَئِكَ وَبَيْنَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ؛ فَأَخَذُوا أَشْيَاءَ مِنْ أُصُولِ الْجَهْمِيَّةِ[2]، وَالْمُعْتَزِلَةِ[3]، وَرَكَّبُوا مَذْهَبًا قَدْ يَعْتَزِي إِلَيْهِ

(١) انظر: كلام شيخ الإسلام على الفلاسفة في كتاب درء تعارض العقل والنقل (١/١٠ - ٢٠٠).

(٢) الجهمية أتباع الجهم بن صفوان الملحد العنيد الزائغ، تلميذ الجعد بن درهم، رأس المعطلة، لم يثبتوا أن في السماء ربًا وينتهي قولهم إلى جحود الخالق ﷻ، وقالوا بخلق القرآن، وقد قتل سنة ١٢٨هـ على يد سلم بن أحوز رحمه الله.
انظر: السنة لعبد الله بن أحمد (١/١٦٧)، والفرق بين الفرق (ص١٩٩)، والملل والنحل (١/٨٦)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٥٠).

(٣) المعتزلة هم أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله في أوائل المائة الثانية وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة، وقيل إن واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول مذهب =

مُتَفَلْسِفَةُ أَهْلِ الْمِلَلِ، وَفِيهِ مِنْ الْفَسَادِ وَالتَّنَاقُضِ مَا قَدْ نَبَّهْنَا عَلَى بَعْضِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَهَؤُلَاءِ لَمَّا رَأَوْا أَمْرَ الرُّسُلِ كَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ ﷺ، قَدْ بَهَرَ الْعَالَمَ، وَاعْتَرَفُوا بِأَنَّ النَّامُوسَ الَّذِي بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ أَعْظَمُ نَامُوسٍ[1] طَرَقَ الْعَالَمَ، وَوَجَدُوا الْأَنْبِيَاءَ قَدْ ذَكَرُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْجِنَّ، أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ أَقْوَالِ سَلَفِهِمْ الْيُونَانِ، الَّذِينَ هُمْ أَبْعَدُ الْخَلْقِ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأُولَئِكَ قَدْ أَثْبَتُوا عُقُولًا عَشَرَةً يُسَمُّونَهَا: الْمُجَرَّدَاتِ وَالْمُفَارَقَاتِ.

= المعتزلة وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم أبو الهذيل العلاف كتابين وبين مذهبهم وبناه على الأصول الخمسة التي سموها العدل والتوحيد وإنفاذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولبسوا فيها الحق بالباطل إذ شأن البدع هذه اشتمالها على حق وباطل، وهم مشبهة الأفعال لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه -سبحانه-، وما يقبح من العباد يقبح منه، وقالوا يجب عليه أن يفعل كذا ولا يجوز له أن يفعل كذا بمقتضى ذلك القياس الفاسد.
انظر: الملل والنحل (١/ ٤٦)، ومنهاج السنة (٨/ ٥)، وشرح الطحاوية (ص٥٨٨).

(١) كلمة الناموس لها معان متعددة منها: الشرع الذي شرعه الله، ذكره الجرجاني في التعاريف (ص٦٨٩)، ومنها: أنه صاحب سِرِّ الرَّجُلِ الذي يُطْلِعُهُ على سِرِّه وباطن أَمْرِه ويَخُصُّهُ بما يَسْتُرُهُ عن غيره يقال: نَمَسَ يَنْمِسُ نَمْسًا ونامَسْتُهُ منامسةً إذا سَارَرْتُهُ، فَسُمِّي جبريلُ ناموسًا لأن اللَّه تعالى خَصَّهُ بالوَحْي، قال أبو عمرو الشيباني: الناموس سِرِّ الخَيْرِ والجاسوسُ صاحِبُ سِرِّ الشَّرِّ. ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث (٢/ ٤٣٧)، ومنها: أن الناموس مَكْمَن الصَّيَّاد فشُبِّه به موضِعُ الأسَد، وأن الناموس: المكرُ والخداع. ذكره ابن الأثير في النهاية (٥/ ٢٥١).

وَأَصْلُ ذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنْ مُفَارَقَةِ النَّفْسِ لِلْبَدَنِ، وَسَمَّوْا تِلْكَ الْمُفَارَقَاتِ لِمُفَارَقَتِهَا الْمَادَّةَ وَتَجَرُّدِهَا عَنْهَا. وَأَثْبَتُوا الْأَفْلَاكَ لِكُلِّ فَلَكٍ نَفْسًا، وَأَكْثَرُهُمْ جَعَلُوهَا أَعْرَاضًا، وَبَعْضُهُمْ جَعَلَهَا جَوَاهِرَ.

الشـــرح:

ما سبق يريد منه الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ أن يربط ما بين غلاة المتصوفة في مسألة الولاية وقول الفلاسفة؛ فإن غلاة المتصوفة أخذوا تفضيل الولي على النبي من الفلاسفة، والفلاسفة - كما سبق في الفصل الماضي - قالوا: إن الفيلسوف وصل إلى الحكمة بجهده، وأما النبي فوصل إليها بإعطاء. ومعلوم أن المجتهد أفضل من المعطى، وهؤلاء نظروا إلى جهة العمل؛ لأن الحكمة والفضل يرجع إلى جهتين: إلى قوة علمية، وإلى قوة عملية. فالفلاسفة فضلوا الفلاسفة والحكماء على الأنبياء من الجهة العلمية، والصوفية وغلاة المتصوفة فضلوا الأولياء على الأنبياء من الجهة العملية التي أساسها الجهة العلمية.

لكن طابع الفلاسفة غير طابع المتصوفة، طابع الفلاسفة شيء، والمتصوفة شيء آخر، سبب هذا التفضيل راجع إلى ما وصف شيخ الإسلام من أصول أقوال الفلاسفة، من فلاسفة اليونان أصلًا، والقول بوجودات مجردة، وكليات مجردة، وتصرفات للكواكب، أو تصرفات للعلل التي تنتج المعلولات، وأن إدراك هذه الحقائق الكلية وتأثيراتها في هذا الكون هو حقيقة الحكمة والعلم الذي يتفاضل به الناس، فالقوة مختلفة، فالقوة العلمية والعملية هذه هي أقوى الإدراكات، وكذلك القوة التخيلية التي بها

يُتخيل الأمر، فرجعوا بالنبوات إلى أنها اجتماع قوة علمية، وعملية، وتخيلية؛ فلهذا قالوا: إن أقوالنا ناتجة عن برهان، وأما الأنبياء والرسل فقالوا ما قالوا عن تخيل، والبرهان الذي أقاموه برهان خطابي، لا برهان عقلي؛ فإن ما جاء في النبوات من ذكر الجنة والنار، وذكر الغيبيات عندهم خطابية، والعقليات المجردة، وتصور أمثلة مجردة عن الواقع.

المقصود من هذا الصلة ما بين قول الفلاسفة الإسلاميين، والفلاسفة اليونانيين، ثم ما نتج من قول الصوفية.

وفي الحقيقة أن الصوفية لم يأخذوا هذا القول كما ذكر شيخ الإسلام أو ما ألمح إليه كلامه لم يأخذوه من الفلسفة الإسلامية، بل أخذوه من الفلسفة اليونانية، وأصل ذلك أن الفلسفة اليونانية والفلسفة القديمة لها قسمان:

النوع الأول: فلسفة علمية، وهذه المراد منها الوصول إلى حقائق الأشياء العلمية على ما هي عليه.

النوع الثاني: فلسفة عملية، والمراد منها الوصول بالروح إلى إشراقها؛ ولهذا صارت الفلسفة أقسامًا:

منها الفلسفة العلمية التي ذهب إليها أفلاطون وتلميذه أرسطو.

ومنها الفلسفة الإشراقية التي قال بها أفلاطين - أفلاطين غير أفلاطون - وقد دخلت هذه المذاهب إلى بلاد المسلمين وتلقفها من تلقفها.

فالفلسفة العلمية تلقفها العقلانيون من المعتزلة، فنشأ منها خليط ما عند أهل الاعتزال، وما عند الفلاسفة وما في النصوص، وسمي بعلم الكلام، فهو خليط من هذه الأشياء الثلاثة، عقيدة المعتزلة، والنصوص، والفلسفة

فنشأ علم الكلام من مجموع هذه الأشياء الثلاثة.

وأما الفلسفة العملية الإشراقية، فهذه أيضًا دخلت على المسلمين عن طريقين:

الأول: طريق الكتب المترجمة.

الثاني: مخالطة طائفة كبيرة من المسلمين للنصارى في أديرتهم في الشام وفي العراق وفي غيرها.

والفلسفة الإشراقية معناها الوصول بالروح إلى إشراقها، فتتعدى العالم المحسوس إلى العالم غير المحسوس، وهذا النوع هو الذي دخل في الصوفية، فنشأ الغلو في التصوف من جهة دخول فلسفة أفلوطين الإشراقية، ونشأ ما يُسمى بالسلوك -الضال- أو التصوف في خليط ما بين الزهد الشرعي وما بين الإشراق الفلسفي، وظهرت النظريات والأقوال المختلفة عند الصوفية الغالية من الاتحاد، والوحدة، والفناء... إلى آخره، نتيجة لهذا وصلوا كما وصل إليه الفلاسفة العلميون الإشراقيون إلى أن الإنسان قد يصل إلى مرتبة تكشف فيها الحجب، ويصل إلى ما وراء العالم المنظور... إلى آخر ما قالوا.

فمحصل القول عند الطائفتين: أن الفيلسوف صاحب الحكمة هو أفضل البشر، الفيلسوف العلمي العقلي أفضل من غيره، وهذا هو الذي قال به الفلاسفة مثل ابن سينا وجماعته، قالوا بتفضيل الفيلسوف على النبي لما ذكرنا في الفصل السابق.

والصوفية فضلوا الولي صاحب الإشراق على النبي؛ لأن النبي حجب بالحجب، وأما ذاك فإنه أشرق ففني عن مشاهدة السوي، ووصل إلى

مشاهدة الرب ﷻ وسماع كلامه، وأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي نقل إلى الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه -، ففُضلوا من جهة أنهم أخذوا بلا واسطة، وأما الأنبياء فإنهم أخذوا بواسطة.

فالمراد هنا بيان أصل الارتباط ما بين القول بتفضيل الولي على النبي في ربطه بالفلاسفة العلميين، وبالفلاسفة العمليين؛ كما سبق بيانه.

وَهَذِهِ الْمُجَرَّدَاتُ الَّتِي أَثْبَتُوهَا تَرْجِعُ عِنْدَ التَّحْقِيقِ إِلَى أُمُورٍ مَوْجُودَةٍ فِي الْأَذْهَانِ لا فِي الْأَعْيَانِ؛ كَمَا أَثْبَتَ أَصْحَابُ فِيثَاغُورْسَ(١) أَعْدَادًا مُجَرَّدَةً، وكَمَا أَثْبَتَ أَصْحَابُ أَفْلَاطُونَ(٢) الْأَمْثَالَ الأفلاطونية الْمُجَرَّدَةَ، أَثْبَتُوا هَيُولَى(٣) مُجَرَّدَةً عَنْ الصُّورَةِ، وَمُدَّةً وَخَلَاءً مُجَرَّدَيْنِ، وَقَدْ اعْتَرَفَ حُذَّاقُهُمْ بِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ فِي الْأَذْهَانِ لا فِي الْأَعْيَانِ.

فَلَمَّا أَرَادَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ - كَابْنِ سِينَا - أَنْ يُثْبِتَ أَمْرَ النُّبُوَّاتِ عَلَى أُصُولِهِمْ الْفَاسِدَةِ، وَزَعَمُوا أَنَّ النُّبُوَّةَ لَهَا خَصَائِصُ ثَلَاثَةٌ مَنْ اتَّصَفَ بِهَا فَهُوَ نَبِيٌّ.

---

(١) ابن منسارخس من أهل ساميا وقيل: كان في زمان سليمان النبي ابن داود عليهما السلام، له علم في الهندسة، والكيمياء، والسحر، وغيرها، وأصحاب فيثاغورس هم القائلون بالأعداد المجردة في الخارج.
انظر: الملل والنحل (٢/ ٧٤)، ومنهاج السنة النبوية (٥/ ٤٥٦)

(٢) أفلاطون بن أرسطن بن أرسطوقليس من أثينية [اليونان] تتلمذ على سقراط، ولما اغتيل سقراط بالسم ومات قام مقامه، وهو آخر المتقدمين الأوائل معروف بالفلسفة والحكمة كان قبل المسيح ﷺ بحوالي أربعة قرون. انظر: الملل والنحل (٢/ ٨٨).

(٣) الهيولي: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة، وفي الاصطلاح هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال محل للصورتين الجسمية والنوعية.
والهيولي في لغتهم بمعنى المحل، ويقال للفضة هيولي، والخاتم، والدرهم، والخشب هيولي الكرسي، أي هذا المحل الذي تصنع فيه هذه الصورة وهذه الصورة الصناعية عرض من الأعراض، ويدعون أن الجسم هيولي محل الصورة الجسمية غير نفس الجسم القائم بنفسه. انظر: التعريفات (ص٣٢١)، وشرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى (٢/ ٤٥).

الأول: أَنْ تَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ عِلْمِيَّةٌ - يُسَمُّونَهَا: الْقُوَّةَ الْقُدْسِيَّةَ - يَنَالُ بِهَا مِنْ الْعِلْمِ بِلَا تَعَلُّمٍ.

الثاني: أَنْ يَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ تَخَيُّلِيَّةٌ تُخَيِّلُ لَهُ مَا يَعْقِلُ فِي نَفْسِهِ، بِحَيْثُ يَرَى فِي نَفْسِهِ صُوَرًا، أَوْ يَسْمَعُ فِي نَفْسِهِ أَصْوَاتًا كَمَا يَرَاهُ النَّائِمُ وَيَسْمَعُهُ، وَلَا يَكُونُ لَهَا وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ، وَزَعَمُوا أَنَّ تِلْكَ الصُّوَرَ هِيَ مَلَائِكَةُ اللَّهِ، وَتِلْكَ الْأَصْوَاتُ هِيَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى.

الثالث: أَنْ يَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ فَعَّالَةٌ يُؤَثِّرُ بِهَا فِي هَيُولَى الْعَالَمِ، وَجَعَلُوا مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَخَوَارِقَ السَّحَرَةِ هِيَ قُوَى النَّفْسِ، فَأَقَرُّوا مِنْ ذَلِكَ بِمَا يُوَافِقُ أُصُولَهُمْ؛ مِنْ قَلْبِ الْعَصَا حَيَّةً دُونَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ وُجُودَ هَذَا.

وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي مَوَاضِعَ، وَبَيَّنَّا أَنَّ كَلَامَهُمْ هَذَا أَفْسَدُ الْكَلَامِ، وَأَنَّ هَذَا الَّذِي جَعَلُوهُ مِنْ الْخَصَائِصِ يَحْصُلُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ لِآحَادِ الْعَامَّةِ وَلِأَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي أَخْبَرَتْ بِهَا الرُّسُلُ أَحْيَاءٌ نَاطِقُونَ أَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، وَهُمْ كَثِيرُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]، وَلَيْسُوا عَشْرَةً وَلَيْسُوا أَعْرَاضًا، لا سِيَّمَا وَهَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الصَّادِرَ الْأَوَّلَ هُوَ الْعَقْلُ الْأَوَّلُ، وَعَنْهُ صَدَرَ كُلُّ مَا دُونَهُ، وَالْعَقْلُ الْفَعَّالُ الْعَاشِرُ رَبُّ كُلِّ مَا تَحْتَ فَلَكِ الْقَمَرِ.

وَهَذَا كُلُّهُ يُعْلَمُ فَسَادُهُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُبْدِعٌ لِكُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ.

وَهَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ الْعَقْلُ الْمَذْكُورُ فِي حَدِيثٍ يُرْوَى: «أَنَّ أَوَّلَ

مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ، فَقَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي مَا خَلَقْت خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْك، فَبِك آخِذُ، وَبِك أُعْطِي، وَلَك الثَّوَابُ، وَعَلَيْك الْعِقَابُ»[1]. وَيُسَمُّونَهُ أَيْضًا: الْقَلَمَ؛ لِمَا رُوِيَ: «إنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ»، الْحَدِيثَ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[2].

وَالْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرُوهُ فِي الْعَقْلِ كَذِبٌ مَوْضُوعٌ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَدِيثِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو حَاتِمٍ الْبُسْتِيُّ[3]، وَالدَّارَقُطْنِيّ، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ[4]، وَغَيْرُهُمْ. وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ دَوَاوِينِ الْحَدِيثِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، وَمَعَ هَذَا فَلَفْظُهُ لَوْ كَانَ ثَابِتًا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ لَفْظَهُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَقْلَ قَالَ لَهُ...»، وَيُرْوَى: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ...»، فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ خَاطَبَهُ فِي أَوَّلِ أَوْقَاتِ خَلْقِهِ؛ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَ(أَوَّلُ) مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِ كَمَا فِي اللَّفْظِ الْآخَرِ (لَمَّا)، وَتَمَامُ الْحَدِيثِ: «... مَا خَلَقْت خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْك...»، فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ خَلَقَ قَبْلَهُ غَيْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «... فَبِك آخُذُ، وَبِك أُعْطِي،

---

(١) أخرجه البيهقي بطرقه في الشعب (٤/ ١٥٤)، وهو عند الطبراني في الأوسط موصولًا من حديث أبي هريرة (٢/ ٢٣٥)، وفيه الفضل بن عيسى الرقاشي مجمع على ضعفه، وعنده أيضًا من حديث أبي أمامة (٧/ ١٩٠)، وفيه عمر بن أبي صالح مجهول.
وانظر لسان الميزان (٤/ ٣١٤)، والميزان (٥/ ٤٣٢)، وتخريج العراقي على الإحياء (١/ ٤٨). قال ابن القيم في المنار ص (٦٦)، وفي نقد المنقول (ص٦٠): أحاديث العقل كلها كذب.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧).

(٣) انظر: المجروحين لابن حبان (١/ ٣٤٣).

(٤) انظر: الموضوعات لابن الجوزي (١/ ١٧٤).

وَلَك الثَّوَابُ، وَعَلَيْك الْعِقَابُ»، فَذَكَرَ أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ مِنْ الْأَعْرَاضِ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ جَمِيعَ جَوَاهِرِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ صَدَرَ عَنْ ذَلِكَ الْعَقْلِ. فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟!

وَسَبَبُ غَلَطِهِمْ أَنَّ لَفْظَ الْعَقْلِ فِي لُغَةِ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ هُوَ لَفْظُ الْعَقْلِ فِي لُغَةِ هَؤُلَاءِ الْيُونَانِ، فَإِنَّ الْعَقْلَ فِي لُغَةِ الْمُسْلِمِينَ مَصْدَرُ عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، كَمَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] وَيُرَادُ بِالْعَقْلِ الْغَرِيزَةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْإِنْسَانِ يَعْقِلُ بِهَا. وَأَمَّا أُولَئِكَ فَالْعَقْلُ عِنْدَهُمْ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ كَالْعَاقِلِ، وَلَيْسَ هَذَا مُطَابِقًا لِلُغَةِ الرُّسُلِ وَالْقُرْآنِ.

وَعَالَمُ الْخَلْقِ عِنْدَهُمْ - كَمَا يَذْكُرُهُ أَبُو حَامِدٍ -[1]: عَالَمُ الْأَجْسَامِ الْعَقْلُ وَالنُّفُوسُ، فَيُسَمِّيهَا: عَالَمَ الْأَمْرِ، وَقَدْ يُسَمَّى الْعَقْلُ: عَالَمَ الْجَبَرُوتِ، وَالنُّفُوسُ: عَالَمَ الْمَلَكُوتِ، وَالْأَجْسَامُ: عَالَمَ الْمُلْكِ،

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي، تفقه ببلده أولًا ثم تحول إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة، فلازم إمام الحرمين، فبرع في الفقه في مدة قريبة ومهر في الكلام والجدل حتى صار عين المناظرين، له تصانيف كثيرة منها: إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، وغيرهما، رجع قبل موته للسنة، ومات وصحيح البخاري على صدره، توفي سنة ٥٠٥هـ.

انظر: ترجمته في تبيين كذب المفتري (ص٢٩١)، والمنتظم (٩/ ١٦٨)، ووفيات الأعيان (٤/ ٢١٦)، وسير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢)، والعبر (٤/ ١٠)، والوافي بالوفيات (١/ ٢٧٤)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٦/ ١٩١)، وشذرات الذهب (٤/ ١٠).

وَيَظُنُّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ لُغَةَ الرُّسُلِ وَلَمْ يَعْرِفْ مَعْنَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ ذِكْرِ الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ مُوَافِقٌ لِهَذَا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

وَهَؤُلَاءِ يُلَبِّسُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَلْبِيسًا كَثِيرًا، كَإِطْلَاقِهِمْ أَنَّ الْفَلَكَ مُحْدَثٌ، أَيْ: مَعْلُول، مَعَ أَنَّهُ قَدِيمٌ عِنْدَهُمْ، وَالْمُحْدَثُ لا يَكُونُ إلا مَسْبُوقًا بِالْعَدَمِ، وَلَيْسَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَلَا فِي لُغَةِ أَحَدٍ أَنَّهُ يُسَمَّى الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ مُحْدَثًا، وَاللَّهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ مُحْدَثٌ، وَكُلُّ مُحْدَثٍ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، لَكِنْ نَاظَرَهُمْ أَهْلُ الْكَلَامِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ مُنَاظَرَةً قَاصِرَةً لَمْ يُعَرِّفُوا بِهَا مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَلَا أَحْكَمُوا فِيهَا قَضَايَا الْعُقُولِ، فَلَا لِلْإِسْلَامِ نَصَرُوا، وَلَا لِلْأَعْدَاءِ كَسَرُوا، وَشَارَكُوا أُولَئِكَ فِي بَعْضِ قَضَايَاهُمْ الْفَاسِدَةِ، وَنَازَعُوهُمْ فِي بَعْضِ الْمَعْقُولَاتِ الصَّحِيحَةِ، فَصَارَ قُصُورُ هَؤُلَاءِ فِي الْعُلُومِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ مِنْ أَسْبَابِ قُوَّةِ ضَلَالِ أُولَئِكَ، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَهَؤُلَاءِ الْمُتَفَلْسِفَةُ قَدْ يَجْعَلُونَ جِبْرِيلَ هُوَ الْخَيَالُ الَّذِي يَتَشَكَّلُ فِي نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْخَيَالُ تَابِعٌ لِلْعَقْلِ، فَجَاءَ الْمَلَاحِدَةُ الَّذِينَ شَارَكُوا هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةَ الْمُتَفَلْسِفَةَ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَأَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ عَنْ اللَّهِ بِلَا وَاسِطَةٍ؛ كَابْنِ عَرَبِيٍّ صَاحِبِ «الْفُتُوحَاتِ» وَ«الْفُصُوصِ»، فَقَالَ: إنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ الْمَعْدِنِ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُوحِي بِهِ إلَى الرَّسُولِ، وَالْمَعْدِنُ عِنْدَهُ هُوَ الْعَقْلُ، وَالْمَلَكُ هُوَ الْخَيَالُ، وَالْخَيَالُ تَابِعٌ لِلْعَقْلِ،

وَهُوَ بِزَعْمِهِ يَأْخُذُ عَنْ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْخَيَالِ، وَالرَّسُولُ يَأْخُذُ عَنْ الْخَيَالِ؛ فَلِهَذَا صَارَ عِنْدَ نَفْسِهِ فَوْقَ النَّبِيِّ، وَلَوْ كَانَ خَاصَّةُ النَّبِيِّ مَا ذَكَرُوهُ لَمْ يَكُنْ هُوَ مِنْ جِنْسِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فَوْقَهُ، فَكَيْفَ وَمَا ذَكَرُوهُ يَحْصُلُ لِآحَادِ الْمُؤْمِنِينَ؟! وَالنُّبُوَّةُ أَمْرٌ وَرَاءَ ذَلِكَ، فَإِنَّ ابْنَ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالَهُ وَإِنْ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مَنَّ الصُّوفِيَّةِ فَهُمْ مِنْ صُوفِيَّةِ الْمَلَاحِدَةِ الْفَلَاسِفَةِ، لَيْسُوا مِنْ صُوفِيَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِنْ مَشَايِخِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ كَالْفُضَيْلِ ابْنِ عِيَاضٍ(١)، وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ(٢)، وَأَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ(٣)، وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِيِّ(٤)، وَالْجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ(٥)، وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، أبو علي، ولد بسمرقند وسكن مكة وصار شيخ الحرم المكي، كان ثقة عابدًا إمامًا كثير الحديث، قال ابن المبارك: ما بقي على ظهر الأرض أفضل من الفضيل، وقال شريك: «الفضيل حجة لأهل زمانه» توفي بمكة سنة١٨٧هـ. انظر: تاريخ دمشق (٤٨/ ٣٧٥)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٤٥)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٩٨)، وتهذيب التهذيب (٨/ ٢٦٥).

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي، وقيل التميمي، أبو إسحاق البلخي الزاهد سكن الشام، من أتباع التابعين، أصله من بلخ ثم انتقل إلى الشام توفي سنة١٦٢هـ انظر: تاريخ دمشق (٦/ ٢٧٧)، والثقات لابن حبان (٦/ ٢٤)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٣٥).

(٣) سبقت ترجمته (ص١٧٨).

(٤) معروف بن الفيرزان المشهور بالكرخي، أبو محفوظ من عباد أهل العراق وقرائهم ممن له الحكايات الكثيرة في كرامته واستجابة دعائه، أحد المشتهرين بالزهد والعزوف عن الدنيا، كان من رفقاء بشر بن الحارث، توفي سنة ٢٠٠هـ.
انظر: الثقات لابن حبان (٩/ ٢٠٦)، وتاريخ بغداد (١٣/ ١٩٩)، والمنتظم لابن الجوزي (١٠/ ٨٨).

(٥) سبقت ترجمته (ص١٤٤).

التُّسْتَرِيِّ[١]، **وَأَمْثَالِهِمْ، رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.**

الشـــرح:

المقصود من هذا الصلة بما سبق الكلام عليه من الفرق ما بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وكرامات الأولياء، ومخاريق السحرة، ومعجزات الأنبياء؛ فإن الخوارق - كما سبق - التي تحصل في الأرض ثلاثة أصناف:

الأول: خوارق للأنبياء: وهذه تسمى آيات وبراهين، وآيات الأنبياء قسمان: آيات كبرى وآيات صغرى.

الثاني: كرامات الأولياء، وهذه تكون من الآيات الصغرى للأنبياء، أو من جنس الآيات الكبرى مع اختلافها معها في الذات والقدر والصفة.

الثالث: مخاريق شيطانية، وهي ما تجري على أيدي السحرة والكهنة، على أيدي أتباع الشياطين، وهذه ليست من الله ﷻ إمدادًا لهم وإنما هي من الشياطين ابتلاءً لهم.

فالأول آيات وبراهين، والثاني كرامات، والثالث خوارق شيطانية.

أما آيات الأنبياء، فإنها تشبه كرامات الأولياء ولا تشبه مخاريق السحرة

---

(١) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري، له كلمات نافعة ومواعظ حسنة وقدم راسخ في الطريق، سئل إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال: حتى يموت ويصب باقي حبره في قبره، توفي سنة ٢٨٣هـ.

انظر: ترجمته في حلية الأولياء (١٠/ ١٨٩)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٤٢٦)، وصفة الصفوة (٤/ ٦٤)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠)، وشذرات الذهب (٢/ ١٨٢).

والشياطين والكهنة، فربنا ﷻ قال في وصف الآيات التي أعطاها نبيه محمدًا ﷺ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، فدل على انقسام آيات الله ﷻ إلى آيات كبرى، وما هو أدنى من ذلك صغرى وغيرها.

كذلك قوله ﷻ في موسى عليه السلام: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠]، فدل بالمفهوم على أن هناك آيات دون ذلك.

فالآيات الكبرى هذه لا يشركهم فيها حتى الأولياء، لا يمكن أن يعطى الولي آية كبرى؛ لأن هذه الآية الكبرى دليل نبوة النبي، ودليل رسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام، أما الآيات الصغرى، مثل: نبع الماء القليل -مثلًا- من الأصابع، أو سماع الأخبار، أو المشي على الماء، أو تكثير الطعام القليل، أو أشباه ذلك، هذه آيات تحصل للأنبياء وتحصل للأولياء، وأما الآيات الكبرى فإنالولي قد يحصل له ما هو من جنسها، لكن لا يماثلها قدرًا ولا ذاتًا ولا صفة، مثل النار التي جُعلت لإبراهيم عليه السلام فأنجاه الله منها، والنار التي جعلت لأبي مسلم الخولاني في نجد[1] فأنجاه الله منها، فما بين النار والنار فرق، وما بين الصفة والصفة فرق، وما بين سبيل النجاة وسبيل النجاة فرق.

فإذًا بهذا التفصيل يُرد على إشكال من قال: إنه لا كرامة للولي؛ لأنه لو قلنا بالكرامات لاشتبهت خوارق الأنبياء وآياتهم بكرامات الأولياء. كما هو مذهب المعتزلة، وابن حزم، وجماعة ممن أنكروا كرامات الأولياء، وأنكروا الخوارق. وكذلك يبطل قول من قال: إن كل خارق يحصل لحكيم أو ولي فإنها قد تحصل للشياطين، لكن ما يحصل للشياطين فليس معجزًا

---

(١) انظر: (ص٣٣٣).

إلا لمن لم يكن مثلهم، أما من كان مثلهم فإنه لا يعجز؛ لأنه ليس بإقداره هو وإنما بمقدرته، يعني: أن الشياطين أعطته ذلك، حصل له ذلك بالسحر بالكهانة، أما الكرامة فهي من الله ﷻ لعبده، فالسحرة - مثلًا - الذين جاءوا لموسى بسحر عظيم واسترهبوا الناس، هؤلاء سحرهم العظيم، إنما كان خارقًا على من لم يكن ساحرًا، أما من كان ساحرا فليس عليه بخارق.

وأما أهل الكرامات؛ فإن جنس كراماتهم تختلف ما بين ولي وولي، وما بين مكرم بهذه الكرامة وآخر، وكل أجناسها يكون خارقًا لناس زمانهم، وقد يكون حصل لناس في الزمن الأول كرامة هي في وقتنا الحاضر ليست كرامة؛ لأنها تحصل لآحاد الناس، مثل الطيران في الهواء ومثل المشي على الماء، وأشباه ذلك، أو يكون في الشتاء القارس بملابس خفيفة، قد يحصل هذا الآن لاختلاف الزمن. فإذًا كرامة الولي تحصل خارقة لناس زمانهم، وليس للناس جميعًا، أو للإنس والجن جميعًا، وإنما لناس زمانه، يعني في أرضه ومن عنده، ليدل ما حصل له على كرامته على الله ﷻ.

أما خوارق الأنبياء وآياتهم وبراهينهم الكبرى؛ فإنها خارقة لعادة الجن والإنس جميعًا؛ ولهذا ينبغي أن يضبط قول من قال: خارق للعادة في الكرامات، أو في الخوارق، أو في آيات الأنبياء، أو في المعجزات.

خارق للعادة: العادة هذه عادة من؟ فإن فَسرت بأنها عادة الجن والإنس جميعًا فيكون الخارق آية وبرهانًا لنبي، قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فجعلها معلقة بالجن والإنس جميعًا. وأهل الكرامات تكون كراماتهم خارقًا لعادة الناس في بلدهم وزمانهم، وقد لا يكون خارقًا

بالنسبة لأناس في طرف من الأرض آخر، مثل كونه يحضر له عنب في وقت الصيف أو في وقت الشتاء، هذا بالنسبة لأهل مكة ليس عندهم بخارق، لكن لو تذهب لبلد آخر قد يكون خارقًا؛ ولهذا ينبغي أن يقيد خرق العادة بهذا.

أما السحرة والكهنة والخوارق الشيطانية فتقيد بأنها خارقة لعادة من لم يكن مثلهم، يعني من الناس من لم يكن ساحرًا، ولا يدخل في ذلك من هو أعلى منهم قدرًا في المعجزات والبراهين، مثل الأنبياء.

مقصود شيخ الإسلام مما مر إثبات الكرامات، وأن الكرامة إنما هي أعطية ولي، وأن جنس الخوارق قد يحصل للشياطين، وأن قول طائفة من الصوفية أو أكثر الصوفية على أن كل خارق دليل على كرامة، أن هذا غلط.

كذلك من شاركهم في ذلك مثل الفلاسفة وأشباه الفلاسفة الذين قالوا: إن الخوارق تحصل بالرياضات، فإذا اجتمعت القوة العلمية والتخيلية والفعلية صار للعبد الخوارق، وأن هذه تحصل بالرياضات والجوع والسهر، فبالعلم تحصل القوة العلمية بانكشاف المعلومات، وبالجوع والسهر تحصل القوة التخيلية، وصدق من قال: أنها تحصل القوة التخيلية؛ كما قال الذهبي في السير وفي غيرها بأنهم إذا أداموا الجوع وأدمنوا السهر فإن العقل ينقلب والإدراك يختلف، فقد يتصورون أشياء، يتخيلون صورًا يسمونها ملائكة، ويسمعون أصواتًا من جراء اضطراب أبدانهم وعقولهم، فيجعلونها نداءً من الملأ الأعلى، وهي الشياطين أغوتهم أو خاطبتهم، إلى غير ذلك.

فهذا فرقان عظيم ما بين ما يعطاه الولي من الكرامة، وما يكون عند الكهنة

وأولياء الشياطين من الخوارق، أو ما يكون عند الفلاسفة من الخوارق.

الفلاسفة يقولون: لا فرق؛ فإنها تحصل، النبوة علم وعمل، علم قوة علمية، وعمل: قوة فعلية، وتخيلات. هذا يحصل للفيلسوف ويحصل للنبي، فالأنبياء إنما هم فلاسفة جاءوا لإصلاح العالم. نسأل الله ﷻ العفو والعافية، وعليهم من الله ما يستحقون، معلوم أن الفرق كبير جدًا بين هذا وهذا، لا يستوي الليل والنهار.

ونبه شيخ الإسلام على مسألة مهمة، وهي أن المصنف في علم قد يستخدم عبارات يتلقاها المتلقي بما عنده من معنى هذه العبارات، والمصنف عنى بها معنى آخر، فيصبح يردد كلام هذا المؤلف أو هذا الذي قرأ كلامه، والمراد مختلف، مثل قول الفلاسفة: إن هذا العالم محدث. أو قولهم في العقل، العقل عندهم غير العقل عند العرب، غير العقل الذي جاء في الكتاب والسنة. فالعقل في منطق اليونان وفلسفة اليونان ومن ورث فلسفتهم له معنى آخر غير العقل في النصوص، فالعقل في النصوص له مراد والعقل هناك له مراد آخر؛ ولهذا لما جاء أهل الكلام راموا الجمع ما بين الفلسفة والشريعة، فظنوا أن العقل هناك هو العقل في النصوص، فجمعوا بينهما على ما ترون بما سمي علم الكلام، فعلم الكلام خليط ما بين فهم الفلسفة وما بين فهم الشريعة، والجامع المشترك عندهم الألفاظ التي جاءت هنا وهنا، مثل ما نبه شيخ الإسلام. فإذًا استعمال لفظ في معنى لم يرده من استعمله فيه هذا لا شك أنه يحدث جنايات، وهذا من أنواع استعمال المصطلحات التي تحدث جنايات في الأمة. كذلك لفظ المحدث يقول الفلاسفة مثلًا: هذا العالم محدث. نحن قد نستعمل لفظ محدث ونريد به أنه مخلوق، خُلق وأُحدث من غير مثال سابق.

وهم يريدون بكلمة محدث أنه معلول؛ لأن المحدث عندهم لا بد أن يكون عن علة أحدثته، فإذا قالوا: العالم محدث، لا يعنون أنه مخلوق، وإنما يعنون أنه معلول لعلة سبقته، والعلة سبقتها علة إلى أن نأتي إلى العقل الفعال، ثم إلى العقل الأول الذي صدرت عنه العلل ومعلولات العلل.

فهذا يعطيك تحسبًا في أن استعمال الألفاظ الشرعية لا بد منه، بل هو المتعين وأن طالب العلم إذا احتاج استعمال ألفاظ القوم فلا بد أولًا أن يفهم المراد منها، ثم المراد منها لغة في استعمال غيرهم، ثم ينزلها منزلتها اللائقة بها، أما أن يسمع لفظًا ثم يستعمله بدون معرفة لأبعاده ومعنى الاستعمال الأول له، هذا يُحدث فسادًا، ويُحدث خللًا، مثل الألفاظ التي تستخدم الآن محدثة، قد يستعملها المرء ويظن أنها سليمة، ولكن مراد الأول غير مراد الثاني بها، فأنت تنشر لفظًا أريد به باطل لفهمك به فهما صحيحًا، هذا ليس سليمًا؛ لأن المتلقي له قد يفهمه فهم الأول أو قد ينشره في الناس على الفهم الأول، فتصبح أنت ناقل لمصطلحات الناس، مثل لو قلنا في الناس: إن الله ﷻ ليس بجسم، فإنه يدخل فيه من قال: إن الله لا يتصف بالصفات؛ لأنه ليس بجسم. هذه كلمة يُراد نفيها ولم يرد إثباتها، فالألفاظ المحدثة كثيرة والمصطلحات في هذا متنوعة.

فإذًا استعمال لفظ العقل في النصوص غير العقل عند الفلاسفة، استخدام لفظ الخارق عند أهل السنة غير الخارق عند الصوفية، غير الخارق عند الفلاسفة، واستخدام لفظ النبوة عند أهل السنة غير النبوة عند الفلاسفة، والميعاد عندنا غير الميعاد عند الفلاسفة، والوحي عندنا غير الوحي عندهم. فإذًا معنى كل كلمة لا بد لها من استدلالات، وبعض المعاصرين فيمن قرأنا بعض كتاباتهم لم يفهموا هذا فهمًا جيدًا، فأصبحوا ينقدون بعض

كلام شيخ الإسلام، أو كلام بعض المحققين، يقولون: بل نص فلان في كتابه الفلاني على أن العالم محدث، وقال: إنه أقر بالنبوة، أو أن ابن سينا أقر بالميعاد، ولا يعرف معنى كلمة الميعاد حيث وردت، ومعنى كلمة النبوة حيث وردت، وكلمة العقل حيث وردت، إلى آخره.

فإذًا فهم معنى كلام المتكلم هذا غير استعماله للعبارات، وقد يستعمل عبارة لها مدلول خاص عنده، والمدلول يختلف عندنا، فمحاكمته على مدلولاته لا على ما عندنا، واختلاط اللغات في العلم يسبب خللًا في الفهم والتقويم والإدراك.

وَاللَّهُ تعالى قَدْ وَصَفَ الْمَلَائِكَةَ فِي كِتَابِهِ بِصِفَاتٍ تُبَايِنُ قَوْلَ هَؤُلَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]

وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ جَاءَتْ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي صُورَةِ الْبَشَرِ، وَأَنَّ الْمَلَكَ تَمَثَّلَ لِمَرْيَمَ بَشَرًا سَوِيًّا، وَكَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَأْتِي النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ[1]، وَفِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ، وَيَرَاهُمُ النَّاسُ كَذَلِكَ[2].

(١) دحية بن خليفة بن فروة الكلبي من كبار الصحابة لم يشهد بدر وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وشهد اليرموك، وبقي إلى خلافة معاوية رضي الله عنه، وحدث بأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر: الاستيعاب (١/ ١٣٧)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٥٠).

(٢) من ذلك ما رواه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١) «أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِأُمِّ سَلَمَةَ مَنْ هَذَا؟ أَوْ كَمَا قَالَ قَالَتْ: هَذَا =

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى جِبْرِيلَ عليه السلام **بِأَنَّهُ:** ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١]، **وَأَنَّ مُحَمَّدًا** ﷺ ﴿رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] **ووصفه بأنه** ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝﴾ [النجم: ٥ - ١٨].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[١] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها **عَنْ النبي** ﷺ **أَنَّهُ لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ مَرَّتَيْنِ، يَعْنِي: الْمَرَّةَ الْأُولَى بِالأُفُقِ الْأَعْلَى، وَالنَّزْلَةَ الْأُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَوَصَفَ جِبْرِيلَ** عليه السلام **فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِأَنَّهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ[٢]، وَأَنَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ[٣]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الْأَحْيَاءِ الْعُقَلَاءِ، وَأَنَّهُ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَيْسَ خَيَالًا فِي نَفْسِ النَّبِيِّ، كَمَا زَعَمَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ الْمُتَفَلْسِفَةُ وَالْمُدَّعُونَ وِلَايَةَ اللَّهِ وَأَنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ.**

= دِحْيَةُ. فَلَمَّا قَامَ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا حَسِبْتُهُ إِلَّا إِيَّاهُ حَتَّى سَمِعَتْ خُطْبَةَ النَّبِيِّ ﷺ يُخْبِرُ خَبَرَ جِبْرِيلَ». وعند مسلم (١٦٧) بلفظ: «وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السلام فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دَحْيَةُ».

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

(٢) كما قال جل جلاله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٣]

(٣) كما قال جل جلاله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

وَغَايَةُ حَقِيقَةِ هَؤُلَاءِ إِنْكَارُ أُصُولِ الْإِيمَانِ؛ بِأَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَحَقِيقَةُ أَمْرِهِمْ جَحْدُ الْخَالِقِ، فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ وُجُودُ الْخَالِقِ، وَقَالُوا: الْوُجُودُ وَاحِدٌ، وَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَالْوَاحِدِ بِالنَّوْعِ، فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ، كَمَا تَشْتَرِكُ الْأَنَاسِيُّ فِي مُسَمَّى الْإِنْسَانِ، وَالْحَيَوَانَاتُ فِي مُسَمَّى الْحَيَوَانِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْمُشْتَرَكَ الْكُلِّيَّ لا يَكُونُ مُشْتَرَكًا كُلِّيًّا إلا فِي الذِّهْنِ، وَإِلَّا فالحيوانية الْقَائِمَةُ بِهَذَا الْإِنْسَانِ لَيْسَتْ هِيَ الْحَيَوَانِيَّةُ الْقَائِمَةُ بِالْفَرَسِ، وَوُجُودُ السَّمَوَاتِ لَيْسَ هُوَ بِعَيْنِهِ وُجُودُ الْإِنْسَانِ، فَوُجُودُ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ لَيْسَ هُوَ كَوُجُودِ مَخْلُوقَاتِهِ.

وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ قَوْلُ فِرْعَوْنَ الَّذِي عَطَّلَ الصَّانِعَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُنْكِرًا هَذَا الْوُجُودَ الْمَشْهُودَ؛ لَكِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ بِنَفْسِهِ لا صَانِعَ لَهُ، وَهَؤُلَاءِ وَافَقُوهُ فِي ذَلِكَ، لَكِنْ زَعَمُوا بِأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، فَكَانُوا أَضَلَّ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ هَذَا هُوَ أَظْهَرُ فَسَادًا مِنْهُمْ؛ وَلِهَذَا جَعَلُوا عُبَّادَ الْأَصْنَامِ مَا عَبَدُوا إلا اللَّهَ وَقَالُوا: لَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ فِي مَنْصِبِ التَّحَكُّمِ صَاحِبَ السَّيْفِ، وَإِنْ جَارَ فِي الْعُرْفِ النَّامُوسِي كَذَلِكَ قَالَ: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى، أَيْ: وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ أَرْبَابًا بِنِسْبَةٍ مَا فَأَنَا الْأَعْلَى مِنْكُمْ بِمَا أُعْطِيته فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْحُكْمِ فِيكُمْ.

قَالُوا: وَلَمَّا عَلِمَتْ السَّحَرَةُ صِدْقَ فِرْعَوْنَ فِيمَا قَالَهُ أَقَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ وَقَالُوا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه: ٧٢].

وَكَانَ فِرْعَوْنُ عَيْنَ الْحَقِّ[1]، ثُمَّ أَنْكَرُوا حَقِيقَةَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَجَعَلُوا أَهْلَ النَّارِ يَتَنَعَّمُونَ كَمَا يَتَنَعَّمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَصَارُوا كَافِرِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، مَعَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ خُلَاصَةُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ مِنْ أَهْلِ وِلَايَةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ إنَّمَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ مِنْ مِشْكَاتِهِمْ.

الشـــرح:

هذا الكلام واضح في استطراده لبيان معتقد غلاة المتصوفة من أصحاب وحدة الوجود، مثل: ابن عربي الطائي وأمثاله، وهؤلاء قالوا: إن الوجود واحد، وهذا الوجود إنما هو وجود الله ﷻ، وينقسم إلى: وجود مقصود، ووجود غير مقصود، وأن وجود الله ﷻ هو الأصل، وأن وجود غيره هو وجوده ﷻ، فصار الأمر إلى أن الوجود واحد.

والوجود من حيث هو صفة لا توجد في الظاهر، لا توجد فيما ترى خارج الأذهان إلا مضافة إلى متصف بها، مثل المعاني العامة؛ فإنها لا توجد من حيث هي عامة إلا في الأذهان، فلا يوجد في الخارج شيء اسمه الكلام، أو شيء اسمه الوجود، أو شيء اسمه الحياة، هكذا بدون موجود، أو متكلم، أو حي، إنما يوجد هذا في الرأس والذهن والتصور، لكنها في خارج الأذهان في الواقع لا بد أن تضاف إلى متصف بها. فالاشتراك في المعنى الكلي لا يعني الاشتراك في المعنى الإضافي، فالمعنى الكلي يشترك فيه كل موجود، ولكن لكلٍ وجود يناسبه، وإذا تفرقت الأشياء بالوجود الذي

---

(١) هذا الكلام لابن عربي قاله في فصوص الحكم (١/ ٢١٠) بلفظ قريب منه.

يناسب كل شيء على حدة؛ فإن معنى ذلك أن الأشياء تغايرت وتباينت بالذات، مثل الإنسان والفرس يشتركان في معنى الحيوانية، وهي الحياة المتحركة، فالحياة والحركة يقال للحي المتحرك، يعني: أن الإنسان والفرس اشتركا في هذه الصفة، لكن الحياة والحركة التي هي الحيوانية ليست موجودة في الخارج بدون متصف بها، فهل يُقال: إن الإنسان والحيوان شيء واحد من جهة صفة الحياتية؟

هذا لايوجد قائل به حتى أصحاب وحدة الوجود، لكنهم يقولون من جهة صفة الوجود: نعم، وهذا في الحقيقة راجع إلى شيء وهو أن أصحاب وحدة الوجود أخذوا هذه الأقوال من الجهمية، الذين لا يؤمنون إلا بصفة واحدة لله ﷻ وهي صفة الوجود، فلما لم يصفوا الله بشيء، وكانت صفة وجود المخلوق مشكلة على إثبات وجود الله ﷻ، جعلوا الخالق عين المخلوق، والمخلوق عين الخالق من جهة الوجود، حتى فرعون جعلوه رمزًا و صفة من صفات وجود الله ﷻ؛ لأنه قال: ما علمت لكم من إله غيري، وقال: أنا ربكم الأعلى. ومن هذا المنطلق، أو من هذا المبدأ والأصل أخذه النصيرية، وأخذه الدروز، وأصحاب التناسخ، والنصارى في أن هذا وهذا اتحدا وكانا شيئًا واحدًا. وتفصيل الكلام على مقالهم؛ كما قال شيخ الإسلام، ليس هذا موضعه وإنما المقصود بيان فساد مذهبهم وعقيدتهم.

وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِ إِلْحَادِ هَؤُلَاءِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ ادِّعَاءً لِوِلَايَةِ اللَّهِ، وَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وِلَايَةً لِلشَّيْطَانِ، نَبَّهْنَا عَلَى ذَلِكَ.

وَلِهَذَا عَامَّةُ كَلَامِهِمْ إِنَّمَا هُوَ فِي الْحَالَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ «الْفُتُوحَاتِ»: بَابُ أَرْضِ الْحَقِيقَةِ، وَيَقُولُونَ: هِيَ أَرْضُ الْخَيَالِ. فَتُعْرَفُ بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ فِيهَا هِيَ خَيَالٌ وَمَحَلُّ تَصَرُّفِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُخَيِّلُ لِلْإِنْسَانِ الْأُمُورَ بِخِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ

ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨].

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلَائِكَةَ»(١)، وَالشَّيَاطِينُ إِذَا رَأَتْ مَلَائِكَةَ اللَّهِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا عِبَادَهُ هَرَبَتْ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَلَائِكَتِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥].

وَهَؤُلَاءِ تَأْتِيهِمْ أَرْوَاحٌ تُخَاطِبُهُمْ وَتَتَمَثَّلُ لَهُمْ وَهِيَ جِنٌّ وَشَيَاطِينُ، فَيَظُنُّونَهَا مَلَائِكَةً، كَالْأَرْوَاحِ الَّتِي تُخَاطِبُ مَنْ يَعبد الكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ، وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ مَا ظَهَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي الْإِسْلَامِ: الْمُخْتَارُ

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ٤٢٢) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز، أن رسول الله ﷺ قال: «مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا، هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَدْحَرُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَغْيَظُ، مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ، وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ، إِلَّا مَا أُرِيَ يَوْمَ بَدْرٍ. قِيلَ وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلَائِكَةَ». أي يصفهم للقتال. وهو حديث مرسل. وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤/ ٣٧٨)، والطبري في التفسير (١٠/ ١٩)، وأخرجه البيهقي في الشعب (٣/ ٤٦١).

ابْنُ أبي عُبَيْدٍ[(١)] الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «سَيَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»[(٢)]، وَكَانَ الْكَذَّابُ: الْمُخْتَارَ بْنَ أبي عُبَيْدٍ، وَالْمُبِيرُ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ[(٣)]، فَقِيلَ لِابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ: إنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُنَزَّلُ إلَيْهِ، فَقَالَا: صَدَقَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[(٤)] [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، **وَقَالَ الْآخَرُ، وَقِيلَ لَهُ إنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إلَيْهِ، فَقَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:** ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ

---

(١) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو إسحاق كان أبوه من أجلة الصحابة، ولد المختار عام الهجرة، وليست له صحبة ولا رواية، وأخباره أخبار غير مرضية، حكاها عنه ثقات، وذلك منذ طلب الإمارة إلى أن قتله مصعب بن الزبير بالكوفة سنة ٧٧هـ، وكان قبل ذلك معدود في أهل الفضل والخير، يرائي بذلك كله، ويكتم الفسق، فظهر منه ما كان يضمر. والله أعلم انظر: الاستيعاب (١/ ٤٦٠)، والإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٣٤٩)، ولسان الميزان (٦/ ٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٥).

(٣) الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل أبو محمد الثقفي ولاه عبد الملك الحجاز فقتل ابن الزبير، ثم عزله عنها وولاه العراق، أهلكه الله في رمضان سنة ٩٥هـ كهلًا وكان ظلومًا جبارًا سافكًا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله وله توحيد في الجملة قاله الذهبي. انظر: تاريخ دمشق (١٢/ ١١٣)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣)، والبداية والنهاية (٩/ ١٣٢).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٨/ ٢٠) من حديث ابن عباس ﵄، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٨٩) من حديث عبد الله بن الزبير ﵄، ورواه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٣) من حديث ابن عمر ﵄.

﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ الشَّيْطَانِيَّةُ هِيَ الرُّوحُ الَّذِي يَزْعُمُ صَاحِبُ «الْفُتُوحَاتِ» أَنَّهُ أُلْقِيَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ، وَلِهَذَا يَذْكُرُ أَنْوَاعًا مِنْ الْخَلَوَاتِ بِطَعَامٍ مُعَيَّنٍ وَشَيْءٍ مُعَيَّنٍ، وَهَذِهِ مِمَّا تَفْتَحُ لِصَاحِبِهَا اتِّصَالًا بِالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، فَيَظُنُّونَ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَأَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ عَدَدًا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْمَلُ فِي الْهَوَاءِ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ وَيَعُودُ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُؤْتَى بِمَالٍ مَسْرُوقٍ تَسْرِقُهُ الشَّيَاطِينُ وَتَأْتِيه بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَتْ تَدُلُّهُ عَلَى السَّرِقَاتِ بِجُعْلٍ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ النَّاسِ، أَوْ بِعَطَاءٍ يُعْطَوْنَهُ إذَا دَلَّهُمْ عَلَى سَرِقَاتِهِمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَلَمَّا كَانَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ شَيْطَانِيَّةً كَانُوا مُنَاقِضِينَ لِلرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ صَاحِبِ «الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ»، و«الْفُصُوصِ»، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ، يَمْدَحُ الْكُفَّارَ مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَفِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِمْ، وَيَتَنَقَّصُ الْأَنْبِيَاءَ: كَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَهَارُونَ، وَيَذُمُّ شُيُوخَ الْمُسْلِمِينَ الْمَحْمُودِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ: كَالْجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيِّ(١)، وَيَمْدَحُ الْمَذْمُومِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ: كَالْحَلَّاجِ(٢) وَنَحْوِهِ، كَمَا

---

(١) سبقت ترجمة الجنيد (ص١٤٤)، وترجمة سهل (ص٢٣٦).

(٢) الحلاج هو الحسين بن منصور بن مَحْمِي أبو عبد الله ويقال: أبو مغيث، نشأ بواسط، وقيل بتستر، وقدم بغداد، كانت له بداية جيدة، وتأله وتصوف، ثم انسلخ من الدين، وتعلم السحر، وأراهم المخاريق، أباح العلماء دمه وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء لسوء سيرته ومروقه، ومنهم من نسبه إلى الحلول، ومنهم من نسبه إلى الزندقة =

ذَكَرَهُ فِي تَجَلِّيَاتِهِ الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْجُنَيْد - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى، فَسُئِلَ عَنْ التَّوْحِيدِ فَقَالَ: التَّوْحِيدُ إفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقِدَمِ.

فَبَيَّنَ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْمُحْدَثِ، وَبَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ. وَصَاحِبُ «الْفُصُوصِ» أَنْكَرَ هَذَا، وَقَالَ فِي مُخَاطَبَتِهِ الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ لَهُ: يَا جُنَيْدُ! هَلْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُحْدَثِ وَالْقَدِيمِ إلا مَنْ يَكُونُ غَيْرَهُمَا؟ فَخَطَّأَ الْجُنَيْد فِي قَوْلِهِ: (إفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقِدَمِ)؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ هُوَ: إنَّ وُجُودَ الْمُحْدَثِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْقَدِيمِ، كَمَا قَالَ فِي «فُصُوصِهِ»: وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى: الْعَلِيُّ، عَلَى مَنْ؟ وَمَا ثَمَّ إلا هُوَ وَعَنْ مَاذَا؟ وَمَا هُوَ إلا هُوَ، فَعَلُوهُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ عَيْنُ الْمَوْجُودَاتِ، فَالْمُسَمَّى مُحْدَثَاتٌ هِيَ الْعَلِيَّةُ لِذَاتِهِ وَلَيْسَتْ إلا هُوَ.. إلَى أَنْ قَالَ: هُوَ عَيْنُ مَا بَطَنَ، وَهُوَ عَيْنُ مَا ظَهَرَ، وَمَا ثَمَّ مِنْ يَرَاهُ غَيْرُهُ، وَمَا ثَمَّ مَنْ يَنْطِقُ عَنْهُ سِوَاهُ، وَهُوَ الْمُسَمَّى أَبُو سَعِيدٍ الْخَرَّازُ[1]. وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْمُحْدَثَاتِ.

= وقد تستر به طائفة من ذوي الضلال والانحلال، وانتحلوه وروجوا به على الجهال. نسأل الله العصمة في الدين، قاله الذهبي، قتل سنة ٣٥٩هـ. انظر: تاريخ بغداد (٨/ ١١٢)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٣١٣)، ولسان الميزان (٢/ ٣١٤).

(١) هو أحمد بن عيسى، أبو سعيد الخراز ينسب إلى خرز الجلود، صحب ذا النون المصري، وبشر الحافي، والسري السقطي، كان من كبار أئمة الصوفية، له تصانيف في علومهم، ويقال عنه أول من تكلم في الفناء والبقاء، توفى سنة ٢٨٦هـ، وقيل: ٢٧٧هـ. انظر: الحلية (١٠/ ٢٤٦)، وتاريخ بغداد (٤/ ٢٧٦)، وتاريخ دمشق (٥/ ١٢٩)، والبداية والنهاية (١١/ ٥٨).

فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُلْحِدِ: لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْمُمَيِّزِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ بِالْعِلْمِ وَالْقَوْلِ أَنْ يَكُونَ ثَالِثًا غَيْرَهُمَا، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ النَّاسِ يُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَلَيْسَ هُوَ ثَالِثٌ، فَالْعَبْدُ يَعْرِفُ أَنَّهُ عَبْدٌ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ خَالِقِهِ، وَالْخَالِقُ ﷻ يُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَنَّهُمْ عِبَادُهُ، كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. وَالِاسْتِشْهَادُ بِالْقُرْآنِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ فَيَزْعُمُونَ مَا كَانَ يَزْعُمُهُ التِّلِمْسَانِيُّ[1] مِنْهُمْ - وَهُوَ أَحْذَقُهُمْ فِي اتِّحَادِهِمْ - لَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ «الْفُصُوصُ»، فَقِيلَ لَهُ[2]: الْقُرْآنُ يُخَالِفُ «فُصُوصَكُمْ»، فَقَالَ: الْقُرْآنُ كُلُّهُ شِرْكٌ، وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ فِي كَلَامِنَا. فَقِيلَ لَهُ: فَإِذَا كَانَ الْوُجُودُ وَاحِدًا فَلِمَ كَانَتْ الزَّوْجَةُ حَلَالًا وَالْأُخْتُ حَرَامًا؟ فَقَالَ: الْكُلُّ عِنْدَنَا حَلَالٌ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْمَحْجُوبُونَ قَالُوا: حَرَامٌ، فَقُلْنَا: حَرَامٌ عَلَيْكُمْ. وَهَذَا مَعَ كُفْرِهِ الْعَظِيمِ مُتَنَاقِضٌ ظَاهِرٌ، فَإِنَّ الْوُجُودَ إذَا كَانَ وَاحِدًا فَمَنْ الْمَحْجُوبُ وَمَنْ الْحَاجِبُ؟ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ شُيُوخِهِمْ لِمُرِيدِهِ: مَنْ قَالَ لَكَ: إنَّ فِي الْكَوْنِ سِوَى اللَّهِ فَقَدْ كَذَبَ. فَقَالَ لَهُ مُرِيدُهُ: فَمَنْ هُوَ الَّذِي يَكْذِبُ؟ وَقَالُوا لِآخَرَ: هَذِهِ مَظَاهِرُ. فَقَالَ لَهُمْ: الْمَظَاهِرُ غَيْرُ الظَّاهِرِ أَمْ هِيَ؟ فَإِنْ كَانَتْ

---

(١) سليمان بن علي بن عبد الله بن علي التلمساني الشاعر المطبق، وقد نسب إلى عظائم في الأقوال، والاعتقاد في الحلول والاتحاد، والزندقة، والكفر المحض على طريقة ابن عربي، توفي سنة ٦٩٠هـ. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٢٦)، والنجوم الزاهرة (٨/ ٢٩)، وشذرات الذهب (٥/ ٤١٢).

(٢) القائل هو الشيخ كمال الدين المراغي؛ كما في مجموع الفتاوى (٢/ ٢٤٤).

غَيْرَهَا فَقَدْ قُلْتُمْ بِالنِّسْبَةِ، وَإِنْ كَانَتْ إِيَّاهَا فَلَا فَرْقَ.

وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى كَشْفِ أَسْرَارِ هَؤُلَاءِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ[١]، وَبَيَّنَّا حَقِيقَةَ قَوْلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَأَنَّ صَاحِبَ «الْفُصُوصِ» يَقُولُ: الْمَعْدُومُ شَيْءٌ، وَوُجُودُ الْحَقِّ قَاضٍ عَلَيْهِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْوُجُودِ وَالثُّبُوتِ.

الشرح:

هذا الكلام استطراد في بيان حال المدعين الاتحاد ووحدة الوجود، وفيه عدة مسائل:

الأولى: أن شيخ الإسلام أورد هذا الاستطراد وهذه البينات لحال هؤلاء الملاحدة لغرض أن أهل الشام وأهل مصر في ذلك الوقت يعظمون أصحاب وحدة الوجود، كابن عربي، والتلمساني، وابن الفارض[٢]، وأشباه هؤلاء واشتهر عنهم أنهم يقولون بهذا الكلام، ومع ذلك يعظمونهم جدًا؛ لهذا أوجب أن يبين أن هؤلاء ليسوا من أولياء الله، فاستطرد ليبين فساد عقول هؤلاء، وأنه لا يكون أمثال هؤلاء أولياء لله ﷻ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوي (٢/ ١٣٤- ٤٥١) رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين.

(٢) أبو حفص عمر بن علي بن المرشد بن علي المعروف بابن الفارض، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال وقد تكلم فيه غير واحد بسبب قصيدته التائية في السلوك على طريقة المتصوفة والتي ينعق فيها بالاتحاد الصريح، مات ابن الفارض سنة ٦٣٢هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٦٨)، والبداية والنهاية (١٣/ ١٤٣)، ولسان الميزان (٤/ ٣١٧).

الثانية: أن هؤلاء الملاحدة والزنادقة؛ كأمثال ابن عربي، وأشباهه، شاع في الناس أن لهم كرامات، وأنهم يخبرون بأشياء وتكون حقًا وأن الكهان من اتباعهم والمنتسبين للتصوف عندهم أحوال إيمانية ينكشف لهم بها الغيب، وأنهم يوحى إليهم، وأنهم تأتيهم معلومات ليست إلا عندهم، فجعلوا هذه الأشياء من كراماتهم، فبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما ذكر أن هذه الأشياء التي تُنسب إليهم صحيحة، ولكن ليست هي كرامة تأتيهم من الملائكة، وإنما هي أحوال شيطانية تأتيهم من الشياطين، قال تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢١] والشيطان يتنزل على من يواليه، ويخبره بالأشياء، ويعلمه، ويعطيه معلومات، وربما حمله، وربما طار به، وربما سخر له بعض الأشياء بما أقدره الله عليه. فالشأن ليس في أنه يُخدم، أو أنه يَدَّعي أن الملائكة تخدمه، وتعمل له، ولكن الشأن هل هو من أولياء الله، موافق لشرع الله ﷻ، متبع للسنة أم لا، فإذا لم يكن متبعًا للسنة، ويقول مثل هذه الأقوال الكفرية، فنعلم قطعًا أنه من أولياء الشيطان، وأن ما قاله وافتراه وادعاه من هذه الأقوال الباطلة هي دليل على أنه شيطان من الشياطين، وأن المؤمن لا يجوز له أن يغتر بأحوال هؤلاء، وأن يجعلهم من أولياء الله ﷻ.

والثالثة: من أسباب إنشائه لهذا الكلام والاستطراد: أن أكثر السحرة والكهنة في أزمنة الإسلام ادعوا الصلاح، وادعوا أن ما يأتيهم إنما هو من جهة الملائكة، وهذا تسمعه عند كثير من مغفلي المسلمين وجهلتهم، فيما يذكرون عن أخبار بعض الناس في بلد كذا وبلد كذا، هم يقولون: فلان تخبره الملائكة؛ لأنه رجل صالح، وهذا لا شك أنه من براثن تلك الخلفية العامة، فإذا قيل: إن فلانًا تتنزل عليه الملائكة، فاعلم أن هذا من جهة أولياء الشيطان؛ لأننا لا نعلم أن أحدًا من الصحابة ولا من التابعين ولا من

سادات المسلمين، قيل فيه: إن الملائكة تنزل عليه فتخبره... إلى آخره، وإنما هي دعوى لأولئك الفسقة والفجرة أو الزنادقة فيما يروجون على الناس من كهانتهم أو سحرهم.

فالسحرة الآن يأمرون الناس بتلاوة القرآن ويتلون عليهم القرآن، ثم يخلطون معه غيره، يقولون: نخبركم، الملائكة تأتينا وتخبرنا، وهي الشياطين، وهم أصلًا من أكذب الناس، فكيف يصدقون في مثل هذه الأشياء؟

فشيخ الإسلام يبين حال من كان في زمنه، وهو الوجه الثاني الذي ذكرنا.

والوجه الثالث: حال كل من ادعى نزول الملائكة عليه؛ فإن الحجة؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في حال المختار بن أبي عبيد، قيل له: (**إِنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُنَزَّلُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: صَدَقَ؛ كَمَا قَالَ اللهُ:** ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١].

والغرض من هذا الكلام بيان الفرقان العظيم بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأن مسألة خرق العادات ليست برهانًا، وليست فرقانًا أن يحصل للمرء خارق للعادة، وأن يحصل له شيء لم يحصل لغيره، هذا ليس دليلًا على صلاحه، وليس دليلًا على فساده حتى يُنظر في أمره؛ فإن كان من أهل الإيمان والصلاح المتابعين للحق؛ فإنه يُرجى أن تكون هذه كرامة له، وإن كان من غير أهل الإيمان بل من أهل الفسوق والبدعة والفجور؛ فأن ما حصل له يعتبر خارقًا شيطانيًا، وأحوالًا شيطانية، وليست بكرامة.

فهذا البحث الذي بحثه في هذا الموضع وفيما قبله؛ ملخصه: أَنَّ الأحوال والخوارق ليست برهانًا ولا دلالة، وإنما البرهان والدلالة هو ما قال الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]، والملائكة لا تتنزل إلا على الرسل، أو على المؤمنين في تثبيتهم في القتال، أما الإخبار بالمغيبات وأشباه ذلك، فلا يكون، وقد يلقى في رُوع المؤمن أن هذا الأمر كذا فيكون من باب الفراسة الإيمانية التي يعطيها الله ﷻ من يشاء من خلقه، لكن من يقول: سمعت الملائكة، وقالت لي الملائكة، هذا لا شك أنه من صنيع الشياطين.

وَالْمُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ قَالُوا: الْمَعْدُومُ شَيْءٌ ثَابِتٌ فِي الْخَارِجِ - مَعَ ضَلَالِهِمْ - خَيْرٌ مِنْهُ، فَإِنَّ أُولَئِكَ قَالُوا: إِنَّ الرَّبَّ خَلَقَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّابِتَةِ فِي الْعَدَمِ وُجُودًا لَيْسَ هُوَ وُجُودُ الرَّبِّ. وَهَذَا زَعَمَ أَنَّ عَيْنَ وُجُودِ الرَّبِّ فَاضَ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ وُجُودُ مَخْلُوقٍ مُبَايِنٌ لِوُجُودِ، وَصَاحِبُهُ الصَّدْرُ الْقُونَوِيُّ[1] يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُطْلَقِ وَالْمُعَيَّنِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْفَلْسَفَةِ، فَلَمْ يُقِرَّ بِأَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ، لَكِنْ جَعَلَ الْحَقَّ هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ، وَصَنَّفَ «مِفْتَاحَ غَيْبِ الْجَمْعِ وَالْوُجُودِ»[2].

وَهَذَا الْقَوْلُ أُدْخَلُ فِي تَعْطِيلِ الْخَالِقِ وَعَدَمِهِ، فَإِنَّ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ - وَهُوَ الْكُلِّيُّ الْعَقْلِيُّ - لا يَكُونُ إلا فِي الْأَذْهَانِ لا فِي الْأَعْيَانِ، وَالْمُطْلَقَ لا بِشَرْطٍ - وَهُوَ الْكُلِّيُّ الطَّبِيعِيُّ - وَإِنْ قِيلَ إِنَّهُ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ، فَلَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ إلا مُعَيَّنًا، وَهُوَ جُزْءٌ مِنْ الْمُعَيَّنِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِثُبُوتِهِ فِي الْخَارِجِ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ الرَّبِّ إِمَّا مُنْتَفِيًا فِي الْخَارِجِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَيْنَ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَهَلْ يَخْلُقُ الْجُزْءُ الْكُلَّ، أَمْ يَخْلُقُ الشَّيْءُ نَفْسَهُ، أَمْ الْعَدَمُ يَخْلُقُ الْوُجُودَ، أَوْ يَكُونُ بَعْضُ الشَّيْءِ خَالِقًا لِجَمِيعِهِ؟!

وَهَؤُلَاءِ يَفِرُّونَ مِنْ لَفْظِ الْحُلُولِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي حَالًا وَمَحَلًّا، وَمِنْ

---

(١) صدر الدين محمد بن إسحاق بن محمد القونوي الرومي، من كبار تلاميذ ابن عربي، ومن كبار مشايخ الإتحادية، وهو شيخ التلمساني، توفي سنة ٦٧٣هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٠)، وطبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٤٥).

(٢) يوجد منه نسخة في جامعة الملك سعود تحت رقم (٢٦٧٧/ ١)، وانظر كشف الظنون (٢/ ١٧٦٨).

لَفْظِ الاتِّحَادِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي شَيْئَيْنِ اتَّحَدَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَعِنْدَهُمْ الْوُجُودُ وَاحِدٌ. وَيَقُولُونَ: النَّصَارَى إِنَّمَا كَفَرُوا لَمَّا خَصَّصُوا الْمَسِيحَ بِأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، وَلَوْ عَمَّمُوا لَمَا كَفَرُوا. وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي عُبَّادِ الْأَصْنَامِ: إِنَّمَا أَخْطَؤُوا لَمَّا عَبَدُوا بَعْضَ الْمَظَاهِرِ دُونَ بَعْضٍ، فَلَوْ عَبَدُوا الْجَمِيعَ لَمَا أَخْطَؤُوا عِنْدَهُمْ.

وَالْعَارِفُ الْمُحَقِّقُ عِنْدَهُمْ لا يَضُرُّهُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَهَذَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ الْكُفْرِ الْعَظِيمِ فَفِيهِ مَا يَلْزَمُهُمْ دَائِمًا مِنْ التَّنَاقُضِ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ: فَمَنْ الْمُخْطِئُ؟ لَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِجَمِيعِ النَّقَائِصِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْمَخْلُوقُ. وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْمَخْلُوقَاتِ تُوصَفُ بِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْخَالِقُ، وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ «الْفُصُوصِ»: فَالْعَلِيُّ لِنَفْسِهِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لَهُ الْكَمَالُ الَّذِي يَسْتَوْعِبُ بِهِ جَمِيعَ النُّعُوتِ الْوُجُودِيَّةِ وَالنِّسَبِ الْعَدَمِيَّةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَحْمُودَةً عُرْفًا أَوْ عَقْلًا أَوْ شَرْعًا، أَوْ مَذْمُومَةً عُرْفًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا، وَلَيْسَ ذَلِكَ إلا لِمُسَمَّى اللَّهِ خَاصَّةً[١].

وَهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ هَذَا لا يَنْدَفِعُ عَنْهُمْ التَّنَاقُضُ، فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ ذَاكَ، وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ مَا كَانَ يَقُولُهُ التِّلِمْسَانِيُّ: إِنَّهُ ثَبَتَ عِنْدَنَا فِي الْكَشْفِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعَقْلِ. وَيَقُولُونَ: مَنْ أَرَادَ التَّحْقِيقَ - يَعْنِي تَحْقِيقَهُمْ - فَلْيَتْرُكْ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ.

وَقَدْ قُلْت لِمَنْ خَاطَبْته مِنْهُمْ: وَمَعْلُومٌ أَنَّ كَشْفَ الْأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ

(١) انظر: الفصوص لابن عربي (١/ ٧٦).

وَأَتَمُّ مِنْ كَشْفِ غَيْرِهِمْ، وَخَبَرَهُمْ أَصْدَقُ مِنْ خَبَرِ غَيْرِهِمْ، وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ يُخْبِرُونَ بِمَا تَعْجِزُ عُقُولُ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، لا بِمَا يَعْرِفُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ أَنَّهُ مُمْتَنِعٌ، فَيُخْبِرُونَ بِمَحَارَاتِ[1] الْعُقُولِ لا بِمُحَالَاتِ الْعُقُولِ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِي إِخْبَارِ الرَّسُولِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعُقُولِ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَتَعَارَضَ دَلِيلَانِ قَطْعِيَّانِ؛ سَوَاءٌ كَانَا عَقْلِيَّيْنِ أَوْ سَمْعِيَّيْنِ، أَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا عَقْلِيًّا وَالْآخَرُ سَمْعِيًّا، فَكَيْفَ بِمَنْ ادَّعَى كَشْفًا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ؟

وَهَؤُلَاءِ قَدْ لا يَتَعَمَّدُونَ الْكَذِبَ، لَكِنْ يُخَيَّلُ لَهُمْ أَشْيَاءُ تَكُونُ فِي نُفُوسِهِمْ وَيَظُنُّونَهَا فِي الْخَارِجِ، وَأَشْيَاءُ يَرَوْنَهَا تَكُونُ مَوْجُودَةً فِي الْخَارِجِ، لَكِنْ يَظُنُّونَهَا مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ، وَتَكُونُ مِنْ تَلْبِيسَاتِ الشَّيَاطِينِ.

الشـــرح:

يقصد شيخ الإسلام بقوله: (مَحَارَاتِ الْعُقُولِ) يعني: ما تجيزه العقول وليس المقصود المجاز الذي يقابل الحقيقة، على أصل معنى المجاز ما يجيزه الشيء، مجاز اللغة يعني ما تجيزه اللغة، ومجازات العقول يعني

---

(١) وقد استعمل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هذه العبارة في العديد من رسائله وكتبه، فقال في بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٣٣): «ولكن يجب الفرق بين ما يقصر العقل عن دركه وما يعلم العقل استحالته، . . . بين محارات العقول، ومحالات العقول».
وانظر أيضًا الجواب الصحيح (٤/ ٣٩١).

ما تجيزه العقول لا بمحالات العقول.

وهذا الكلام راجع إلى فهم كلام الناس في الاتحاد والحلول وتقرير هذا الباب، وفهم كلام شيخ الإسلام، وهذا يحتاج إلى إيضاح معنى الحلول والاتحاد.

فالحلول في عرف القوم: شيئان متمايزان مختلفان في الحقيقة، يحل أحدهما في الآخر مع بقاء التميز.

والاتحاد أيضًا: شيئان مختلفان في الحقيقة يتحد أحدهما بالآخر فيزول التميز. والحلول يبقي هذا وهذا، لكن الصورة الظاهرة واحدة، ولكن حل أحدهما في الآخر مثل الكأس والماء، فالكأس إذا حل فيه الماء، حقيقة الكأس شيء وحقيقة الماء شيء، فصارا شيئًا واحدًا: كأس وماء، ولكن هناك تميز يمكن أن ينفصل هذا عن هذا.

لكن الاتحاد مثل السكر والماء، الحبر والماء، الملح والماء، الشاي والماء، كانا منفصلين فاتحد أحدهما بالآخر حتى صارا لا ينفك أحدهما عن الآخر، ولا يتميز أحدهما عن الآخر، فالسكر لما ذاب في الماء أين السكر؟ تقول: في الماء والماء ذاب فيه السكر، إذا أردنا فصلهما لا ينفصلان، كذلك الشاي إذا وضع في الماء، إلى آخره.

إذا تبين هذا في المعنى العام فالحلول نوعان، والاتحاد أيضًا نوعان.

فالحلول عامٌ، وخاصٌ عند أهله، والاتحاد عامٌ، وخاصٌ عند أهله، فالقائلون بالحلول منهم من قال: حل الله في أشخاص معينين - جل الله وتعالى عن قولهم علوًا كبيرًا - حل في عزير عند اليهود، حل في المسيح عند النصارى، حل في البقر عند عباد البقر، حل في الإله الفلاني عندهم،

حل في الصنم، حل في كذا وكذا . . إلى آخره، حل في أئمة أهل البيت عند غلاة الرافضة، حل في الحاكم بأمر الله العبيدي عند الدروز، وهكذا فهذا حلول خاص في بعض المخلوقات، وهناك حلول عام، وهو قول من قال: الله حال في كل مكان، وهذا قول المتكلمين والمعتزلة والأشاعرة وأشباههم، الله حال في كل مكان، في أي مكان، هو حال لكن منفصل عنه، ليست مختلطة به بل الحقيقة متميزة.

والاتحاد نوعان أيضًا: اتحاد خاص، واتحاد عام، والقائلون بالاتحاد هم غلاة المتصوفة، وأما الحلول فلا يقول به غلاة المتصوفة، وإنما يرون أن من قال بالحلول في شخص فهو كافر معين. فعند أهل وحدة الوجود اتحاد الله بكل موجود حتى صارت حقيقة الإله مع المخلوق غير متميز، يقولون: كفر من كفر لادعائه عدم الاتحاد أو لادعائه الحلول في بعض المخلوقات دون بعض؛ فالنصارى كفرت؛ لأنهم قالوا: إن المسيح حل فيه الله، والعرب كفرت؛ لأنها قالت: الأصنام هذه يحل فيها الله ﷻ، واليهود كفرت؛ لأنهم قالوا: إن الله حل في عزير. . وهكذا، ولو أنهم عمموا، وقالوا: حل في كل شيء، واتحد في كل شيء، فصارت الأشياء هي عين وجود الله ﷻ، لم يكفروا.

والاتحاد عند القائلين به نوعان:

اتحاد خاص: وهو ببعض المخلوقات.

اتحاد عام: وهو في جميع المخلوقات.

فالذين يقولون بالاتحاد العام، هم الذين يعبر عنهم بأصحاب وحدة الوجود، اتحاد في السموات والأرض، وكل شيء اتحد بها حتى صار

وجود الحق ﷻ هو عين وجود هذه المخلوقات، ووجود المخلوقات هو عين وجود الله، حتى ما تفرق هذه عن هذه، مثل السكر الذي ذاب في الماء، صارت الحقيقة واحدة لا يمكن انفصال إحدى الحقيقتين عن الأخرى. والذين قالوا بالاتحاد الخاص غير الاتحاد العام، هؤلاء لا يُقال لهم: أصحاب وحدة الوجود، وهم طائفة من المتصوفة.

فغلاة المتصوفة جميعًا اتحادية، لكن منهم أهل وحدة الوجود يقولون: اتحد بكل موجود بحيث صار عين الوجود واحد، ومنهم من يقول بالاتحاد في بعض المخلوقات دون بعض، ومن أعظم ما يدل على كفر من قال بالاتحاد العام، وكذلك الاتحاد الخاص: أن هذا القول يعني أن الكفر والفسق صار في الله ﷻ؛ لأن الفاسق، والمجرم، والقاتل، والزاني، وشارب الخمر، والفاعل للفواحش، والكاذب، إلى آخره من أنواع الموبقات والكبائر، لما كان هو عين الوجود ولا تمايز بينهما يكون لا فرق ما بين الكاذب شخصًا والكاذب اتحادًا؛ لأنها صارت حقيقة واحدة؛ كما أننا لا نقول: الماء حلو والسكر لا طعم له، وكما أننا لا نقول: السكر حلو والماء لا طعم له، فأنت إذا شربت ماء أذيب فيه سكر صار الماء والسكر حقيقةً واحدةً لا تستطيع أن تقول: هذا حلو، وهذا مالح، لا تستطيع أن تميز بين هذا وهذا؛ لأنه بالاتحاد صارت الحقيقة واحدة. وهذا هو معنى الاتحاد، فيلزم من هذا أن يكون كل شر وكل فسق وكل فواحش منسوبة لله ﷻ، لهذا لما ذكر ابن القيم هذه المسائل في أول النونية[1]، قال:

يَا أُمَّةً مَعبُودُهَا مَوطُوؤُهَا   أَيْنَ الإِلَهُ وَثُغرَةُ الطَّعَّانِ

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ١٣٧).

لا يوجد تفريق عندهم، صار المنكوح حال فيه الإله، يعني اتحد في الإله صارت الحقيقة واحدة، صار الناكح هو المنكوح، فأين الإله بين هذا وهذا؟! لا شك أن هذا أعظم ما يكون من إهانة الرب ﷻ، وسبه، وعدم قدره حق قدره سبحانه وتعالى.

هؤلاء لما قالوا بالاتحاد والوحدة، قالوا: إن الاتحاد العام والوحدة العامة متفاوتة بين أهلها، فيكون الولي له من الاتحاد بتخصيصه ما ليس لغيره من الموجودات، فلهذا أصبح ينظر بنظر الإله لما له من خصوصية في الاتحاد، يقدر بقدرة الإله لما له من خصوصية في الاتحاد.

فالاتحاد عام، لكن درجات المتحد بهم مختلفة من حيث الصفات؛ فلهذا جعلوا للأولياء مقامًا يزيد على مقام الأنبياء؛ لأن درجة الاتحاد عندهم مختلفة فالأنبياء أعطوا درجة لكن زاد عليهم فيها أصحاب الوحدة من جهة أن أولئك أُتحد بهم، فوجودهم هو عين وجود الله، ولكن عند غلاة المتصوفة الأنبياء يحتاجون في الأخذ وفي السماع لكلام الله ﷻ إلى واسطة، فلم يكن الاتحاد بهم من جميع الصفات.

أما الأولياء فقد كَمُلوا عندهم؛ لأن الاتحاد بهم جاء في الصفات كلها؛ ولهذا يجعلون العالم منقسمًا إلى أقسام:

* قسم يتولاه الولي الفلاني.

* وقسم يتولاه الولي الفلاني، وهكذا إلى آخر ما عندهم في ذلك.

المقصود أن فهم هذا الكلام، وهذه المسائل، وما يدور عليها راجع إلى أمور:

الأول: فهم معنى الحلول والاتحاد.

الثاني: فهم أقسام الحلول والاتحاد.

الثالث: أن غلاة الصوفية أصحاب الوحدة يقسمون الاتحاد باختلاف الصفات، فلا يجعلونه عامًا في الصفات؛ كما أن أهل الحلول لا يجعلون الحلول متساويًا فيمن حل بهم. وهذا أصل مسألة تفضيل الولي على النبي عندهم، وأن الولي له كرامات أكثر، وتكشف عنه الحجب، وأن النبي قد يعمل عقله، لكن الولي يرى ما لا يراه غيره، وحسه يكذب العقليات، إلى غير ذلك من المسائل.

وغلاة الصوفية يفتخرون بهذه العقيدة - عقيدة الحلول - يقول ابن الفارض[١]:

لَهَا صَلَواتي بِالمَقَامِ أُقِيمُهَا ... وَأشهَدُ فِيْهَا أَنَّها لِيَ صَلَّتِ

ويقولون: ما في الجبة إلا الله[٢]. فهم يعترفون بهذا.

مثل ما قال شيخ الإسلام: إن رجلًا من غلاتهم قال لمريده: من حدثك أن في الوجود غير الله فهو كاذب، فقال له الغلام: إذا لم يكن في الوجود إلا الله فمن الكاذب؟ ويستدلون بقوله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ويقولون: هذا قضاء كوني في أنه لا يعبد الا هو، فالذي عبد الصنم عبد الله، لم يكفر بعبادته الصنم، من الممكن أن الرجل الصالح يعبد الصنم ولا يكفر، ولكنه كفر باعتقاده أن الصنم غير الله ﷻ يعني إذا عبد الصنم - لأن الله حل فيه، فهو ما عبد الا الله - نعوذ بالله منهم ومن أقوالهم.

---

(١) سبقت ترجمته (ص٢٥٤)، وهذا البيت من قصيدته التائية المسماة بنظم السلوك.

(٢) هذا الكلام منسوب لطيفور بن عيسى البسطامي. انظر: لسان الميزان (٣/ ٢١٤).

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْوَحْدَةِ قَدْ يُقَدِّمُونَ الْأَوْلِيَاءَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ النُّبُوَّةَ لَمْ تَنْقَطِعْ، كَمَا يُذْكَرُ عَنْ ابْنِ سَبْعِينَ(١) وَغَيْرِهِ، وَيَجْعَلُونَ الْمَرَاتِبَ ثَلَاثَةً، يَقُولُونَ: الْعَبْدُ يَشْهَدُ أَوَّلًا طَاعَةً وَمَعْصِيَةً، ثُمَّ طَاعَةً بِلَا مَعْصِيَةٍ، ثُمَّ لا طَاعَةَ وَلَا مَعْصِيَةَ، وَالشُّهُودُ الْأَوَّلُ هُوَ الشُّهُودُ الصَّحِيحُ، وَهُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي، وَأَمَّا الشُّهُودُ الثَّانِي فَيُرِيدُونَ بِهِ شُهُودَ الْقَدَرِ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ هَؤُلَاءِ يَقُولُ: أَنَا كَافِرٌ بِرَبٍّ يُعْصَى(٢)، وَهَذَا يَزْعُمُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ مُخَالَفَةُ الْإِرَادَةِ الَّتِي هِيَ الْمَشِيئَةُ.

وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ دَاخِلُونَ تَحْتَ حُكْمِ الْمَشِيئَةِ، وَيَقُولُ شَاعِرُهُمْ:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا تَخْتَارُهُ ... مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتُ(٣)

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا خِلَافُ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ،

---

(١) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين أبو محمد نزيل بجاية ثم مكة اشتهر بالزهد والسلوك، وكانت له بلاغة، وبراعة، وتفنن في العلوم، وكثر أتباعه، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد وصنف فيه، جاور في بعض الأوقات بغار حراء يرتجى فيما ينقل عنه أن يأتيه فيه وحي.
انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٦١)، ولسان الميزان (٣٣٩٢).

(٢) نسبه شيخ الإسلام للحريري، انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٧).

(٣) هذا البيت نسبه شيخ الإسلام في الفتاوى (٨/ ٢٥٧) إلى محمد بن سواء بن إسرائيل الشاعر الصوفي الشيباني، المعروف بنجم الدين بن إسرائيل، تعانى الأدب، وصحب الشيخ الحريري، واقتدى به منذ بلوغه الحلم، وسلك في النظم طريق ابن الفارض، وزاد عليه في اللطف والانسجام، وحذا حذوه في الاتحاد لكنه يصرح وابن الفارض يلوح، توفي سنة ٦٧٧هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٨٣)، ولسان الميزان (٥/ ١٩٥).

فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ الَّتِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبَهَا الذَّمُّ وَالْعِقَابُ مُخَالَفَةُ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤، ١٣]، وَسَنَذْكُرُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ، وَالْأَمْرِ الْكَوْنِيِّ وَالدِّينِيِّ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ قَدْ اشْتَبَهَتْ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ الصُّوفِيَّةِ، فَبَيَّنَهَا الْجُنَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ، مَنْ اتَّبَعَ الْجُنَيْد فِيهَا كَانَ عَلَى السَّدَادِ، وَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ؛ لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَفِي شُهُودِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَهَذَا يُسَمُّونَهُ الْجَمْعَ الْأَوَّلَ، فَبَيَّنَ لَهُمْ الْجُنَيْد أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ شُهُودِ الْفَرْقِ الثَّانِي، وَهُوَ أَنَّهُ مَعَ شُهُودِ كَوْنِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا مُشْتَرَكَةً فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ، يَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَبَيْنَ مَا يَنْهَى عَنْهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَسْخَطُهُ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لا رَبَّ غَيْرُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَمَرَ بِالطَّاعَةِ، وَنَهَى عَنْ الْمَعْصِيَةِ، وَهُوَ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ وَاقِعَةً بِمَشِيئَتِهِ فَهُوَ لا يُحِبُّهَا وَلَايَرْضَاهَا، بَلْ يُبْغِضُهَا، وَيَذُمُّ أَهْلَهَا، وَيُعَاقِبُهُمْ.

وَأَمَّا الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ لا يَشْهَدَ طَاعَةً وَلَا مَعْصِيَةً، فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ التَّحْقِيقِ وَالْوِلَايَةُ لِلَّهِ؛ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ غَايَةُ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، وَغَايَةُ الْعَدَاوَةِ لِلَّهِ، فَإِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْمَشْهَدِ يَتَّخِذُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ الْكُفَّارِ أَوْلِيَاءَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وَلَا يَتَبَرَّأُ مِنْ الشِّرْكِ وَالْأَوْثَانِ، فَيَخْرُجُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وَقَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام لِقَوْمِهِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وَهَؤُلَاءِ قَدْ صَنَّفَ بَعْضُهُمْ كُتُبًا وَقَصَائِدَ عَلَى مَذْهَبِهِ، مِثْلِ قَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارِضِ(١) الْمُسَمَّاةِ بـ «نَظْمِ السُّلُوكِ»، يَقُولُ فِيهَا:

لَهَا صَلَواتي بِالمَقَامِ أُقِيمُهَا ... وَأشهَدُ فِيْهَا أَنَّهَا لِيَ صَلَّتِ

كِلَانَا مُصَلٍّ وَاحِدٌ سَاجِدٌ إِلَى ... حَقِيقَتِهِ بَالْجَمْعِ فِي كُلِّ سجدَةِ

وَمَا كَانَ لِي صَلَّى سِوَايَ وَلَمْ تَكُنْ ... صَلَاتِي لِغَيْرِي فِي أَدَا كُلِّرَكْعَةِ

إِلَى أَنْ قَالَ:

وَمَا زِلْتُ إِيَّاهَا وَإِيَّايَ لَم تَزَلْ ... وَلَا فَرْقَ بَلْ ذَاتِي لِذَاتِي أحبَّتِ

إِلَيَّ رَسُولًا كُنْتُ مِنِّيَ مُرْسَلًا ... وَذَاتِي بِآيَاتِي عَلَيَّ اسْتَدَلَّتِ

فَإِنْ دُعِيَتْ كُنْتُ الْمُجِيبَ وَإِنْ أَكُنْ ... مُنَادًى أَجَابَتْ مَنْ دَعَانِي وَلَبَّتِ

إِلَى أَمْثَالِ هَذَا الْكَلَامِ؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الْقَائِلُ عِنْدَ الْمَوْتِ يَنْشُدُ وَيَقُولُ(٢):

إِنْ كَانَ مَنزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمُ ... مَا قَدْ رَأَيْتُ فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامَي

أُمْنِيَّةٌ ظَفِرَتْ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا ... وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامِ

فَإِنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، فَلَمَّا حَضَرَتْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ لِقَبْضِ رُوحِهِ تَبَيَّنَ لَهُ بُطْلَانُ مَا كَانَ يَظُنُّهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

---

(١) سبقت ترجمة ابن الفارض (ص٢٥٤).

(٢) انظر: الديوان (ص٨١).

وَالْأَرْضِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ، لَيْسَ هُوَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد ٢، ٣]. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَك شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَاغْنِنِي مِنْ الْفَقْرِ»(١).

ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

فَذَكَرَ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ -وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ-: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ مَخْلُوقٌ مُسَبِّحٌ لَهُ وَأَخْبَرَ - سُبْحَانَهُ - أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ.

الشرح:

هذا الكلام له سابق بني عليه، لكن خلاصة ذلك ما قاله في أوله؛ حيث قال عن الذين يقولون بالوحدة: إنهم يجعلون المراتب ثلاثة - من حيث شهود الطاعات والمعاصي - يقولون: العبد يشهد - أولًا - طاعة ومعصية، ثم يشهد طاعة بلا معصية، ثم يشهد لا طاعة ولا معصية، فعندهم أن الناس

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

مرتبون على ذلك، فأقل درجات الناس الذين يشهدون الطاعات والمعاصي ثم الذين يشهدون الطاعات ولا يشهدون المعاصي، ثم الذين لا يشهدون طاعة ولا معصية، يعني: سقطت عنهم التكاليف كلها، لا في الطاعات، ولا في المعاصي، لعدم تأثير الطاعة فيه إيمانًا ولعدم تأثير المعصية فيه جحدًا أو كفرانًا.

وكما هو معلوم من كلام شيخ الإسلام أن الأول هذا لا شك أنه هو الذي أُمر به العباد أن يشهدوا الطاعة والمعصية، وأن تسر العبد طاعته، وأن تسوءه معصيته(١)، وهذا هو حال الأنبياء والمرسلين، وحال أولياء الله ﷻ أما شهود الطاعة بلا معصية، أو لا شهود طاعة ولا معصية، فهذا عند الصوفية له منشؤ، ومنشؤُه الغلو في إثبات المشيئة الكونية القدرية، وعدم النظر في المشيئة الكونية والإرادة الشرعية؛ وذلك أن النصوص في غير هذا الموضع(٢) قررت الفرق بين ما يشاؤه الله ﷻ كونًا، وما بين ما يريده شرعًا.

فالعبد ينظر بنظرين:

الأول: ينظر إلى ما ينفذه الله ﷻ في ملكوته كونًا، وأنه واقع بمشيئة الله ﷻ الطاعة والمعصية جميعًا؛ كما هو قول أهل الحق في القدر، وأن الطاعة كانت بمشيئة الله، والمعصية كذلك كانت بمشيئة الله.

الثاني: النظر من جهة الشرع فنقول: الإرادة الشرعية أن تفعل الطاعة ولا تفعل المعصية.

---

(١) قد ورد في معنى ذلك حديث صحيح عند الترمذي (٢١٦٥)، وأحمد (١/١٨).

(٢) انظر: شرح الطحاوية (ص١١٣).

فإذا غلب على العبد شهود الأمر الكوني نظر إلى أن العباد مجبرون على الطاعات وعلى المعاصي، فيثبت أن الله ﷻ أجبر العباد؛ ولذلك الصوفية كلهم جبرية، ومنهم من يغلو في الجبر حتى يرى أن الإنسان لا منزلة له لشهود الإرادة الكونية، ومنهم من يرى الطاعة دون المعصية في شهود الأمر الكوني، يعني أن المعصية إنما وقعت لأجل الطاعة، يعني: من جهة التوبة، ومن جهة الإنابة وأشباه ذلك؛ فإنما يرى طاعة بلا معصية لحصول المعصية بحكمة الله ﷻ، فيرى أمر الله ﷻ الكوني الخاص بالطاعات دون المعاصي؛ لأن المعاصي غير مقصودة لذاتها، الله أجبر على المعصية عندهم ولكن لأجل الطاعة، هذا إذا نظر فيه المكلف منهم يقول: أنا أطيع وإن عصيت فلأجل طاعتي، ما عصيت إلا لأجل أن أطيع، فهو يرى أن المعصية يرتكبها، ويرضى أن يكون عاصيًا لرضائه بإرادة الله الكونية.

أما قول ملاحدتهم: إنه لا يشهد طاعة، ولا معصية، فهو غني عن شهود سوى الله ﷻ، فلا الطاعات لها أثر ولا المعاصي لها أثر، وإنما الأثر فيما حصل لهذا الذي يزعم الوحدة في اتحاده بالله ﷻ، أو حلول الله ﷻ فيه، مثل ما سبق من كلام ابن الفارض، وهذا كله استطراد من شيخ الإسلام في الرد على من يزعم أنه من الأولياء، ويفضل الأولياء على الأنبياء، أو أنه لا يشهد طاعة ولا معصية، أو لا يشهد معصية وإنما يشهد طاعة، كل هذه ليست من صفات الأولياء، فأولياء الله صفتهم أنهم أهل فرقان: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وأهل التقوى هم أهل الإيمان وهم الأولياء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]، فحصل من ذلك أن أهل التقوى هم أهل ولاية الله ﷻ، وهم الذين لديهم الفرقان؛ ولذلك سمى

شيخ الإسلام كتابه هذا: (**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**)؛ لأن العمدة في الفرق بين ولي الله وولي الشيطان: هل عنده فرقان أم لا؟ والصوفية الغلاة منهم من يزعمون أنهم أولياء يصلون إلى المرتبة المتوسطة التي يكون عندهم الحال لا فرق بين الطاعة والمعصية.

فالمعصية تؤول إلى الطاعة، والطاعة هي المقصودة، وقد يصل إلى أنه لا فرق أصلًا بين طاعة ومعصية إذ لا طاعة ولا معصية، وهذا استطراد فيما أصَّلَه قبل ذلك، وأولياء الله ﷻ، هم المتقون المؤمنون، وهم الذين لديهم الفرقان بين الطاعة والمعصية، يشهدون الطاعة كونًا وشرعًا، ويشهدون المعصية كونًا وشرعًا، فيرضون بالطاعة كونًا وشرعًا، ويرضون بالمعصية شرعًا من جهة الحكم - من جهة تحريمها وذمها - ولا يرضون بوقوعها؛ لأن وقوع المعصية كان من جهة تفريط العبد. فإذًا نشهد الطاعة بالرضا بها كونًا وشرعًا، ونشهد المعصية بعدم الرضا بها، بل نذم أنفسنا على المعصية وهذا هو صفة أولياء الله ﷻ. أما الذي ينظر إلى المعصية كلما فعل معصية قال: هذه خير لي، ويقبل على المعاصي، فهذه من صفات المذمومين، ليست من صفات أولياء الله ﷻ، بل المؤمن هو الذي تسره حسنته وتسوءه سيئته، ويكون عنده فرقان بين المحمود والمذموم.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، فَلَفْظُ: (مَعَ) لا تَقْتَضِي فِي لُغَةِ الْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ مُخْتَلِطًا بِالْآخَرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

وَلَفْظُ (مَعَ) جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ عَامَّةً وَخَاصَّةً، فَالْعَامَّةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي آيَةِ الْمُجَادَلَةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، فَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِالْعِلْمِ وَخَتَمَهُ بِالْعِلْمِ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: هُوَ مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ[1].

وَأَمَّا الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠] يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه فَهُوَ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ دُونَ فِرْعَوْنَ، وَمَعَ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ دُونَ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَمَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ دُونَ الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ. فَلَوْ كَانَ مَعْنَى الْمَعِيَّةِ أَنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَنَاقَضَ الْخَبَرُ الْخَاصُّ وَالْخَبَرُ الْعَامُّ؛ بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُ مَعَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ١٢ -١٣)، وتفسير البغوي (٨/ ٥٤).

هَؤُلَاءِ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ دُونَ أُولَئِكَ. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ أَيْ: هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وَكَذَلِكَ قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]؛ كَمَا فَسَّرَهُ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ - كَالْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ -: أَنَّهُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ[1].

وَأَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى بَائِنٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، يُوصَفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، يُوصَفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ دُونَ صِفَاتِ النَّقْصِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (الصَّمَدُ): الْعَلِيمُ الَّذِي كَمُلَ فِي عِلْمِهِ الْعَظِيمُ الَّذِي كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، الْقَدِيرُ الْكَامِلُ فِي قُدْرَتِهِ، الْحَكِيمُ الْكَامِلُ فِي حِكْمَتِهِ، السَّيِّدُ الْكَامِلُ فِي سُؤْدُدِهِ[2]. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ[3]: هُوَ الَّذِي لا جَوْفَ لَهُ.

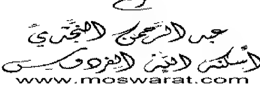
و(الْأَحَدُ): الَّذِي لا نَظِيرَ لَهُ، فَاسْمُهُ (الصَّمَدُ) يَتَضَمَّنُ اتِّصَافَهُ

---

(١) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص٣٩)، وتفسير البغوي (٣/ ١٢٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٣٤٦)، وتفسير البغوي (٨/ ٥٨٨).

(٣) انظر: السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٩٩ - ٣٠٢)، والأسماء والصفات للبيهقي (١/ ١٥٧ - ١٥٩)



بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَنَفْيِ النَّقَائِصِ عَنْهُ، وَاسْمُهُ (الْأَحَدُ) يَتَضَمَّنُ اتِّصَافَهُ أَنَّهُ لا مِثْلَ لَهُ. وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي كَوْنِهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ[(١)].

الشـــــرح:

هذا رد على احتجاج أهل الاتحاد بآية المعية على أن الله ﷻ متحد أو يحل ببعض خلقه؛ لأن الحلول نوعان: عام وخاص، وهذا من جملة الأدلة التي استدلوا بها وقد ظهر بالبحث أن هذا ليس بدليل، بل هو ضد ما قالوا، وهم جهلة أصلًا فكيف يستدلون؟! ولكن أهل الباطل يبحثون عن شبهة ليتمسكوا بها، فهذه قاعدة في استدلالهم؛ لأن الله ﷻ وصفهم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٧] فالزيغ موجود عندهم أولًا، ثم يأتي اتباع المتشابه، وإلا فإن المتشابه في القرآن لا يحدث زيغًا، بل الله ﷻ ابتلى العباد به، والزائغ يبحث عن المتشابه ليستدل به على زيفه، وهؤلاء زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، استدلوا بآية المعية، استدلوا على الوحدة من القرآن والسنة بأدلة كثيرة، فمن القرآن قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

وَفِي كُــلِّ شَــيءٍ لَــهُ آيَــةٌ ... تَــدُلُّ عَــلَــى أَنَّــهُ واحِــدُ[(٢)]

---

(١) الأحاديث في فضل سورة الإخلاص وأنها تعدل ثلث القرآن، رواها البخاري (٥٠١٣) (٥٠١٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁. ورواها مسلم (٨١٢) من حديث أبي هريرة ﵁، و(٨١١) من حديث أبي الدرداء ﵁.

(٢) هذه الأبيات منسوبة لأبي العتاهية الشاعر المشهور إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أبو إسحاق العنزي، ولد سنة ثلاثين ومائة، أصله من عين التمر وهي بليدة =

وكل شيء يشهد بأن الله ﷻ هو الرب وحده، فجعلوا هذا هو هذا؛ جعلوا الأشياء هي الله ﷻ، وفي التفسيرات المنسوبة إلى غلاة الصوفية - كابن عربي وغيره - تجد أنهم يستدلون كثيرًا بالآيات التي فيها عموم الخلق أو الشهادة العامة على الوحدة. كذلك من أدلتهم آية الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] يستدلون بها على الوحدة وعلى الاتحاد العام. ولا شك أن هذا كله من اتباع المتشابه الذي يدل على أن في قلوبهم زيغًا، والحقيقة أن هذه الآية ليست من المتشابه، فقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ ليست من المتشابه؛ لأن دلالتها ظاهرة على المعنى، وليست متشابهة أصلًا، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليست بمتشابه، لكنهم يتبعون ما اشتبه عليهم من الاشتباه النسبي فيستدلون به، وكل هذا - نسأل الله العفو والعافية - من آثار ترك التمسك والاستسلام للكتاب والسنة.

وشيخ الإسلام بعد ما عرَّف الولي، وصفات الأولياء، وشروط الولي، ولما أتى إلى الفرق بين ولي الله ﷻ وولي الشيطان دخل إلى علوم شتى، مثل علوم الفلاسفة، وبعض المباحث الكلامية، وذهب إلى قول الاتحادية وسيرجع بعد ذلك إلى أصل المبحث والكلام على الكرامات، وصفات

= بالحجاز، ومنشؤه الكوفة، ثم سكن بغداد، وكان يقول في الغزل والمديح والهجاء، ثم تنسك وصار قوله في الوعظ والزهد، وأبو العتاهية لقب، توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين. انظر: تاريخ بغداد (٦/ ٢٥٠)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (٤/ ١٧٤٩)، والمنتظم (١٠/ ٢٣٦)، ووفيات الأعيان (١/ ٢١٩)، والوافي بالوفيات (٩/ ١١١)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٦٥)، والمستطرف في كل فن مستظرف (١/ ١٦).

الأولياء، وشروط الكرامة، إلى غير ذلك من المباحث. وقد ذكرنا أن شيخ الإسلام في استطراداته قد يصيب القاري تشتيت في الذهن.

لهذا ينبغي لطالب العلم حين يقرأ كتب شيخ الإسلام إلا يسترسل مع استطراداته، إذا أراد أن يفهم الموضوع فيفهمه أولًا مختصرًا عن طريق الفهرس أو تتبع الفصول، ثم يأخذ جملة الكلام، أي الفوائد التي فيه والاستدلالات، فإذا فهم هذا وعرف بناء الكتاب والقاعدة، وعلى أي شيء فهم شيخ الإسلام وتصوره قبل إنشاء الكلام، بعد ذلك لو قرأ ومرت عليه الاستطرادات، فإنه ينساق مع الاستطرادات، وينسى أصل الموضوع، وشيخ الإسلام إذا استطرد يحصل في استطراده أنواع من العلوم والفوائد، ولكن قد لا يكون تحريرها في هذا الموضع هو الأكمل، فنجد أنه في موضوع لكن يكون هناك ثغرات كثيرة ما استكملها، يأتي كلما أراد أن يبحث فيقول وقد بسطنا هذا في موضع آخر، مما لا يكتمل مع طالب العلم فهم معنى الاستطراد من كل وجه، فهو يستطرد لغرض يريده، لتقرير شيء وليس لتقرير المسألة التي استطرد فيها، لكن المسألة هذه جاءت لغرض آخر، فطالب العلم لا بد له أن يكون متتبعًا لكلام شيخ الإسلام كليًا قبل أن يبحث في جزئياته، أي لابد أن يتصور الكتاب قبل.

مثلًا: بحث في كتاب الفرقان: الولي، من هو الولي، والدليل على وجود الأولياء، ومن هم الأولياء، وتعريف الولي وشروط الأولياء، والإيمان، والتقوى، وتفاضل التقوى، وتفاضل الإيمان، فصَّل في هذا كله، وصفة الأولياء، والخوارق التي تحصل لهم والكرامات، جمعت الآن هذه العناوين، وهي زبدة البحث؛ لأن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا جاء استطراد في بعض كتبه، استطرد إلى مائة صفحة؛ لأنها هي يمكن كصفحة

أو صفحتين عندنا، إذا كان قد كتب الواسطية في جلسة، والحموية في جلسة، فلا غرابة أن يستطرد، فهو بحر لا تكدره الدلاء، رَحِمَهُ اللَّهُ. لكن طالب العلم في الاستفادة منها لا بد أن ينتبه، ومن الكلام الحسن ما قاله الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ[1] وسمعته منه يقول: (إن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يأتي إلى جدار الباطل كالموج فيسقطه جميعًا دفعة واحدة). فعلًا تنظر فتراه، لكن لا تعرف من أين بدأ. قال: (وأما ابن القيم، رَحِمَهُ اللَّهُ، فيأخذ جدار الباطل حجرًا حجرًا فيكسره لك).

وهذا واقع، ومثل ما وصف الشيخ؛ فإنك تجد ما أجمله شيخ الإسلام وردوده، وما استطرد فيه جاءت جميعًا كالموج الهائج، وتجد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يفصل لك جملة جملة، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حسنة من حسنات شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ولولا الله ثم شيخ الإسلام ما راح ابن القيم ولا جاء؛ كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن نفسه في النونية عندما ذكر حالته، وكونه كان متصوفًا لا يفهم الحق، حيث قال[2]:

حَتَّى أتاحَ لِيَ الإِلهُ بِفَضْلِهِ ... مَنْ لَيسَ تَجزِيهِ يَدِي وَلِسَانِي

---

(١) هو فضيلة شيخنا العلامة الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ المولود بشنشور بمصر عام ١٣٢٣هـ، ذو الفنون المتعددة، وقد رزقه الله مواهب من قوة الحافظة والملاحظة، وفقه النفس، وعني بعلوم اللغة، والتفسير، والأصول والعقائد، والفقه حتى إذا تحدث في علم منها ظن السامع أنه تخصصه، وهو قليل التأليف، من تآليفه: مذكرة في التوحيد، وحاشية على التفسير، وتحقيق الإحكام للآمدي. توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٤١٤هـ. انظر: فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٢٨ - ٣٠)، وترجمة الشيخ عبد الرزاق عفيفي للشيخ وليد بن إدريس.

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٧٣).

نسأل الله أن يرفع درجتهما في الجنة، وأن يجعلهما مع الأنبياء والصديقين، وأن يجزيهما خيرًا عن أهل التوحيد، فقد أبليا بلاءً حسنًا - رحمهما الله تعالى - .

فَصْلٌ

وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ تُشْتَبَهُ عَلَيْهِمْ الْحَقَائِقُ الْأَمْرِيَّةُ الدِّينِيَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ بِالْحَقَائِقِ الْخَلْقِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ الْكَوْنِيَّةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فَهُوَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ فَبِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ وَمَعْصِيَةِ رُسُلِهِ؛ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، وَنَهَى عَنْ الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ، فَأَعْظَمُ الْحَسَنَاتِ التَّوْحِيدُ، وَأَعْظَمُ السَّيِّئَاتِ الشِّرْكُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَنَهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ وَيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ، وَهُوَ يَكْرَهُ مَا نَهَى عَنْهُ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الإسراء: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨].

وَقَدْ نَهَى عَنْ الشِّرْكِ وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَأَمَرَ بِإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى الْحُقُوقَ، وَنَهَى عَنْ التَّبْذِيرِ، وَعَنْ التَّقْتِيرِ، وَأَنْ يَجْعَلَ يَدَهُ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِهِ، وَأَنْ يَبْسُطَهَا كُلَّ الْبَسْطِ، وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَعَنْ الزِّنَا، وَعَنْ قُرْبَانِ مَالِ الْيَتِيمِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨]. وَهُوَ سُبْحَانَهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْقَدَرَ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي

بِيَدِهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبَ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١) .

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(٢) .

وَفِي السُّنَنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ يَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّك أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، مِائَةَ مَرَّةٍ، أَوْ قَالَ: أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ»(٣) .

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - عِبَادَهُ أَنْ يَخْتِمُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذَا سَلَّمَ مِنْ الصَّلَاةِ يَسْتَغْفِرُ ثَلَاثًا وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْك السَّلَامُ تَبَارَكْت يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»(٤) ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِاللَّيْلِ وَيَسْتَغْفِرُوا بِالْأَسْحَارِ.

وَكَذَلِكَ خَتَمَ سُورَةَ الْمُزَّمِّلِ - وَهِيَ سُورَةُ قِيَامِ اللَّيْلِ - بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢)، وقوله ﷺ: **(يغان)** من الغين، وهو الغيم، والمراد الفترات، والغفلات عن الذكر، الذي كان شأنه الدوام عليه فإذا فتر عنه، أو غفل، عد ذلك ذنبًا واستغفر منه. ا. هـ. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢٣).

(٣) أخرجه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه مسلم (١٣٦٣).

وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْحَجِّ: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٨ - ١٩٩]. بَلْ أَنْزَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ الْأَمْرِ لَمَّا غَزَا النَّبِيُّ ﷺ غَزْوَةَ تَبُوكَ، وَهِيَ آخِرُ غَزَوَاتِهِ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩]، وَهِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر]. فَأَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يَخْتِمَ عَمَلَهُ بِالتَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»[1].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي

(١) أخرجه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤).

خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْت وَمَا أَسْرَرْت وَمَا أَعْلَنْت، لا إِلَهَ إلا أَنْتَ»[(١)].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيق ﵁ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمّ إنِّي ظَلَمْت نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِك، وَارْحَمْنِي إنَّك أَنْتِ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[(٢)].

الشرح:

يتكلم شيخ الإسلام في هذا الكتاب عن الفرقان بين صفات أولياء الله وأولياء الشطان، فمن صفات الذين ادعوا الولاية وتعلق الناس بهم في زمن شيخ الإسلام من أصناف المخرفين من رأوا أمر الله ﷻ واحدًا، رأوا أنهم مجبورون على ما يعملون، فيكون ما يعملونه محبوبًا لله ﷻ؛ فلذلك لا تجد عند أحدهم ندمًا على ما يحصل له من المعصية، ولا فرحًا بما يحصل له من الطاعة، فليس عندهم فرق ما بين الأمر الكوني القدري، ولا بين الأمر الشرعي الديني، وأولياء الرحمن ﷻ هم الذين يفرقون بين الأمرين، فالله ﷻ فرق بين الخلق والأمر فقال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وأمر الله ﷻ الشرعي غير أمر الله ﷻ

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).
(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

الكوني القدري. فالأمور الكونية القدرية التي تحصل في ملكوت الله، في السماء، وفي الأرض، وما يحصل في الإنسان من أشياء، وحركات، وتقلبات، وأمور مقدرة عليه، وما يحصل في الأفلاك، وما يحصل من تقاتل الناس إلى آخره، كل هذا حصل بإذن الله تعالى ومشيئته؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

إذًا الأمر الكوني القدري شيء، والأمر الشرعي الديني - يعني: ما أمر الله في كتابه وعلى لسان رسوله - شيء آخر، وقد يجتمعان وقد يفترقان[١] فيكون إذًا ما أمر الله به شرعًا هو محبوب له سبحانه؛ ولذلك أمر الله به، فامتثاله امتثال لما هو محبوب، وتركه لم يأذن الله ﷻ به شرعًا، فيكون تاركه مذمومًا، وترك الأمر وارتكاب النهي أصحابه عصاةٌ مع كونه مأذونًا به كونًا ووقع قدرًا بمشيئة الله ﷻ، ولكن لا يحبه الله ولا يرضاه، والذين ادعوا ولاية الله ﷻ ممن ضلوا، قال طائفة منهم في هذا المقام: إنه إذا حصل له شيء فإن هذا هو نفوذ أمر الله فيه، فاستسلامه لذلك ورضاه هو حقيقة التوحيد والاستسلام لله، وهذا باطل؛ لأن الله ﷻ أوجب على العبد أن يفرح بالطاعة، وأن يبغض المعصية، وأنه إذا غفل، أو جاءه ما يصده، أو فرط في أمر الله، أو اقترف ما نهى عنه، أو غان على قلبه؛ فإنه يلزمه الاستغفار والتوبة، وهذا يدل على أن مخالفة الأمر الشرعي يجب منه التوبة والاستغفار، فمعنى ذلك أن المخالفة مذمومة وأن العبد بحاجة إلى أن يُكفر عن ذلك، وأن يستغفر الحق ﷻ، وهذا يدل على أن نفوذ الأمر الكوني القدري لا يعني أن يرضى به، بل هذا لله ﷻ فيه حكمة بالغة.

(١) انظر: شفاء العليل (ص٣٢).

وهؤلاء الذين رد عليهم شيخ الإسلام، الذين جعلوا ما يحصل لهم من أمور الطاعة والمعصية - كلها - يجعلوها أمرًا كونيًا شرعيًا قدريًا، يخلطون الأمرين ويجعلونها محبوبة لله، وبالتالي فهم يرضون بذلك، وربما تجد في تراجم بعض الصوفية أنهم ربما مدحوا بفعل بعض المعاصي؛ لأنه عندهم وعلى أصلهم أنه لا فرق بين الأمر الكوني والأمر الشرعي، فنفوذ أمر الله فيهم بهذا الشيء، يعني: إلا يختاروا غيره، بمعنى أنهم استسلموا لأمر الله، وهذا عندهم هو نهاية التوحيد والفناء[1] بأحد أقسامه. المقصود: أن هذا الاستطراد في الاستدلال أراد به التفريق والرد على تلك الطائفة.

(١) الفناء في التوحيد عندهم أن السالك إذا انتهى سلوكه إلى الله تعالى في الله، يستغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته في ذاته، وصفاته في صفاته، ويغيب عن كل ما سواه، ولا يرى في الوجود إلا الله. انظر: مصرع التصوف (ص٨١).

وَفِي السُّنَنِ عَنْ أبي بَكْرٍ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ إذَا أَصْبَحْت وَإِذَا أَمْسَيْت. فَقَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلا أَنْتَ، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إلَى مُسْلِمٍ. قُلْهُ إذَا أَصْبَحْت وَإِذَا أَمْسَيْت وَإِذَا أَخَذْت مَضْجَعَك»[1]. فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَظُنَّ اسْتِغْنَاءَهُ عَنْ التَّوْبَةِ إلَى اللَّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ الذُّنُوبِ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إلَى ذَلِكَ دَائِمًا. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢ - ٧٣].

فَالْإِنْسَانُ ظَالِمٌ جاهِلٌ، وَغَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ التَّوْبَةُ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِتَوْبَةِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[2]، وَهَذَا لا يُنَافِي قَوْلَهُ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَفَى بَاءَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَادَلَةِ، وَالْقُرْآنُ أَثْبَتَ بَاءَ السَّبَبِ.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: (إذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ تَضُرَّهُ الذُّنُوبُ)، مَعْنَاهُ: أَنَّهُ إذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَلْهَمَهُ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ فَلَمْ يُصِرَّ عَلَى الذُّنُوبِ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الذُّنُوبَ لا تَضُرُّ مَنْ أَصَرَّ عَلَيْهَا فَهُوَ ضَالٌّ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ، بَلْ مَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.

وَإِنَّمَا عِبَادُهُ الْمَمْدُوحُونَ هُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥].

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْقَدَرَ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩]. وَلَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لِأَحَدٍ لَمْ يُعَذِّبْ اللَّهُ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ وَقَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَى الْمُعْتَدِينَ، وَلَا يَحْتَجُّ أَحَدٌ بِالْقَدَرِ إلا إذَا كَانَ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ.

وَمَنْ رَأَى الْقَدَرَ حُجَّةً لِأَهْلِ الذُّنُوبِ يَرْفَعُ عَنْهُمْ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ، فَعَلَيْهِ أَنْ لا يَذُمَّ أَحَدًا وَلَا يُعَاقِبَهُ إذَا اعْتَدَى عَلَيْهِ؛ بَلْ يَسْتَوِي عِنْدَهُ

مَا يُوجِبُ اللَّذَّةَ وَمَا يُوجِبُ الْأَلَمَ، فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ يَفْعَلُ مَعَهُ خَيْرًا وَبَيْنَ مَنْ يَفْعَلُ مَعَهُ شَرًّا، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ طَبْعًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] أَيْ مُهْمَلًا لا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، قَالَ مُوسَى: يَا آدَمَ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَك اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ، لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاك اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَكَتَبَ لَك التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، فَبِكَمْ وَجَدْت مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ [طه: ١٢١] قَالَ: بِأَرْبَعِينَ سَنَةٍ [قَالَ]: فَلِمَ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةٍ؟ قَالَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»(١)، أَيْ: غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ. وَهَذَا الْحَدِيثُ ضَلَّتْ فِيهِ طَائِفَتَانِ: طَائِفَةٌ كَذَّبَتْ بِهِ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُ يَقْتَضِي رَفْعَ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ عَمَّنْ عَصَى اللَّهَ لِأَجْلِ الْقَدَرِ، وَطَائِفَةٌ شَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

جَعَلُوهُ حُجَّةً، وَقَدْ يَقُولُونَ: الْقَدَرُ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الْحَقِيقَةِ الَّذِينَ شَهِدُوهُ، أَوْ الَّذِينَ لا يَرَوْنَ أَنَّ لَهُمْ فِعْلًا. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ قَالَ: إنَّمَا حَجَّ آدَمُ مُوسَى؛ لِأَنَّهُ أَبُوهُ، أَوْ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ تَابَ، أَوْ لِأَنَّ الذَّنْبَ كَانَ فِي شَرِيعَةٍ وَاللَّوْمَ فِي أُخْرَى، أَوْ لِأَنَّ هَذَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا دُونَ الْأُخْرَى.

وَكُلُّ هَذَا بَاطِلٌ. وَلَكِنَّ وَجْهَ الْحَدِيثِ أَنَّ مُوسَى عليه السلام لَمْ يَلُمْ أَبَاهُ إلا لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ مِنْ أَجْلِ أَكْلِهِ مِنْ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ لَمْ يَلُمْهُ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَتَابَ مِنْهُ، فَإِنَّ مُوسَى يَعْلَمُ أَنَّ التَّائِبَ مِنْ الذَّنْبِ لا يُلَامُ، وَهُوَ قَدْ تَابَ مِنْهُ أَيْضًا، وَلَوْ كَانَ آدَمُ يَعْتَقِدُ رَفْعَ الْمَلَامِ عَنْهُ لِأَجْلِ الْقَدَرِ لَمْ يَقُلْ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ عِنْدَ الْمَصَائِبِ أَنْ يَصْبِرَ وَيُسَلِّمَ، وَعِنْدَ الذُّنُوبِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ الْمَعَائِبِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ(١).

---

(١) رواه البخاري معلقًا في كتاب التفسير باب تفسير سورة التغابن.

فَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ - مِثْلُ الْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالذُّلِّ - صَبَرُوا لِحُكْمِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذَنْبِ غَيْرِهِمْ، كَمَنْ أَنْفَقَ أَبُوهُ مَالَهُ فِي الْمَعَاصِي فَافْتَقَرَ أَوْلَادُهُ لِذَلِكَ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَصْبِرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ، وَإِذَا لَامُوا الْأَبَ لِحُظُوظِهِمْ ذَكَرَ لَهُمْ الْقَدَرَ.

وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ الرِّضَا بِحُكْمِ اللَّهِ وَالرِّضَا قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ وَاجِبٌ، وَقِيلَ: هُوَ مُسْتَحَبٌّ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى الْمُصِيبَةِ لِمَا يَرَى مِنْ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَا؛ حَيْثُ جَعَلَهَا سَبَبًا لِتَكْفِيرِ خَطَايَاهُ، وَرَفْعِ دَرَجَاتِهِ، وَإِنَابَتِهِ وَتَضَرُّعِهِ إِلَيْهِ، وَإِخْلَاصِهِ لَهُ فِي التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَرَجَائِهِ دُونَ الْمَخْلُوقِينَ.

الشرح:

هذه الجملة الأخيرة، وهي قوله: (**إن الصبر مأمور به، وأعلى منه الرضا وأعلى منه الشكر**) هذه مراتب ثلاث للعبد المؤمن تجاه ما يصيبه الله ﷻ به ويبتليه، وسعادة المؤمن تكمن في أنه: «**إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر**»[1]، فمن كان عنده هذه الثلاث، فهذا قد حصل له الإيمان الحق.

فالصبر مأمور به، فهو واجب، وإذا كان الصبر مأمورًا به، فإن العبد يؤجر لا على نفس المصيبة؛ ولهذا إذا أصابت العبد مصيبة فإن المصيبة بنفسها

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٨/ ٣١٦) عن مطرف بن عبد الله بن الشخير.

يكفر الله ﷻ بها من خطاياه، فالمصائب كفارات؛ كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»[1]، هذا يدل مع أحاديث أُخَرَ على أن المصيبة تكفر، لكن الأجر على المصيبة لا يكون إلا لمن صبر؛ كما جاء في الحديث الآخر الذي في الصحيح أيضًا: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[2] فالمصائب بنفسها كفارة، ولا يؤجر إلا على الصبر؛ وذلك لأن الصبر مأمور به فإذا امتثل الواجب فصبر أُجر على ذلك. أما الرضا فهو مقام أعلى، والصبر هو حبس القلب عن التسخط، واللسان عن التشكي، والجوارح عن إظهار الجزع باللطم والشق أو بأشباه ذلك، فمن شكى باللسان فإنه ليس بصابر، ومن تسخط المصيبة بالقلب فليس بصابر، ومن لطم وشق أو عمل أعمالًا تنافي الصبر فليس بصابر.

المرتبة الثانية: الرضا[3]، وقال ﷺ هنا: (**وَالرِّضَا قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ وَاجِبٌ، وَقِيلَ: هُوَ مُسْتَحَبٌّ**) وهذان قولان لأهل العلم منهم من قال: إن الرضا واجب، ومنهم من قال: إن الرضا مستحب، والصواب أن يقال: إن الرضا لا يقال هو واجب ولا مستحب، بل له جهتان: الرضا بفعل الله ﷻ وهو قضاءه وقدره هذا واجب؛ لأن الرضا بصفات الله ﷻ وما يفعله واجب.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٩، ٣٠)، ونقل فيها كلام شيخ الإسلام المذكور هنا ملخصًا. وانظر شفاء العليل لابن القيم (ص٢٧٨).

والثاني: الرضا بالمقضي بالمقدر، فهذا مستحب، مثلًا: فقد ولد، أو فقد حبيب من جهة أن هذا الفعل جاء من الله ﷻ، فالواجب الرضا عن أفعال الله ﷻ، وألا تسخط أفعال الله ﷻ في ملكوته؛ لأن هذا يدخل في ظن السوء بالله، ويدل عليه عموم قوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

والجهة الثانية: المقضي نفسه، أو المصيبة نفسها - وهو فقد الولد مثلًا - فالرضا به هذا مستحب، فيرضى لكونه يعلم أن هذا فيه خير له، وأنه أصلح، وأن الله لا يختار للعبد الا ما هو أصلح له، ونحو ذلك، فهنا الرضا بالمصيبة من الأمور المستحبة لذوي المقامات العالية؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى بها، ويسلم لله، هذا من تمام الإيمان وهو سبب من أسباب الهداية، أن يرضى بفعله سبحانه بصفته بتقديره، وأشباه ذلك واجب؛ لأن الرضا عن الله ﷻ وصفاته وأسمائه واجب، ولا يُظن به سبحانه ظن السوء، والجهة الثانية الرضا بالمقضي فهذه مستحبة.

المرتبة الثالثة: أن يكون شاكرًا لله ﷻ على تلك المصيبة، وهذه إنما هي لخاصة عباد الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، فهو يرضى، ثم بعد ذلك يشكر الله ﷻ أن جاءته هذه المصيبة، ليكون له بها الخير من جهة تكفير السيئات، ومن جهة أنه يصبر فيثاب، ومن جهة أنه يرضى عن فعل الله ﷻ الرضا الواجب، فيثاب ويرضى بالمصيبة أيضًا، فيثاب أيضًا بذلك، ويشكر الله تعالى أن لم يجعله من المتسخطين، أو الكارهين، ونحو ذلك، وهذا مقام الشكر لله ﷻ على المصائب. إذًا فثم أربع درجات ذكرها شيخ الإسلام، في هذا الموضع:

الأولى: هي الصبر.

الثانية: هي الرضا عن فعل الله.

الثالثة: الرضا بالمصيبة.

الرابعة: هي الشكر.

فاثنتان منها واجبة، الصبر والرضا بقضاء الله، واثنتان منها مستحبة وهما الرضا بالمصيبة والشكر عليها بعد ذلك مستحبة، وهما من مقامات الأولياء.

وَأَمَّا أَهْلُ الْبَغْيِ وَالضَّلَالِ فَتَجِدُهُمْ يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ إِذَا أَذْنَبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَيُضِيفُونَ الْحَسَنَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدَرِيٌّ، وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِيٌّ، أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاك تَمَذْهَبْت بِهِ[١].

وَأَهْلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ إِذَا فَعَلُوا حَسَنَةً شَهِدُوا إِنْعَامَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِهَا، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَهُمْ مُسْلِمِينَ، وَجَعَلَهُمْ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَأَلْهَمَهُمْ التَّقْوَى، وَأَنَّهُ لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلا بِهِ، فَزَالَ عَنْهُمْ بِشُهُودِ الْقَدَرِ الْعَجَبُ وَالْمَنُّ وَالْأَذَى، وَإِذَا فَعَلُوا سَيِّئَةً اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَتَابُوا إلَيْهِ مِنْهَا.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إلا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُك، وَأَنَا عَلَى عَهْدِك وَوَعْدِك مَا اسْتَطَعْت، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْت، أَبُوءُ لَك بِنِعْمَتِك عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا إذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[٢].

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أبي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي! إنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي!

---

(١) هذا القول نسبه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤٦) إلى أبي الفرج ابن الجوزي.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أُبَالِي، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْته، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْته، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْته، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْت كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْبَحْرُ إِذَا غُمِسَ فِيهِ الْمِخْيَطُ غَمْسَةً وَاحِدَةً، يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَن إِلَّا نَفْسَهُ»[١].

فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى مَا يَجِدُهُ الْعَبْدُ مِنْ خَيْرٍ، وَأَنَّهُ إِذَا وَجَدَ شَرًّا فَلَا يَلُومَن إلا نَفْسَهُ.

وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْحَقِيقَةِ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِخَلْقِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَبَيْنَ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه.

الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الْأَمْرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِرِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ يَقُومُ بِالْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ مُوَافِقًا لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ، وَبَيْنَ مَنْ يَقُومُ بِوَجْدِهِ وَذَوْقِهِ غَيْرَ مُعْتَبِرٍ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. كَمَا أَنَّ لَفْظَ الشَّرِيعَةِ يَتَكَلَّمُ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّرْعِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، فَإِنَّ هَذَا الشَّرْعَ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ الْخَلْقِ الْخُرُوجُ عَنْهُ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْهُ إلا كَافِرٌ، وَبَيْنَ الشَّرْعِ الَّذِي هُوَ حُكْمُ الْحَاكِمِ، فَالْحَاكِمُ تَارَةً يُصِيبُ وَتَارَةً يُخْطِئُ، هَذَا إِذَا كَانَ عَالِمًا عَادِلًا، وَإِلَّا فَفِي (السُّنَنِ) عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ؛ رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ فَقَضَى بِغَيْرِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ»[1]، وَأَفْضَلُ الْقُضَاةِ الْعَالِمِينَ الْعَادِلِينَ: سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْت لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ»[2].

فَقَدْ أَخْبَرَ سَيِّدُ الْخَلْقِ أَنَّهُ إِذَا قَضَى بِشَيْءٍ مِمَّا سَمِعَهُ، وَكَانَ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ، لَمْ يَجُزْ لِلْمَقْضِيِّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا قَضَى بِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥) وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَمْلَاكِ الْمُطْلَقَةِ إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ بِمَا ظَنَّهُ حُجَّةً شَرْعِيَّةً كَالْبَيِّنَةِ وَالْإِقْرَارِ، وَكَانَ الْبَاطِنُ بِخِلَافِ الظَّاهِرِ، لَمْ يَجُزْ لِلْمَقْضِيِّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا قُضِيَ بِهِ لَهُ بِالِاتِّفَاقِ.

وَإِنْ حَكَمَ فِي الْعُقُودِ وَالْفُسُوخِ بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ فَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ، وَفَرَّقَ أَبُو حَنِيفَةَ ﷺ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ. فَلَفْظُ الشَّرْعِ وَالشَّرِيعَةِ إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَا لِغَيْرِهِمْ أَنْ يَخْرُجَ عَنْهُ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ غَيْرَ مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فَلَمْ يُتَابِعْهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فَهُوَ كَافِرٌ.

الشرح:

هذا المبحث اشتمل على تأصيل مسألة عظيمة، وهي الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وهي أن العبد المؤمن يفرق بين ما يجريه الله ﷻ كونًا وقدرًا، وما يجعله الله ﷻ دينًا وشرعًا، فالحقيقة منقسمة إلى حقيقة كونية قدرية، وإلى حقيقة شرعية دينية[1]؛ لهذا يتعامل مع ما يجري كونًا بالصبر عليه، والرضا به؛ كما ذكر آنفا أن الصبر واجب، وأن الرضا بما يقع مستحب، ويتعامل مع الحقيقة الدينية الشرعية بالامتثال في الأمر والنهي، فإذا نظر العبد الى هاتين المسألتين وجد أن الولي هو الذي لا يحتج بالقدر

(١) انظر: شفاء العليل (ص٣٢).

إذا هوى، ولا يحتج بالجبر إذا رغب.

فالأمور الكونية التي تحصل من المصائب، والبلاء، والفتن، ونحو ذلك مما يحصل في الأرض، أو مما يحصل في السماء مما يبتلي الله ﷻ به العباد هذه أمور كونية لله ﷻ فيها الحكمة البالغة، لا تؤثر هذه في الاستسلام، وفي الرضا على أفعال العبد تجاه هذه الأشياء. فرأت طائفة أن كل ما يجري فيه حكمة، ولكن لا يفعلون مع ما يحصل شيئًا، وهذا مثل ابتلاء الله ﷻ بالأعداء، وبالمنافقين، والفرقة، والفتنة، وهي مما قدره الله ﷻ كونًا ووقع، فهذه من استسلم لها، ولم ينظر إلى الحقيقة الشرعية الدينية؛ فإنه ضال، وأما من جمع بين الأمرين ورأى أن هذه وقعت والله ﷻ له الحكمة البالغة في ذلك، وإذا وقعت لم يحزنه هذا، ولم ينشغل به عما يجب عليه شرعًا. فإن الناس قد ينشغلون بالكونيات عن الشرعيات، والناس عند ورود البلاء والشبهات، وعند ورود الفتن قد لا يستعملون معها الشرعيات، وقد لا تتحملها قلوبهم وعقولهم، فلا يعملون معها ما يجب، وهذه ليست بصفة أولياء الله، فأولياء الله ﷻ هم الذين يعلمون أن ما يجري الله ﷻ في كونه أنه بحكمه، وأن له الأمر الغالب ثم يأتون ما أمر الله به ﷻ شرعًا.

فإذا كان الميدان ميدان جهاد جاهدوا، وإذا كان الميدان ميدان أمر بالمعروف ونهي عن المنكر أمروا ونهوا، وإذا كان المجال مجال نصيحة نصحوا لله ﷻ ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، وإذا كان الميدان ميدان اجتماع وائتلاف ونهي عن الفرقة والاختلاف؛ فإنهم لا يشغلهم ذكر الفرقة والاختلاف عما يجب شرعًا تجاه ذلك من كف اللسان، والنصيحة، والتآلف، والتآخي، وقَلّ من يخلص من هذه المسائل

بالتوفيق ما بين أمر الله الشرعي، وما بين ابتلائه الكوني، وإنما يخلص من ذلك أولياء الله ﷻ.

وكذلك ما ذكر أن أولياء الله ﷻ بخلاف من ليسوا كذلك في أمر الشريعة، فليس أمر الشريعة - فيما يسمى شريعة - فقط فيما أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ، بل ما حكم به الحاكم فيما له أن يحكم فيه - وهو القاضي - هذا أيضًا من الشريعة الذي لا يجوز لأحد أن يخرج عنها، لكن ثم فرق ما بين الكتاب المنزل، والسنة، والشريعة التي هي كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، الذي من خالفها فهو كافر، وما بين كلام عالم، أو حكم قاض، ونحو ذلك.

فليس كل من خالف كلام عالم أو طائفة من العلماء يُعد كافرًا، وليس كل من خالف أو لم يرض بحكم الحاكم أنه يكون كافرًا، بل ثم فرق بين النوعين، لكل من خالف الشريعة المنزلة أو خرج عنها فهذا كافر، ومن خالف عالمًا معينًا فهذا فيه التفصيل، فقد يخالفه إلى أمر آخر يكون فيه محقًا، أو يكون فيه مبطلًا، لكن يكون له ثم شبهة. وإذا كان النبي ﷺ ذكر أنه قد يقضي القضاءﷺ ولا يكون مصيبًا في حقيقة الأمر، ولكن يكون مصيبًا في ظاهر الأمر؛ لأن قضاء القاضي إنما هو على البينات الظاهرة أو على الإقرار.

فإذا قضى على ما يكون من بينة أو على ما يأتيه من فهم حجةِ هذا، وحجة هذا، فإنه في الظاهر حكم بشرع الله ﷻ وأعطى الحق لأهله، وقد لا يكون في الباطن وصل إلى حقيقة الأمر، وهذا لا يجعل هذا القاضي لا يصب حكم الشريعة؛ ولهذا فإن القاضي إذا قضى على نحو ما سمع، أو على

نحو ما ظهر له من الأمر، وكان في الباطن ليس محقًا؛ فإن هذا لا يقدح في قضائه بل النبي ﷺ، وهو أكمل الخلق قد قال: «**إنما أنا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلي، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْض، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ**»[١]. مع أنه ﷺ هو النبي، وهو المؤيد، وهو الذي يوحى إليه، لكن قد يخالف حكمه الظاهر في حقيقة باطن الأمر، فيقضي لمن ليس له الحق، فليس هذا موجبًا للقدح فيه.

والناس في هذا ما بين طرفين ووسط، فالطرفان: طرف أولياء الشيطان أو من لم يرع للشريعة حقها، فرأى أنه يسعه الخروج من حكم الشريعة إذا حصل له علم الحقيقة في الباطن. وطرف آخر غلا فقال: إن القاضي إذا حكم في أمر بغير الحق في نفس الأمر؛ فإنه يُحْكَمُ عليه بالكفر والضلال؛ لأنه إذا لم يصل إلى حقيقة الأمر فإنه اتبع هواه، والصواب التفريق ما بين الشريعة المطلقة التي لا يسوغ لأحد أن يخرج عنها، وبين حكم الحاكم، أو كلام العالم، أو طائفة من العلماء في مسألة ما، أو في مسائل متعددة؛ فإن هذه قد يكون معهم الحق فيها، وقد لا يكون، والناس يلزمهم أن يمشوا على فتوى علمائهم، وأن يلتزموا بقضاء قضاتهم، ولو كان في نفس الأمر غير موافق للصواب؛ لأن الناس لا يصلحون دون حكم حاكم ودون فتوى مفت بالمسائل.

فإذًا ينتبه إلى طرف الغلاة، وهم الذين جعلوا الشريعة قسمًا واحدًا، وهو ما دل عليه الكتاب والسنة، فمن خالفها فهو ضال دون النظر إلى ما يجري

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

ظاهرًا على فهم العلماء من المفتين والقضاة. وما بين فئة جَفَتْ فتركت اتباع السنة واتباع محمد ﷺ طلبًا للحقيقة؛ كما سيأتي في كلام الشيخ رحمه الله، وهذا الآن مثل بعض المسائل التي قد يرددها البعض، وهو لا يفقه، يقول مثلًا: فلان حكم بغير الشريعة، وهذا الحكم بغير الشريعة، ونحو ذلك لخروج من فعل ذلك عن الحكم بقول بعض العلماء، أو القول ببعض المذاهب ونحو ذلك، فهذا لا شك أنه لا يجوز أن يطلق القول في حق أحد، أو في حق دولة، أو في حق مجتمع، أنه حكم بغير الشريعة لخروجه عن الحكم بقول طائفة من أهل العلم، وإنما حكم بغير الشريعة إذا خرج عن مدلول الكتاب والسنة عما دل عليه الدليل، فإن كان الدليل مجملًا، والمسألة ليس فيها إجماع فلا يجوز أن يقال: إن فلانًا خرج عن حكم الشريعة، أو حكم بغير الشريعة، والقاضي الفلاني حكم بهواه، أو الدولة الفلانية تحكم بغير الشريعة، إذا كانت حكمت بقول طائفة معينة من أهل العلم؛ فإنه لابد من التفريق ما بين الحكم المطلق للشريعة الذي من تركه فهو كافر وضال، وما بين الحكم المقيد الشرعي، فهو شريعة وهو حكم طائفة من أهل العلم؛ فإن الخروج عن الأول كفر، وأما الخروج عن الثاني ففيه تفصيل.

وَمَنْ احْتَجَّ فِي ذَلِكَ بِقِصَّةِ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ كَانَ غَالِطًا مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَى الْخَضِرِ، وَلَا كَانَ عَلَى الْخَضِرِ اتِّبَاعُهُ؛ فَإِنَّ مُوسَى كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فَرِسَالَتُهُ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَلَوْ أَدْرَكَهُ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ الْخَضِرِ - كَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى - وَجَبَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ، فَكَيْفَ بِالْخَضِرِ، سَوَاءٌ كَانَ نَبِيًّا أَوْ وَلِيًّا؟! وَلِهَذَا قَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: «إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ»[1]. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا.

الشرح:

إن سبب اتصال موسى عليه السلام بالخضر، أن موسى عليه السلام قال: أنا أعلم أهل الأرض، فأوحى الله عز وجل إليه أن ائت عبدنا الخضر؛ فإنه أعلم منك، والحديث معروف في البخاري، وفي تفسير سورة الكهف[2].

وقد اختلف العلماء في الخضر، هل كان نبيًا أو كان وليًا؟ فرأت طائفة وهم المحققين من أهل العلم أنه نبي، واستدلوا على ذلك بما فعله الخضر

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤)، ومسلم (٢٣٨٠)، وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٩٢)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٧)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٩٣).

من أشياء لا يمكن أن يدركها إلا بالوحي، وفيها قول ينسب إليه وإلى الملائكة، وهو قوله ﷻ: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]، وقال في الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، وهذا إنما يكون عن وحي، والوحي إنما هو للأنبياء لا للأولياء؛ لأن الولي يأتيه الإلهام، والإلهام إنما يكون في قضايا ولا يكون في مثل قتل الغلام، وإقامة جدار، وخرق سفينة، ونحو ذلك.

والقول الثاني: وهو قول عدد كبير من أهل العلم، وهم جمهور أهل العلم، أنه كان وليًا، وليس بنبي.

وقد قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: إن أُولَىَ درجات الزندقة أن يُقال إن الخضر ولي؛ لأجل أن الزنادقة الذين خرجوا عن اتباع محمد ﷺ من أصحاب الوحدة قالوا: كما وسع الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ الخروج، فنحن يسعنا الخروج، فالخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ خرج عن رسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعن اتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أُلهم؛ لأنه كان وليًا، فنحن نخرج كما خرج الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

حاصل الكلام أن المحققين من أهل العلم على أنه كان نبيًا، وأن الجمهور - يعني أكثر العلماء - الذين تكلموا في هذه المسألة على أنه كان وليًا.

---

(١) قال ابن حجر في الإصابة (٢/ ٢٨٨): «وكان بعض أكابر العلماء يقول أول عقد يحل من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبيًا لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي كما قال قائلهم:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيّ

الثَّانِي: أَنَّ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ لَمْ يَكُنْ مُخَالِفًا لِشَرِيعَةِ مُوسَى عليه السلام، وَمُوسَى لَمْ يَكُنْ عَلِمَ الْأَسْبَابَ الَّتِي تُبِيحُ ذَلِكَ، فَلَمَّا بَيَّنَهَا لَهُ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ خَرْقَ السَّفِينَةِ ثُمَّ تَرْقِيعَهَا لِمَصْلَحَةِ أَهْلِهَا خَوْفًا مِنْ الظَّالِمِ أَنْ يَأْخُذَهَا إِحْسَانٌ إِلَيْهِمْ، وَذَلِكَ جَائِزٌ، وَقَتْلُ الصَّائِلِ جَائِزٌ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا، وَمَنْ كَانَ تَكْفِيرُهُ لِأَبَوَيْهِ لا يَنْدَفِعُ إِلَّا بِقَتْلِهِ جَازَ قَتْلُهُ. قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما لِنَجْدَةَ الْحَرُورِيِّ[1] لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ قَتْلِ الْغِلْمَانِ - قَالَ لَهُ -: «إِنْ كُنْت عَلِمْت مِنْهُمْ مَا عَلِمَهُ الْخَضِرُ مِنْ ذَلِكَ الْغُلَامِ فَاقْتُلْهُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَقْتُلْهُمْ»[2]. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ إِلَى الْيَتِيمِ بِلَا عِوَضٍ وَالصَّبْرُ عَلَى الْجُوعِ، فَهَذَا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مُخَالِفًا شَرْعَ اللَّهِ. وَأَمَّا إذَا أُرِيدَ بِالشَّرْعِ حُكْمُ الْحَاكِمِ؛ فَقَدْ يَكُونُ ظَالِمًا، وَقَدْ يَكُونُ عَادِلًا، وَقَدْ يَكُونُ صَوَابًا، وَقَدْ يَكُونُ خَطأً، وَقَدْ يُرَادُ بِالشَّرْعِ قَوْلُ أَئِمَّةِ الْفِقْهِ: كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَالثَّوْرِيِّ، وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَالْأَوْزَاعِيّ[3]

(١) نجدة بن عامر الحروري من رؤوس الخوارج، وزاد على معتقد الخوارج أن من لم يخرج ويحارب المسلمين فهو كافر، ولو اعتقد معتقدهم، خرج باليمامة عقب موت يزيد بن معاوية، وقدم مكة، وله مقالات معروفة، وأتباع انقرضوا، ووقع ذكره في صحيح مسلم، وأنه كاتب ابن عباس رضي الله عنهما يسأله عن سهم ذي القربى وعن قتل الأطفال الذين يخالفونه، وغير ذلك، قُتل سنة ٦٩هـ.

انظر: لسان الميزان (٦/١٤٨)، والأعلام للزركلي (٨/ ١٠)، والكامل لابن الأثير (٤/ ٢٠١).

(٢) أخرجه مسلم (١٨١٢).

(٣) الأوزاعي شيخ الإسلام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الدمشقي الحافظ، ولد سنة ٨٨هـ، سكن في آخر عمره بيروت مرابطًا، وبها توفي سنة ١٥٨هـ. =

وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ[(١)]، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَد، وَإِسْحَاقَ[(٢)]، وَدَاوُدَ[(٣)]، وَغَيْرِهِمْ، فَهَؤُلَاءِ أَقْوَالُهُمْ يُحْتَجُّ لَهَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِذَا قَلَّدَ غَيْرَهُ حَيْثُ يَجُوزُ ذَلِكَ كَانَ جَائِزًا، أَيْ لَيْسَ اتِّبَاعُ أَحَدِهِمْ وَاجِبًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ كَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَا يَحْرُمُ تَقْلِيدُ أَحَدِهِمْ كَمَا يَحْرُمُ اتِّبَاعُ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

وَأَمَّا إِنْ أَضَافَ أَحَدٌ إِلَى الشَّرِيعَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا مِنْ أَحَادِيثَ مُفْتَرَاةٍ، أَوْ تَأَوَّلَ النُّصُوصَ بِخِلَافِ مُرَادِ اللَّهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ نَوْعِ التَّبْدِيلِ، فَيَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّرْعِ الْمُنَزَّلِ، وَالشَّرْعِ الْمُؤَوَّلِ، وَالشَّرْعِ الْمُبَدَّلِ، كَمَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الْأَمْرِيَّةِ، وَبَيْنَ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَبَيْنَ

= انظر: صفة الصفوة (٤/ ٢٥٥)، وتذكرة الحفاظ (١/ ١٧٨)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ١٠٧)، والبداية والنهاية (١٠/ ١١٥).

(١) الليث بن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث، الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية، ولد سنة ثلاث وتسعين، واستقل بالفتوى والكرم بمصر، كان ورعًا فاضلًا كثير الحديث، توفي سنة ١٧٥هـ. انظر: صفة الصفوة (٤/ ٣٠٩)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ١٣٦).

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن راهويه عالم المشرق، وأحد الأئمة المجتهدين، له تصانيف منها المسند، جمع الحديث، وأخذ عنه أحمد والبخاري، ومسلم والترمذي، والنسائي، سكن نيسابور ومات بها سنة ٢٣٨هـ.
انظر: طبقات الحنابلة (١/ ١٠٩)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٣٥٨).

(٣) أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني الملقب بالظاهري، ولد في سنة ٢٠٢، ومات سنة ٢٧٠هـ، أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه، وأبي ثور، وكان زاهدًا متقللًا.
انظر: طبقات الفقهاء (ص١٠٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ١٠٢).

مَا يُكْتَفَى فِيهَا بِذَوْقِ صَاحِبِهَا وَوَجْدِهِ.

الشـــرح:

طوائف الضلال في هذا الباب لهم أقوال، ولهم آراء، ولهم شبه كثيرة في مسألة الولاية، وفي مسألة الاعتقاد في الأولياء، فمن تلك المسائل زعم طائفة من ضلال الصوفية أن أحدًا من الناس الذين بلغوا مبلغًا فنوا أولًا، ثم سمعوا الخطاب - أي: خطاب الرب ﷻ لهم أن يخرجوا عن شريعة محمد ﷺ؛ كما وسع الخضر عليه السلام الخروج عن شريعة موسى عليه السلام، وهذا الرأي الذي ذهبوا إليه مبني على شيئين:

الأول: أن الخضر خرج عن شريعة موسى عليه السلام.

والثاني: أنهم خاطبهم الله ﷻ وأوحى إليهم؛ كما أوحى الله ﷻ إلى الخضر وإلى موسى عليه السلام. وهاتان المقدمتان وهذان القولان ردهما شيخ الإسلام رحمه الله.

أما الأمر الأول: فإنه لا يُعرف أن الخضر عليه السلام خرج عن شريعة موسى عليه السلام في هذه الأفعال الثلاثة التي صحب فيها موسى الخضر عليهما السلام، فهذه الأفعال الثلاثة جاءت بها شريعة الخضر عليه السلام، وهي أيضًا موجودة حتى في شريعة الإسلام، ففعل أفعالًا ثلاثة أنكرها عليه موسى عليه السلام، ليس لأجل أنها لا توافق الشريعة؛ ولكن لأجل أنه لم يعلم تأويلها، ولم يعلم تفسيرها، فما صبر؛ ولهذا قال الخضر لموسى عليهما السلام: (أنت على علم من علم الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله لا تعلمه). فإذا كان المرجع وسبب ذهاب موسى إلى الخضر عليهما السلام أنه سُئل: (أي الناس أعلم؟، أو أي أهل

الأرض أعلم؟، فقال موسى عليه السلام: (أنا)، ولم يرجع الأمر إلى علم الله، فقال له الله عز وجل موحيًا إليه: (ائت عبدنا خضرًا فإنه أعلم منك)؛ كما رواه البخاري في أول الصحيح(١).

فالأفعال الثلاثة:

الأول: خرق السفينة، وهذا إحسان، والإحسان مطلوب في الشرائع جميعًا، ففعل الخضر عليه السلام لم يكن ظلمًا، ولم يكن اعتداء بل كان إحسانًا إليهم، وهذا الإحسان جاءت به شريعة موسى عليه السلام، وجاءت به الشرائع جميعًا؛ فإن الملك كان يريد أن يأخذ السفينة السليمة، فلما وجد أن السفينة معابة تركها، ثم أصلحت السفينة.

الثاني: قتل الغلام، خشي أن يُكفر أبويه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٨٠] أن يطغى عليهما وأن يكفر أو أن يكفرهما، وأن يدلهما على الكفر والباطل، فقتل هذا الذي عُلم أنه سيكون صائلًا على أبويه في الدين، قتله مشروع؛ لأن الصائل على الأبدان يُقتل، فكيف بالصائل على الدين؟

الثالث: بناء جدار، هذا أيضًا إحسان. فأفعال الخضر عليه السلام لم يكن شيء منها دالًا على أن الخضر عليه السلام خرج على شريعة موسى عليه السلام.

فإذًا تأصيلهم المسألة بأن الولي له أن يخرج عن شريعة محمد ﷺ؛ كما خرج الخضر عليه السلام عن شريعة موسى عليه السلام، هذا مبني على مقدمة غير صحيحة؛ لأن هذه المقدمة مظنونة، وهي هل كان الخضر عليه السلام مخاطبًا بشريعة موسى عليه السلام أو غير مخاطب؟ وهذا لا نعلمه، وهل كان مأمورًا

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٠٤).

باتباع موسى عليه السلام أو لم يكن؟ وهذا لا نعلمه، هل كان من قوم موسى عليه السلام أو لم يكن؟ وهذا لا نعلمه، فالخضر عُلِّم من الله جل وعلا: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، فالخضر له علم لدني من الله تبارك وتعالى، وأفعاله لا تدل على ذلك، وليس ثم دليل زائد على ما زعموا.

الأمر الثاني: الذي بني عليه الكلام، أن الولي يخاطب، وهذا في الحقيقة باطل؛ فإن الوحي انقطع، والخطابات التي يسمعها من استعمل الرياضة والجوع والتفكير، هذه خطابات من داخل النفس، وليست وحيًا من الله جل وعلا، وضل طائفة منهم فقالوا: إنهم سمعوا أحاديث قدسية، يعني سمعوا الرب جل وعلا يتكلم بكلام، حتى قال: إن بعض الأولياء عندهم شيء زائد على القرآن؛ كما ذكر الشعراني[1] في طبقات الأولياء في أواخره في ترجمة أحد الناس، قال في ترجمته: كان - رحمه الله ورضي عنه - يتلو آيات ليست في القرآن، يعني على أصلهم أنه سمع كلام الله جل وعلا وأصبح يقرأ أشياء ليست في القرآن، وهذه لا شك أنها مقدمة باطلة؛ لأن الوحي انقطع، ولا يمكن لأحد أن يُوحى إليه وحي السماء بعد رسول الله ﷺ، وإنما هذه الأمة فيها الإلهام والتحديث بما يُلقى في روع العبد، أما السماع يقول: سمعت؛ **كما صنف ابن عربي الأربعين في أحاديث رب العالمين**[2] الأحاديث التي زعم أنه سمعها من الله جل وعلا. وهنا مسألة عن الغلام الذي قتله الخضر، هل هو من أهل النار؟

النبي ﷺ لما سُئل عن أولاد المشركين، قال: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا**

---

(١) سبقت ترجمته (ص١٨٥).

(٢) سبق الكلام عليه (ص٢١٦).

عَامِلِينَ»[١] ، فالله ﷻ أطلع الخضر على ما سيعمله هذا بأنه يخشى أن يرهق أبويه طغيانًا وكفرًا ، فالزائد على هذا لا نعلمه ، لكن إذا كان الله ﷻ يعلم أنه إذا بلغ سيكون كافرًا فإنه من أهل النار ، فالله أعلم بما كانوا عاملين ، ومصير من مات من أولاد المشركين فيه أقوال كثيرة عند أهل العلم ، وأقرب الأقوال أن يُقال ؛ كما قال النبي ﷺ : «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**» .

هل بما كانوا عاملين لو بلغوا؟ أو بما كانوا عاملين يوم القيامة إذا بعث لهم رسول؟ قولان عند أهل العلم ، لكن نقول : الله أعلم بما كانوا عاملين ، والخضر خشي بعلم من الله أن يرهق الغلام أبويه طغيانًا وكفرًا فقتله . أما أطفال المسلمين ، الذين ماتوا قبل أن يُعلموا فهم على الفطرة ، ويدخلون الجنة ، وهناك فرق بين الرضيع الذي مات على الفطرة ، وبين الغلام ، والرضيع لا يسمى غلامًا ، الغلام للكبير ، ثم أيضًا في النصوص قد يطلق الغلام ويراد به البالغ[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٣)، ومسلم (٢٦٦٠).

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩ - ٣٣).

فَصْلٌ

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِرَادَةِ، وَالْأَمْرِ، وَالْقَضَاءِ، وَالْإِذْنِ، وَالتَّحْرِيمِ، وَالْبَعْثِ، وَالْإِرْسَالِ، وَالْكَلَامِ، وَالْجَعْلِ، بَيْنَ الْكَوْنِيِّ الَّذِي خَلَقَهُ وَقَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ، وَلَا يُحِبُّهُ، وَلَا يُثِيبُ أَصْحَابَهُ، وَلَا يَجْعَلُهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، وَبَيْنَ الدِّينِيِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ وَشَرَعَهُ، وَأَثَابَ عَلَيْهِ، وَأَكْرَمَهُمْ وَجَعَلَهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ وَجُنْدِهِ الْغَالِبِينَ؛ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفُرُوقِ الَّتِي يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، فَمَنْ اسْتَعْمَلَهُ الرَّبُّ تَعَالَى فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ فِيمَا يُبْغِضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَعْدَائِهِ.

فَالْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ هِيَ مَشِيئَتُهُ لِمَا خَلَقَهُ وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ دَاخِلَةٌ فِي مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ هِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِمَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ الْمُتَنَاوِلَةُ لِمَا أَمَرَ بِهِ وَجَعَلَهُ شَرْعًا وَدِينًا. وَهَذِهِ مُخْتَصَّةٌ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

الشــــرح:

الإرادة كما ذكر منقسمة إلى إرادة كونية قدرية، وإرادة دينية شرعية وأما المشيئة فلا تنقسم، فلا يقال مشيئة كونية، ومشيئة شرعية، بل يقال: مشيئة

الله، ولا توصف المشيئة بكونها كونية أو دينية؛ لأن المشيئة نوع واحد، ولم يأت في الدليل ما يدل على انقسامها، بل معناها واضح في أنها متعلقة بالكون وليست متعلقة بالشرع؛ ولهذا نقول: مشيئة الله ﷻ نوع واحد، وهي إرادته الكونية، والإرادة هي التي تنقسم إلى كونية ودينية وليس منها المشيئة[1]؛ فالإرادة منقسمة كما سيذكر الشيخ في الأدلة.

---

(١) انظر: شفاء العليل (ص٢٨٠).

وَقَالَ نُوحٌ عليه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، **وَقَالَ تَعَالَى فِي الثَّانِيَةِ**(١): ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَقَالَ فِي آيَةِ الطَّهَارَةِ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، **وَلَمَّا ذَكَرَ مَا أَحَلَّهُ وَمَا حَرَّمَهُ مِنَ النِّكَاحِ قَالَ:** ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

وَقَالَ لَمَّا ذَكَرَ مَا أَمَرَ بِهِ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، **وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِمَا يُذْهِبُ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا فَمَنْ أَطَاعَ أَمْرَهُ كَانَ مُطَهَّرًا قَدْ أُذْهِبَ عَنْهُ الرِّجْسُ بِخِلَافِ مَنْ عَصَاهُ.**

وَأَمَّا الْأَمْرُ، فَقَالَ فِي الْأَمْرِ الْكَوْنِيِّ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا

---

(١) يعني: الإرادة الشرعية الدينية.

حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وَأَمَّا الْأَمْرُ الدِّينِيُّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

وَأَمَّا الْإِذْنُ فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ لَمَّا ذَكَرَ السِّحْرَ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، **أَيْ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَإِلَّا فَالسِّحْرُ لَمْ يُبِحْهُ اللَّهُ** ﷻ، **وَقَالَ فِي الْإِذْنِ الدِّينِيِّ:** ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ٦٤]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

الشـــرح:

قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ هذه محتملة للنوعين: يحتمل أن تكون الكونية، ويحتمل أن تكون الشرعية، يعني: الآية فيهما معًا، تصلح لهذا وتصلح لهذا، فالرسول طاعته شرع، فيكون

إذن الله ﷻ هو الشرعي الديني، وأيضًا الرسول يُطاع بإذن الله ﷻ الكوني، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ يعني: ممن أطاعه، وتكون الطاعة هذه بإذن الله، ليس العبد هو الذي يطيع من عند نفسه، بل بمشيئة الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩] فهي تصلح للنوعين، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥] هذه أيضًا بأمر الله ﷻ، يعني: فيما ترك وفيما أبقى هو بالشريعة، يعني بإذن الله الشرعي،وهوأيضًا ما ترك وما أبقى هو بمشيئة الله ﷻ الكونية، يعني بإذنه الكوني، ولكن هي أظهر في الشرعي.

وهناك من يقول: الإذن لا ينقسم، وإنما هو إذن كوني فقط، وأما الذي ينقسم هو الإرادة، وآية السحر في الكوني، وغيرها مثلها، ومن قال: إن الآيات التي فيها الإذن من الأمر الديني، فما عندنا في المثال الكوني إلا آية السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فإيراد الاحتمال في الجميع يقوي الانقسام.

فالإذن في آية السحر إذن كوني؛ لأن السحر محرم، وما أعرف أنهم يوردون دليلًا آخر على الإذن الكوني، غير هذا، والذين يتعلقون بآية السحر يقولون: الإذن في قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ليس هو الإذن الكوني، وهو يدخل فيه الإذن الشرعي أيضًا؛ لأن هناك من يجيز استعمال السحر فيما ينفع ولا يضر، ويقولون: ما بين الأزواج من الصرف والعطف لا يضر، ويوجد كثيرون يقولون: إن الصرف والعطف، يعني المحبة هذه في الحقيقة فيها ضرر، فتكون محرمة، ويقولون: الإذن في هذه الآية يكون دينيًا.

المقصود أن انقسام دليله في الإذن الكوني، أي: الاستدلال بآية السحر

وعدم إيراد العلماء لأدلة أخرى يشكل في تقوية الانقسام؛ لهذا نقول: إن الآيات الأخرى محتملة لهذا وهذا حتى يقوى التقسيم.

ومعلوم أنه في قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: يحب الله أن يتوب عليكم، وأن من تاب قد وقعت توبته بالنوعين، لكن لا يلزم من محبة الله ﷻ وإرادته الشرعية أن يقع الكوني، ليس مثل الإذن هنا، قد يريد الله ﷻ الشيء شرعًا ولا يريده كونًا؛ كما هو معلوم، وقد يأذن به شرعًا ولا يأذن به كونًا، فالإلزام في الجهتين غير حاصل، بأنه إذا وُجد الشرعي وُجد الكوني، وإذا وُجد الشرعي قد يكون الكوني وقد لا يكون، فإذا وقع الشرعي لا شك أنه يجتمع فيه الأمران، يعني: في طاعة المطيع جاءت الإرادتان، وفي قطع اللينة أو تركها هذا وقع وانتهى فاجتمع فيه الإذن الشرعي والإذن الديني، بمعنى أن الأشياء الدينية التي ذكر هي قد توافق الكوني، فتكون واقعة، وقد لا توافقه ولا يفعلها العبد مثل الجعل في قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ هذا جعل شرعي ديني، بعض الناس ما جعلوها كذلك، فاقتحموا البيت وقتلوا من قتلوا وسفكوا الدماء، كالقرامطة ونحوهم، ما جعلوا البيت قيامًا للناس، الجَعْلُ هنا شرعي، يعني حينما لم يُؤَمَّنْ البيت لم تجتمع الجهتان، فلما أمن البيت اجتمعت هذه وهذه. فإذًا وجود النوع الأول، وهو الكوني، لا يستلزم وجود الثاني، ووجود الثاني لا يستلزم وجود الأول، لكن وقوع الثاني يستلزم وجود الأول.

وَأَمَّا الْقَضَاءُ، فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أَيْ أَمَرَ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ قَدَّرَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ عُبِدَ غَيْرُهُ كَمَا أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وَقَوْلُ الْخَلِيلِ ﷺ لِقَوْمِهِ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون].

وَهَذِهِ كَلِمَةٌ تَقْتَضِي بَرَاءَتَهُ مِنْ دِينِهِمْ وَلَا تَقْتَضِي رِضَاهُ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وَمَنْ ظَنَّ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ أَنَّ هَذَا رِضًا مِنْهُ بِدِينِ الْكُفَّارِ فَهُوَ مِنْ أَكْذَبِ النَّاسِ وَأَكْفَرِهِمْ، كَمَنْ ظَنَّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] بِمَعْنَى قَدَّرَ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَا قَضَى بِشَيْءٍ إلا وَقَعَ، وَجَعَلَ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ مَا عَبَدُوا إلا اللَّهَ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ

أَعْظَمِ النَّاسِ كُفْرًا بِالْكُتُبِ.

الشـــرح:

أصحاب وحدة الوجود هم الذين قالوا: المعبود والعابد شيء واحد؛ لأن الله ﷻ قضى إلا يُعبد الا هو: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قالوا: يعني قدر إلا يُعبد الا إياه، فمن عبد غير الله فقد عبد الله؛ لأن الله قدّر كونًا إلا يُعبد الا هو، وهذا باطل عظيم البطلان من وجهين:

الوجه الأول: أن (قضى) هنا بمعنى أمر ووصى؛ لأنه ﷻ هو الذي أثبت في القرآن أنهم عبدوا غير الله كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فهو ﷻ الذي بين أنهم عبدوا غيره، وكونهم عبدوا من دون الله آلهة غيره، فكلمة الغيرية هذه واضحة في أنه لا يمكن أن تكون (قضى) بمعنى قدر، هذا الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله.

الوجه الثاني: أن (قضى) هنا لا تكون بمعنى قدّر، وإنما بمعنى أمر؛ لمجيء أن بعدها، فأن التفسيرية تكون بعد كلمة فيها معنى القول دون حروف القول، وكلمة قدّر ليس فيها معنى القول، وليس فيها حروف القول بخلاف كلمة أمر فإنها في معنى القول، فيكون (قضى) بمعنى أمر واضحة، وكل منهما مترتب على الأخرى، قضى إلا تعبدوا، أي: أمر أن لا تعبدوا، فمن أجل التفسير بـ (أمر) صارت (أن) تفسيرية[١].

---

(١) قال القرطبي: ويستعمل لفظ القضاء في اللغة على وجوه:

الأول: بمعنى الخلق كما في قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] يعني خلقهن.

=

وَأَمَّا لَفْظُ الْبَعْثِ، فَقَالَ تَعَالَى فِي الْبَعْثِ الْكَوْنِيِّ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

وَقَالَ فِي الْبَعْثِ الدِّينِيِّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وَأَمَّا لَفْظُ الْإِرْسَالِ، فَقَالَ فِي الْإِرْسَالِ الْكَوْنِيِّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ [الفرقان: ٤٨].

وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]،

= الثاني: بمعنى الأمر كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]

الثالث: بمعنى الحكم، قال السحرة لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾ يعني احكم ما أنت حاكم به، ولهذا يقال للحاكم القاضي.

الرابع: بمعنى الإخبار، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤] أي أخبرناهم وهذا يأتي مقرونا بإلى.

الخامس: أن يأتي بمعنى الفراغ من الشيء، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] يعني لما فرغ من ذلك. وقال تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ﴾ [هود: ٤٤] يعني فرغ من إهلاك الكفار. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] بمعنى ليفرغوا منه. اهـ، بتصرف يسير.

انظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٢٣٧)، ولسان العرب لابن منظور (١٥/ ١٨٦).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وَأَمَّا لَفْظُ الْجَعْلِ فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وَأَمَّا لَفْظُ التَّحْرِيمِ، فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣].

وَأَمَّا لَفْظُ الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ فِي الْكَلِمَاتِ الْكَوْنِيَّةِ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢].

وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَمِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ»[1]. وَقَالَ ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ،

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، وأحمد (٢/ ١٨١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولفظه: «إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».

لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»[١]، وَكَانَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ»[٢]. وَكَلِمَاتُ اللَّهِ التَّامَّاتُ الَّتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ هِيَ الَّتِي كَوَّنَ بِهَا الْكَائِنَاتِ، فَلَا يَخْرُجُ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ عَنْ تَكْوِينِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ الدِّينِيَّةُ، وَهِيَ كُتُبُهُ الْمُنَزَّلَةُ وَمَا فِيهَا مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَأَطَاعَهَا الْأَبْرَارُ وَعَصَاهَا الْفُجَّارُ.

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُطِيعُونَ لِكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّةِ، وَجَعْلِهِ الدِّينِيِّ، وَإِذْنِهِ الدِّينِيِّ، وَإِرَادَتِهِ الدِّينِيَّةِ.

وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ الَّتِي لا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ تَحْتَهَا جَمِيعُ الْخَلْقِ، حَتَّى إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ وَجَمِيعَ الْكُفَّارِ وَسَائِرِ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، فَالْخَلْقُ وَإِنِ اجْتَمَعُوا فِي شُمُولِ الْخَلْقِ وَالْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْقَدَرِ لَهُمْ، فَقَدِ افْتَرَقُوا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ.

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ فَعَلُوا الْمَأْمُورَ، وَتَرَكُوا الْمَحْظُورَ وَصَبَرُوا عَلَى الْمَقْدُورِ، فَأَحَبَّهُمْ وَأَحَبُّوهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٥٠)، وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٣٥)، وأحمد في المسند (٣/ ٤١٩)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٨).

وَأَعْدَاؤُهُ أَوْلِيَاءُ الشَّيَاطِينِ - وَإِنْ كَانُوا تَحْتَ قُدْرَتِهِ - فَهُوَ يُبْغِضُهُمْ وَيَغْضَبُ عَلَيْهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ وَيُعَادِيهِمْ.

وَبَسْطُ هَذِهِ الْجُمَلِ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ، وَإِنَّمَا كَتَبْت هُنَا تَنْبِيهًا عَلَى مَجَامِعِ الْفَرْقِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَجَمْعُ الْفَرْقِ[1] بَيْنَهُمَا اعْتِبَارُهُمْ بِمُوَافَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ السُّعَدَاءِ وَأَعْدَائِهِ الْأَشْقِيَاءِ، وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَعْدَائِهِ أَهْلِ النَّارِ، وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ أَهْلِ الْهُدَى وَالرَّشَادِ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ أَهْلِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ، وَأَعْدَائِهِ حِزْبِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وَقَالَ فِي أَعْدَائِهِ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وَقَالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ

(١) جِماع الشيء جَمْعُه تقول: جِماعُ الخِباء الأَخْبِيةُ؛ لأَنَّ الجِماعَ ما جَمَع عددًا، يقال: الخَمر جِماعُ الإِثْم أَي مَجْمَعهُ ومِظَنَّته. انظر: لسان العرب (٨/ ٣٥).

ﵟٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَﵞ[الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٧]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﵟفَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِﵞ [الحاقة: ٣٨ - ٥٢] **وَقَالَ تَعَالَى:** ﵟفَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ﵞ **إلى قوله:** ﵟإِن كَانُواْ صَٰدِقِينَﵞ [الطور: ٢٩ - ٣٤].

فَنَزَّهَ الله ﷻ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ عَمَّنْ تَقْتَرِنُ بِهِ الشَّيَاطِينُ مِنْ الْكُهَّانِ وَالشُّعَرَاءِ وَالْمَجَانِينِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُ بِالْقُرْآنِ مَلَكٌ كَرِيمٌ اصْطَفَاهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﵟٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚﵞ [الحج: ٧٥]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﵟوَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖﵞ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﵟقُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِﵞ [البقرة: ٩٧]، **الْآيَةَ وَقَالَ تَعَالَى:** ﵟفَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِﵞ **إِلَى قَوْلِهِ:** ﵟقُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَﵞ [النحل: ٩٨ - ١٠٢]، **فَسَمَّاهُ الرُّوحَ الْأَمِينَ وَسَمَّاهُ رُوحَ الْقُدُسِ وَقَالَ تَعَالَى:** ﵟفَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِﵞ [التكوير: ١٥، ١٦]،

يَعْنِي: الْكَوَاكِبَ الَّتِي تَكُونُ فِي السَّمَاءِ خَانِسَةً أَيْ: مُخْتَفِيَةً قَبْلَ طُلُوعِهَا فَإِذَا ظَهَرَتْ رَآهَا النَّاسُ جَارِيَةً فِي السَّمَاءِ فَإِذَا غَرَبَتْ ذَهَبَتْ إِلَى كِنَاسِهَا الَّذِي يَحْجُبُهَا ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧]، أَيْ إِذَا أَدْبَرَ وَأَقْبَلَ الصُّبْحُ ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، أَيْ أَقْبَلَ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]. وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١]، أَيْ مُطَاعٍ فِي السَّمَاءِ أَمِين، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، أَيْ صَاحِبُكُمْ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهِ إِذْ بَعَثَهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ جِنْسِكُمْ يَصْحَبُكُمْ إِذْ كُنْتُمْ لا تُطِيقُونَ أَنْ تَرَوْا الْمَلَائِكَةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٨، ٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] أَيْ: رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام ﴿ وما هو على الغيب بظَنِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٤] أَيْ: بِمُتَّهَم، وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى ﴿بِضَنِينٍ﴾ أَيْ: بِبَخِيلٍ يَكْتُمُ الْعِلْمَ وَلَا يَبْذُلُهُ إِلَّا بِجُعْلٍ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَكْتُمُ الْعِلْمَ إِلَّا بِالْعِوَضِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]، فَنَزَّهَ جِبْرِيلَ جعَنْ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانًا، كَمَا نَزَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ عَنْ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا أَوْ كَاهِنًا.

فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الْمُقْتَدُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَنْتَهُونَ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ، وَيَقْتَدُونَ بِهِ فِيمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ فِيهِ، فَيُؤَيِّدُهُمْ بِمَلَائِكَتِهِ وَرُوحٍ مِنْهُ، وَيَقْذِفُ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ أَنْوَارِهِ، وَلَهُمْ الْكَرَامَاتُ الَّتِي يُكْرِمُ اللَّهُ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ الْمُتَّقِينَ.

وَخِيَارُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَرَامَاتُهُمْ لِحُجَّةٍ فِي الدِّينِ أَوْ لِحَاجَةٍ بِالْمُسْلِمِينَ، كَمَا كَانَتْ مُعْجِزَاتُ نَبِيِّهِمْ ﷺ كَذَلِكَ.

وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهُ إِنَّمَا حَصَلَتْ بِبَرَكَةِ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَدْخُلُ فِي مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ: مِثْلُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ(١) وَتَسْبِيحِ الْحَصَا فِي كَفِّهِ(٢)، وَإِتْيَانِ الشَّجَرِ إِلَيْهِ(٣)، وَحَنِينِ الْجِذْعِ إِلَيْهِ(٤)، وَإِخْبَارِهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بِصِفَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ(٥)، وَإِخْبَارِهِ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ(٦)، وَإِتْيَانِهِ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ(٧)، وَتَكْثِيرِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً، كَمَا أَشْبَعَ فِي الْخَنْدَقِ الْعَسْكَرَ مِنْ قِدْرِ طَعَامٍ وَهُوَ لَمْ يَنْقُصْ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ الْمَشْهُورِ(٨)، وَأَرْوَى الْعَسْكَرَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ مِنْ مَزَادَةِ مَاءٍ وَلَمْ تَنْقُصْ(٩)، وَمَلأَ أَوْعِيَةَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص٢١٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٩٩): رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف، ورواه الطبراني في الأوسط.

(٣) أخرجه مسلم (٣٠١٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٩٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠).

(٦) أخرج البخاري (٣١٩٢)، ومسلم (٢٨٩١) من حديث عمر ﷺ قال: «قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ» الحديث، ورواه مسلم عن حذيفة ﷺ.

(٧) حيث تحدى به ﷺ المشركين أن يأتوا بسورة مثله.

(٨) أخرجه البخاري (٣٠٧٠)، ومسلم (٢٠٣٩).

(٩) أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢).

الْعَسْكَرِ عَامَ تَبُوكَ مِنْ طَعَامٍ قَلِيلٍ وَلَمْ يَنْقُصْ وَهُمْ نَحْوُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا[١]، وَنَبَعَ الْمَاءُ مِنْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً حَتَّى كَفَى النَّاسَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ[٢]، كَمَا كَانُوا فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةَ نَحْوُ أَلْفٍ وَأَرْبَعْمِائَةٍ أَوْ خَمْسُمِائَةٍ[٣]، وَرَدِّهِ لِعَيْنِ أبي قتادة حِينَ سَالَتْ عَلَى خَدِّهِ فَرَجَعَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ[٤]، وَلَمَّا أَرْسَلَ مُحَمَّدَ بْنَ مسلمة لِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَوَقَعَ وَانْكَسَرَتْ رِجْلُهُ فَمَسَحَهَا فَبَرِئَتْ[٥]، وَأَطْعَمَ مِنْ شِوَاءٍ مِائَةً وَثَلَاثِينَ رَجُلًا كُلًّا مِنْهُمْ حَزَّ لَهُ قِطْعَةً وَجَعَلَ مِنْهَا قِطْعَتَيْنِ فَأَكَلُوا مِنْهَا جَمِيعُهُمْ ثُمَّ فَضَلَ فَضْلَةٌ[٦]، وَدَيْنُ عَبْدِ اللَّهِ أبي جَابِرٍ لِلْيَهُودِيِّ وَهُوَ ثَلَاثُونَ وَسْقًا[٧]، قَالَ جَابِرٌ: فَأَمَرَ صَاحِبَ الدَّيْنِ أَنْ يَأْخُذَ التَّمْرَ جَمِيعَهُ بِالَّذِي كَانَ لَهُ فَلَمْ يَقْبَلْ فَمَشَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ لِجَابِرٍ: «جُدَّ لَهُ»،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧٤)، ومسلم (٢٢٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦).

(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٩٧) رواه الطبراني وأبو يعلى وفي إسناد أبي يعلى يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف.

(٥) أخرج البخاري (٤٠٣٩) قصة قتل أبي رافع -عبد الله بن أبي الحقيق-، والذي قتله هو عبد الله بن عتيك رضي الله عنه وهو الذي انكسرت رجله. أما قصة قتل ابن الأشرف فقد أخرجها البخاري (٤٠٣٧)، ولم يذكر فيها أنه انكسرت رجل محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وإنما الذي جرح عباد بن بشر رضي الله عنه، أو الحارث بن أوس رضي الله عنه، فتفل النبي ﷺ على جرحه فلم يؤذه.

(٦) أخرجه البخاري (٢٦١٨)، ومسلم (٢٠٥٦).

(٧) أخرجه البخاري (٢١٢٧).

فَوَفَّاهُ الثَّلَاثِينَ وَسْقًا، وَفَضَلَ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسْقًا(١)، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ قَدْ جَمَعْت نَحْوَ أَلْفِ مُعْجِزَةٍ(٢).

وَكَرَامَاتُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، مِثْلُ: مَا كَانَ أسيد بْنُ حضير يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ فَنَزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ نَزَلَتْ لِقِرَاءَتِهِ(٣).

وَكَانَتْ الْمَلَائِكَةُ تُسَلِّمُ عَلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ(٤)، وَكَانَ سَلْمَانُ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ يَأْكُلَانِ فِي صَحْفَةٍ، فَسَبَّحَتْ الصَّحْفَةُ أَوْ سَبَّحَ مَا فِيهَا(٥)، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ وأسيد بْنُ حضير خَرَجَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَأَضَاءَ لَهُمَا نُورٌ مِثْلُ طَرَفِ السَّوْطِ، فَلَمَّا افْتَرَقَا افْتَرَقَ الضَّوْءُ مَعَهُمَا. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ(٦).

وَقِصَّةُ الصِّدِّيقِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» لَمَّا ذَهَبَ بِثَلَاثَةِ أَضْيَافٍ مَعَهُ إلَى بَيْتِهِ، وَجَعَلَ لا يَأْكُلُ لُقْمَةً إلا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٩٦).

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٣٣٩) مبحث معجزات النبي ﷺ وفي الباب أيضًا دلائل النبوة للبيهقي، والفريابي، وأبي نعيم.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٨)، وذكر أن أسيد كان يقرأ سورة البقرة، وأخرجه مسلم (٧٩٦)، ولم يذكر اسم السورة. وأخرج البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥) عن البراء أن رجلًا كان يقرأ سورة الكهف... الحديث.

(٤) انظر: ترجمته وقصة سلام الملائكة عليه في أسد الغابة (٤/ ١٣٧)، والإصابة (٤/ ٧٠٥)

(٥) ذكره أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٤).

(٦) أخرجه البخاري (٣٨٠٥).

فَشَبِعُوا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ وَامْرَأَتُهُ، فَإِذَا هِيَ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ، فَرَفَعَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجَاءَ إِلَيْهِ أَقْوَامٌ كَثِيرُونَ فَأَكَلُوا مِنْهَا وَشَبِعُوا(١).

وَخبيب بْنُ عَدِيٍّ كَانَ أَسِيرًا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ شَرَّفَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَ يُؤْتَى بِعِنَبٍ يَأْكُلُهُ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ عِنَبَةٌ(٢).

وَعَامِرُ بْنُ فهيرة قُتِلَ شَهِيدًا فَالْتَمَسُوا جَسَدَهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ وَكَانَ لَمَّا قُتِلَ رُفِعَ، فَرَآهُ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَقَدْ رُفِعَ، وَقَالَ عُرْوَةُ: فَيَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ رَفَعَتْهُ(٣).

وَخَرَجَتْ أُمُّ أَيْمَنَ مُهَاجِرَةً وَلَيْسَ مَعَهَا زَادٌ وَلَا مَاءٌ، فَكَادَتْ تَمُوتُ مِنْ الْعَطَشِ، فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الْفِطْرِ وَكَانَتْ صَائِمَةً سَمِعَتْ حِسًّا عَلَى رَأْسِهَا، فَرَفَعَتْهُ فَإِذَا دَلْوٌ مُعَلَّقٌ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ حَتَّى رُوِيَتْ وَمَا عَطِشَتْ بَقِيَّةَ عُمْرِهَا(٤).

وَسَفِينَةُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَ الْأَسَدَ بِأَنَّهُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَشَى مَعَهُ الْأَسَدُ حَتَّى أَوْصَلَهُ مَقْصِدَهُ(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢)، ومسلم (٢٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٩٣).

(٤) انظر: ترجمة أم أيمن وقصتها في الإصابة (٨/ ١٦٩)، والحلية (٢/ ٦٧)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٢٢٤)، وصفة الصفوة (٢/ ٥٤).

(٥) انظر: ترجمة سفينة وقصته مع الأسد في الإصابة (٣/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ١٧٢)، وصفة الصفوة (١/ ٦٧١). وأخرج الحاكم (٢/ ٦٧٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٦٩) قصته مع الأسد.

وَالْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ كَانَ إِذَا أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَبَرَّ قَسَمَهُ، وَكَانَ الْحَرْبُ إِذَا اشْتَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْجِهَادِ يَقُولُونَ: يَا بَرَاءُ أَقْسِمْ عَلَى رَبِّك، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَقْسَمْت عَلَيْك لَمَا مَنَحْتنَا أَكْتَافَهُمْ، فَيُهْزَمُ الْعَدُوُّ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْقَادِسِيَّةِ قَالَ: أَقْسَمْت عَلَيْك يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتنَا أَكْتَافَهُمْ وَجَعَلْتنِي أَوَّلَ شَهِيدٍ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا[١].

وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حَاصَرَ حِصْنًا مَنِيعًا، فَقَالُوا: لا نُسْلِمُ حَتَّى تَشْرَبَ السُّمَّ، فَشَرِبَهُ فَلَمْ يَضُرَّهُ[٢].

وَسَعْدُ بْنُ أبي وَقَّاص كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ[٣]، مَا دَعَا قَطُّ إلا اُسْتُجِيبَ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي هَزَمَ جُنُودَ كِسْرَى وَفَتَحَ الْعِرَاقَ.

الشـــرح:

قوله فيما سبق: (وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ) أي في الإرسال الديني.

قوله ﷺ: (لَمْ يضرَّه) إذا صار الفعل مشددًا، ودخلت عليه لم الأصل أنه

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٣١)، ورواه الترمذي (٣٨٥٤) مختصرًا. وانظر ترجمة البراء في الحلية (١/ ٣٥٠)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١١٩٥)، والإصابة (١/ ٢٧٩)، وصفة الصفوة (١/ ٦٢٤).

(٢) أخرجه أبو يعلى (١٣/ ١٤١)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٠٥)، وانظر ترجمة خالد رضي الله عنه في سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٦٦)، وصفة الصفوة (١/ ٦٥٠).

(٣) أخرج الترمذي (٣٧٥١) أن النبي ﷺ قال: «اللهم اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ إذا دَعَاكَ» وانظر ترجمة سعد في الإصابة (٣/ ٧٣)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٩٢)، وصفة الصفوة (١/ ٣٥٦)، وتاريخ دمشق (٢٠/ ٢٨٠).

يجزم، وتكون علامة جزمه السكون، لكن التقى ساكنان، السكون الموجود في التضعيف، والسكون الذي هو علامة الجزم؛ ولذلك عدل عنه إلى الفتح لسببين:

الأول: أن الفتحة أخف الحركات.

والثاني: لأن الضم ممتنع لكونه حال الفعل قبل دخول لم، والكسر ممتنع؛ لأن الفعل لا يدخله الجر. هذه دائمًا تتكرر، مثل: لم يَضُرَّه، لم يَعُمَّ، لم يَبُثَّ، وأشباه ذلك، فكل فعل مشدد في آخره، إذا دخلت عليه لم أو حرف من حروف الجزم، فإنه يكون مجزومًا بسكون مقدر.

قوله في سعد ﷺ: (**كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ**) يعني: في الأكثر، والغالب، وليس معناه أنه له حقٌ في أن ما دعا به يُجاب، فهذه لم يُعطاها الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه. فالأنبياء ربما ردت دعواتهم؛ كما ردت دعوة نوح عليه السلام حين دعا لابنه فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: ٤٥]؛ وكما ردت دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، وكما رد استغفار النبي ﷺ لأبي طالب؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

وهكذا فدعوات الأنبياء هي أعظم الدعوات التي تجاب، ثم الصالحون من أقوامهم ممن يُقال فيهم مستجاب الدعوة، يعني: في أكثر دعواته، ويُرد منها الكثير؛ لأن إجابة الدعاء من آثار الربوبية، والله ﷻ له الحكمة فيما يفعل وفيما يقدر، وفيما يعطي، وفيما يمنع، وهو تعالى المعطي المانع.

وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا أَرْسَلَ جَيْشًا أَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا يُسَمَّى سَارِيَةَ، فَبَيْنَمَا عُمَرُ يَخْطُبُ فَجَعَلَ يَصِيحُ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، فَقَدِمَ رَسُولُ الْجَيْشِ فَسَأَلَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! لَقِينَا عَدُوًّا فَهَزَمُونَا، فَإِذَا بِصَائِحٍ: يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، فَأَسْنَدْنَا ظُهُورَنَا بِالْجَبَلِ، فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ[1].

وَلَمَّا عُذِّبَتْ الزِّنِّيرَةُ[2] عَلَى الْإِسْلَامِ فِي اللَّهِ، فَأَبَتْ إلا الْإِسْلَامَ، وَذَهَبَ بَصَرُهَا، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَصَابَ بَصَرَهَا اللَّاتَ وَالْعُزَّى. قَالَتْ: كَلَّا وَاللَّهِ. فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا.

وَدَعَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ عَلَى أَرْوَى بِنْتِ الْحَكَمِ، فَأُعْمِيَ بَصَرُهَا لَمَّا كَذَبْت عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا، فَعَمِيَتْ وَوَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ مِنْ أَرْضِهَا فَمَاتَتْ[3].

وَالْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ كَانَ عَامِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْبَحْرَيْنِ،

---

(١) سبق تخريجه (ص١٦٥).

(٢) هي زنيرة الرومية مولاة أبي بكر الصديق ﷺ كانت ممن عُذب في مكة، فاشتراها الصديق ﷺ، فلما أسلمت عميت، فقال المشركون: أعمتها اللات والعزى لكفرها باللات والعزى، فرد الله بصرها.
انظر: الإصابة (٧/ ٦٦٤)، والاستيعاب (٤/ ١٨٤٩).

(٣) سعيد بن زيد بن عمرو العدوي القرشي صحابي جليل، أحد العشرة المبشرين بالجنة انظر: ترجمته في الحلية (١/ ٩٥)، والإصابة (٣/ ١٠٣)، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٢٤)، وصفة الصفوة (١/ ٣٦٢)، وقد أخرج مسلم (١٦١٠) قصته مع أروى، وأخرجها البخاري (٣١٩٨) مختصرًا.
وانظر ترجمة أروى بنت أنيس أو أويس في الإصابة (٧/ ٤٨٧).

وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: يَا عَلِيمُ يَا حَلِيمُ يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ فَيُسْتَجَابُ لَهُ، وَدَعَا اللَّهَ بِأَنْ يُسْقَوا وَيَتَوَضَّؤوا لَمَّا عَدِمُوا الْمَاءَ وَالْإِسْقَاءَ لِمَا بَعْدَهُمْ فَأُجِيبَ، وَدَعَا اللَّهَ لَمَّا اعْتَرَضَهُمْ الْبَحْرُ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْمُرُورِ بِخُيُولِهِمْ فَمَرُّوا كُلُّهُمْ عَلَى الْمَاءِ مَا ابْتَلَّتْ سُرُوجُ خُيُولِهِمْ، وَدَعَا اللَّهَ أَنْ لا يَرَوْا جَسَدَهُ إِذَا مَاتَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي اللَّحْدِ[1].

وَجَرَى مِثْلُ ذَلِكَ لِأَبِي مُسْلِمِ الخولاني[2] الَّذِي أُلْقِيَ فِي النَّارِ، فَإِنَّهُ مَشَى هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْعَسْكَرِ عَلَى دِجْلَةَ وَهِيَ تَرْمَى بِالْخَشَبِ مِنْ مَدِّهَا، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: تَفْقِدُونَ مِنْ مَتَاعِكُمْ شَيْئًا حَتَّى أَدْعُوَ اللَّهَ ﷻ فِيهِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَقَدْت مِخْلَاةً، فَقَالَ: اتْبَعْنِي، فَتَبِعَهُ فَوَجَدَهَا قَدْ تَعَلَّقَتْ بِشَيْءٍ فَأَخَذَهَا، وَطَلَبَهُ الْأَسْوَدُ العنسي لَمَّا ادَّعَى النُّبُوَّةَ فَقَالَ لَهُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَسْمَعُ، قَالَ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِنَارٍ فَأُلْقِيَ فِيهَا، فَوَجَدُوهُ قَائِمًا يُصَلِّي فِيهَا وَقَدْ صَارَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا. وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَجْلَسَهُ عُمَرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﵄ وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أَرَى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ.

---

(١) أخرج هذه القصة الطبراني في الأوسط (٤/ ١٥)، وانظر ترجمة العلاء في الإصابة (٤/ ٥٤١)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٢)، وصفة الصفوة (١/ ٦٩٤).

(٢) هو عبد الله بن ثوب الخولاني أسلم في زمن النبي ﷺ ولم يره، قدم المدينة في خلافة الصديق. انظر: ترجمته في الاستيعاب (٤/ ١٧٥٧)، وصفة الصفوة (٤/ ٢٠٨)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٧)، وحلية الأولياء (٢/ ١٢٢).

وَوَضَعَتْ لَهُ جَارِيَةٌ السُّمَّ فِي طَعَامِهِ فَلَمْ يَضُرَّهُ، وَخَبَّبَتْ[١] امْرَأَةٌ عَلَيْهِ زَوْجَتَهُ، فَدَعَا عَلَيْهَا فَعَمِيَتْ وَجَاءَتْ وَتَابَتْ، فَدَعَا لَهَا فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا.

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ[٢] يَأْخُذُ عَطَاءَهُ أَلْفَيْ دِرْهَمٍ فِي كُمِّهِ، وَمَا يَلْقَاهُ سَائِلٌ فِي طَرِيقِهِ إلا أَعْطَاهُ بِغَيْرِ عَدَدٍ، ثُمَّ يَجِيءُ إِلَى بَيْتِهِ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَدَدُهَا وَلَا وَزْنُهَا.

وَمَرَّ بِقَافِلَةٍ قَدْ حَبَسَهُمُ الْأَسَدُ، فَجَاءَ حَتَّى مَسَّ بِثِيَابِهِ الْأَسَدَ، ثُمَّ وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِهِ وَقَالَ: إِنَّمَا أَنْتَ كَلْبٌ مِنْ كِلَابِ الرَّحْمَنِ، وَإِنِّي أَسْتَحِي أَنْ أَخَافَ شَيْئًا غَيْرَهُ، وَمَرَّتِ الْقَافِلَةُ، وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُهَوِّنَ عَلَيْهِ الطُّهُورَ فِي الشِّتَاءِ، فَكَانَ يُؤْتَى بِالْمَاءِ لَهُ بُخَارٌ، وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَمْنَعَ قَلْبَهُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ.

وَتَغَيَّبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ الْحَجَّاجِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ سِتَّ مَرَّاتٍ، فَدَعَا اللَّهَ ﷻ فَلَمْ يَرَوْهُ، وَدَعَا عَلَى بَعْضِ الْخَوَارِجِ كَانَ يُؤْذِيه فَخَرَّ مَيِّتًا[٣].

---

(١) خببت: أي أفسدت، انظر: لسان العرب (١/ ٣٤٢).

(٢) عامر بن عبد الله، ويعرف بابن عبد قيس، ثقة من عباد التابعين، توفي في زمن معاوية، انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ١٥)، وصفة الصفوة (٣/ ٢٠١)، والحلية (٢/ ٨٧)، وهذه القصة أخرجها عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢٨١)، واللالكائي في الكرامات (ص٢٠٥).

(٣) هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، تابعي جليل توفي، بالبصرة سنة ١١٠هـ.
انظر: ترجمته في حلية الأولياء (٢/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٦٣).
وسبقت قصته مع جند الحجاج (ص١٥٥)، وذكر ابن رجب قصة الخارجي في جامع العلوم والحكم (ص٣٢٢).

وَصِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ[(١)] مَاتَ فَرَسُهُ وَهُوَ فِي الْغَزْوِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لِمَخْلُوقٍ عَلَيَّ مِنَّةً، وَدَعَا اللَّهَ ﷻ فَأَحْيَا لَهُ فَرَسَهُ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ قَالَ: يَا بُنَيَّ خُذْ سَرْجَ الْفَرَسِ فَإِنَّهُ عَارِيَةٌ، فَأَخَذَ سَرْجَهُ فَمَاتَ الْفَرَسُ، وَجَاعَ مَرَّةً بِالْأَهْوَازِ فَدَعَا اللَّهَ ﷻ وَاسْتَطْعَمَهُ، فَوَقَعَتْ خَلْفَهُ دَوْخَلَّةٍ[(٢)] رُطَبٍ فِي ثَوْبِ حَرِيرٍ، فَأَكَلَ التَّمْرَ وَبَقِيَ الثَّوْبُ عِنْدَ زَوْجَتِهِ زَمَانًا.

وَجَاءَ الْأَسَدُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي غَيْضَةٍ بِاللَّيْلِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ لَهُ: اُطْلُبْ الرِّزْقَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَوَلَّى الْأَسَدُ وَلَهُ زَئِيرٌ[(٣)].

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ فِي أَيَّامِ الْحَرَّةِ يَسْمَعُ الْأَذَانَ مِنْ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْقَاتَ الصَّلَوَاتِ، وَكَانَ الْمَسْجِدُ قَدْ خَلَا فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُهُ[(٤)].

وَرَجُلٌ مِنَ النَّخَعِ كَانَ لَهُ حِمَارٌ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: هَلُمَّ نَتَوَزَّعُ مَتَاعَك عَلَى رِحَالِنَا، فَقَالَ لَهُمْ: أَمْهِلُونِي

---

(١) صلة بن أشيم، أبو الصهباء، تابعي من زهاد البصرة وعبادهم، توفي سنة ٧٥ هـ.
انظر: قصته ضمن ترجمته في صفة الصفوة (٣/ ٢١٦)، والحلية (٢/ ٢٣٧)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٤٩٥)، والإصابة (٣/ ٤٦٣).

(٢) الدَّوْخَلَّة، مشدّدة اللام: سَفِيفة من خوص يوضع فيها التمر والرُّطَب، لسان العرب (١١/ ٢٤٣).

(٣) انظر: الحلية (٢/ ٢٤٠)، والزهد لابن المبارك (ص٢٩٥).

(٤) سعيد بن المسيب بن حزن تابعي ثقة مشهور توفي سنة ٩٤هـ.
انظر: هذه القصة ضمن ترجمته في طبقات ابن سعد (٥/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٢١٧)، وانظر حلية الأولياء (٢/ ١٦١)، وصفة الصفوة (٢/ ٧٩).

هُنَيْهَةً، ثُمَّ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى فَأَحْيَا لَهُ حِمَارَهُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ مَتَاعَهُ[١].

وَلَمَّا مَاتَ أُوَيْسٌ الْقَرْنِيُّ وَجَدُوا فِي ثِيَابِهِ أَكْفَانًا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ قَبْلُ، وَوَجَدُوا لَهُ قَبْرًا مَحْفُورًا فِيهِ لَحْدٌ فِي صَخْرَةٍ، فَدَفَنُوهُ فِيهِ وَكَفَّنُوهُ فِي تِلْكَ الْأَثْوَابِ[٢].

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عُقْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ يُصَلِّي يَوْمًا فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، فَأَظَلَّتْهُ غَمَامَةٌ، وَكَانَ السَّبُعُ يَحْمِيه وَهُوَ يَرْعَى رِكَابَ أَصْحَابِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِطُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الْغَزْوِ أَنَّهُ يَخْدِمُهُمْ[٣].

وَكَانَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشخير إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ سَبَّحَتْ مَعَهُ آنِيَتُهُ، وَكَانَ هُوَ وَصَاحِبٌ لَهُ يَسِيرَانِ فِي ظُلْمَةٍ فَأَضَاءَ لَهُمَا طَرَفُ السَّوْطِ[٤]. وَلَمَّا مَاتَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَقَعَتْ قَلَنْسُوَةُ رَجُلٍ

---

(١) نباتة بن يزيد النخعي أدرك النبي ﷺ وغزا في خلافة عمر رضي الله عنه، انظر: قصته ضمن ترجمته في الإصابة (٦/ ٤٩١)، والبداية والنهاية (٦/ ١٥٣).

(٢) أويس بن عامر القرني، من سادات التابعين، أصله من اليمن، توفي سنة ٣٧هـ. انظر: قصته ضمن ترجمته في الحلية (٢/ ٧٩)، وتاريخ دمشق (٩/ ٤٠٨)، وصفة الصفوة (٣/ ٤٣). وانظر الإصابة (١/ ٢١٩)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ١٩).

(٣) عمرو بن عتبة بن فرقد تابعي مشهور بالتعبد والزهد، انظر: الحلية (٤/ ١٥٥) وصفة الصفوة (٣/ ٦٨).

(٤) مطرف بن عبد الله بن الشخير أبو عبد الله البصري، ثقة عابد فاضل توفي سنة ٩٥ هـ. انظر: أخباره في الزهد للإمام أحمد (ص٢٣٨)، والحلية (٢/ ١٩٨)، والإصابة (٦/ ٢٦٠)، وصفة الصفوة (٣/ ٢٢٢).

فِي قَبْرِهِ، فَأَهْوَى لِيَأْخُذَهَا فَوَجَدَ الْقَبْرَ قَدْ فُسِحَ فِيهِ مَدَّ الْبَصَرِ[١]

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ التيمي يُقِيمُ الشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ لا يَأْكُلُ شَيْئًا[٢]، وَخَرَجَ يَمْتَارُ لأَهْلِهِ طَعَامًا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَمَرَّ بِسَهْلَةٍ حَمْرَاءَ فَأَخَذَ مِنْهَا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، فَفَتَحَهَا فَإِذَا هِيَ حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ، فَكَانَ إِذَا زَرَعَ مِنْهَا تَخْرُجُ السُّنْبُلَةُ مِنْ أَصْلِهَا إِلَى فَرْعِهَا حَبًّا مُتَرَاكِبًا[٣].

وَكَانَ عتبة الْغُلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ: صَوْتًا حَسَنًا، وَدَمْعًا غَزِيرًا، وَطَعَامًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ. فَكَانَ إِذَا قَرَأَ بَكَى وَأَبْكَى وَدُمُوعُهُ جَارِيَةٌ دَهْرَهُ، وَكَانَ يَأْوِي إِلَى مَنْزِلِهِ فَيُصِيبُ فِيهِ قُوتَهُ وَلَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ يَأْتِيه[٤].

وَكَانَ عبد الوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ أَصَابَهُ الْفَالِجُ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُطْلِقَ

---

(١) الأحنف بن قيس التميمي، سيد تميم، يضرب به المثل في الحلم، توفي سنة ٦٧ هـ.
انظر: الإصابة (١/ ١٨٧) والاستيعاب (١/ ١٤٤)، والقصة في سير الذهبي (٤/ ٨٦) ضمن ترجمته.

(٢) إبراهيم بن يزيد التيمي، عابد مشهور توفي سنة ٩٢ هـ.
انظر: سير الذهبي (٥/ ٦٠)، وصفة الصفوة (٣/ ٩٠).

(٣) هذا الخبر رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٣٠) أنه وقع لإبراهيم عليه السلام وليس لإبراهيم التيمي.

(٤) عتبة بن أبان الغلام الزاهد الخاشع كان يشبه في حزنه بالحسن البصري، سمي بالغلام لجده في العبادة لا لصغر سنه.
انظر: ترجمته وقصته في الحلية (٦/ ٢٢٦)، وسير الذهبي (٧/ ٦٢)، وصفة الصفوة (٣/ ٣٧٠). وأخرج القصة البيهقي في الشعب (٢/ ١١٧)، واللالكائي في الكرامات (ص ٢٢٥).

لَهُ أَعْضَاءَهُ وَقْتَ الْوُضُوءِ، فَكَانَ وَقْتَ الْوُضُوءِ تُطْلَقُ لَهُ أَعْضَاؤُهُ ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَهُ(١).

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَأَمَّا مَا نَعْرِفُهُ عَنْ أَعْيَانٍ وَنَعْرِفُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَكَثِيرٌ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْكَرَامَاتِ قَدْ تَكُونُ بِحَسَبِ حَاجَةِ الرَّجُلِ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَيْهَا الضَّعِيفُ الْإِيمَانِ أَوْ الْمُحْتَاجُ أَتَاهُ مِنْهَا مَا يُقَوِّي إِيمَانَهُ وَيَسُدُّ حَاجَتَهُ، وَيَكُونُ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ وِلَايَةً لِلَّهِ مِنْهُ مُسْتَغْنِيًا عَنْ ذَلِكَ، فَلَا يَأْتِيه مِثْلُ ذَلِكَ؛ لِعُلُوِّ دَرَجَتِهِ وَغِنَاهُ عَنْهَا لا لِنَقْصِ وِلَايَتِهِ، وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الصَّحَابَةِ، بِخِلَافِ مَنْ يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ لِهَدْيِ الْخَلْقِ وَلِحَاجَتِهِمْ فَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ دَرَجَةً.

الشـــرح:

شيخ الإسلام له قاعدة في الكرامات والخوارق، مطبوعة، أصَّل فيها قاعدة الخوارق، والآيات، والكرامات، والفرق بين هذه الأمور.

وهذا الكلام المستفيض من شيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللهُ، وأجزل له المثوبة، وجزاه عنا وعن كل سني خيرًا -، ذكر فيه كرامات، وأن الكرامة فرع معجزات الأنبياء؛ لأن كل كرامة لم تحصل إلا باتباع النبي ﷺ، والذي

---

(١) عبد الواحد بن زيد الزاهد القدوة أبو عبيدة البصري، توفي سنة ١٩٧ هـ. انظر: ترجمته وقصته في الحلية (٦/ ١٥٥)، وسير الذهبي (٧/ ١٧٨)، وصفة الصفوة (٣/ ٣٢١).

لا يتبع النبي ﷺ لا تحصل له كرامة، وإنما الذي يحصل له خارق شيطاني من الشيطان، وليس بكرامة من الله ﷻ؛ إذ الكرامة للمتبعين وليست للمخالفين، وباب الكرامات باب واسع.

والكرامة: تُعَرَّفُ بما يجريه الله من خوارق العادات على يدي ولي، والكرامة من لفظها إكرام للعبد، وقد يكون هذا الإكرام لحاجته هو إلى ذلك، أو لحاجة غيره؛ ولهذا حصول الكرامة لا يدل على رفعة من حصلت له، فهو إكرام خاص. وقد يكون من لم تحصل له الكرامة، أُكرم بأنواع من الإيمان واليقين والصدق، بما لم يُكرم به من حصلت له الكرامات؛ ولهذا ذكر شيخ الإسلام أن الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة؛ لأجل ضعف الإيمان، وحاجتهم إلى ما يقوي إيمانهم، وحاجة غيرهم ممن يراهم إلى اتباعهم واقتفاء أثر التابعين، لضعف الإيمان في الناس وضعف اليقين.

فإذًا الكرامات من حيث الأصل هي فرع معجزات النبي ﷺ، ولا تصل إلى قدرها، وإن كانت قد تشترك معها في الجنس، يعني: قد يحصل للولي من الكرامة مثل ما حصل للنبي ﷺ من معجزة، فمثلًا إجراء طعام على يدي الولي من جنس معجزة النبي ﷺ، لكن لا يبلغ قدر المعجزة في أن الذي يأتي الولي يطعم به الجيش العظيم، لكن يحصل له جنس الكرامة، يحصل له ما يشترك به مع المعجزة في الجنس، ومثل النار التي حصلت لإبراهيم عليه السلام قال لها الله ﷻ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] هذه نار عظيمة أُججت، فكانت معجزة لإبراهيم عليه السلام، **وقد حصلت لبعض الصحابة**(١) أنه أُدخل النار فلم تضره، لكن كانت نارًا صغيرة وليست على

(١) هو عبد الله بن ثوب، أبو مسلم الخولاني، سبقت ترجمته مع قصته (ص٣٩٩).

قدر تلك النار، وهكذا في أجناسها.

إذًا فكل كرامة هي معجزة للنبي، يعني مجموع الكرامات التي حصلت بالاتباع هي من جملة دلائل النبوة؛ لأنها ما حصلت للأولياء إلا باتباع محمد ﷺ. فأهل السنة يؤمنون بكرامات الأولياء، ويؤمنون بما يُجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم، والمكاشفات، وأنواع القدرة، والتأثيرات، فالكرامات نصدق بها، ونؤمن بأنها تحصل لأولياء الله ﷻ.

وهذه الكرامات على نوعين:

الأول: كرامة علمية.

الثاني: كرامة من جهة القدرة والتأثير.

أما العلم، فقد يكون علمًا كشفيًا، بأن يعلم الخافي، مثل علم أبي بكر رضي الله عنه بنوع الجنين، فقد رأى ما في بطن امرأته، فقال الصديق رضي الله عنه: **«أُرَاهَا جَارِيَةً»**(١).

وقد يكون علمًا بالسماع، فيسمع ما لم يسمعه غيره، مثل سارية لما سمع كلام عمر، أو إسماع ما لم تجر العادة بأن يُسمع مع بعد المسافة، مثل الكرامة التي حصلت لعمر رضي الله عنه(٢). وقد يكون الخارق العلمي من جهة التأثير على الخلق، فيكون العالم أو الرجل الصالح يُعلِّم فيؤثر على الناس بعلمه، أو بوعظه، ونحو ذلك، فيهديهم الله ﷻ ويصلحهم على يديه.

---

(١) سبق (ص١٦٥).

(٢) سبق (ص١٦٥).

وهذا الذي ذكرت من جهة العلم، له أمثلة كثيرة فيما سبق فيُدرج المناسب منها تحت هذا القسم.

أما الثاني: فهو القدرة والتأثير، يعني: أن يقدر على ما لا يقدر عليه غيره، وأن يؤثر في الكونيات بما لا يؤثر عليه غيره، وإذا قلنا: يؤثر ويقدر فهو إجراء الله على يديه ذلك؛ كما عرفنا الكرامة بقولنا: ما يُجري الله من خوارق العادات على يدي ولي، وليس معناه أنه يعطى القدرة في التأثير؛ كما يقوله غلاة الصوفية، حتى بلغوا فيمن يزعمونه وليًا بأنه يقول للشيء كن فيكون. إنما هو يجريه الله على يديه إكرامًا له، وليس معناه أنه عنده قدرة دائمة في التأثير أو قلب الأشياء أو ما أشبه ذلك. من هذا المثال: يُبس النهر لسعد حتى عبر عليه هو ومن معه، وسفينة أمسك بالأسد حتى أوصله مقصده، ومثل هذا كثير في أنواع القدرة. إذًا الكرامة من حيث هي حاصلة لا تدل على أن من حصلت له أعظم ممن لم تحصل له؛ لأن الكرامة قد يحتاج إليها ضعيف الإيمان، فتحصل له وتُحْجَبُ عن قوي الإيمان، فلا يُعطى كرامة حسية من قدرة، وتأثير، أو كشف علمي، وإنما يُعطى العلم التأثيري، وأشباه ذلك. والخوارق سيأتي كلام شيخ الإسلام عليها، وأنها تختلف عن الكرامات، والخوارق تجري على يدي المبتدعة العصاة إلى آخر ذلك.

إذا تبين هذا، فالكرامة قد تحصل على يدي غير الولي، والأصل أنها لا تحصل إلا لمطيع: لولي، صالح، مؤمن، متقي، وقد تحصل لعاص، وقد تحصل لمبتدع، وهذه الحالات القليلة إنما هي لتقوية إيمانه لضعفه، أو لتقوية من معه على عدوهم لما معه من أصل الإيمان مع عدو كافر، أو لأنه يُنافح عن الدين، فيُعطى من الإكرام؛ لأجل منافحته عن الدين في مقابل

المشرك والكافر. بهذا يُشكل على البعض حصول طائفة من الكرامات أو من الخوارق لمن هو مبتدع، مثل ما ذُكر من حصول الكرامات في أفغانستان لبعض الناس في قتالهم مع الملاحدة، ويأتي طائفة ويقولون: ليس بصحيح لأن بعض هؤلاء مبتدعة، وتفشو فيهم أنواع من الشركيات. فيكذبون، وآخرون يقولون: رأينا بأعيننا فيُصَدَّقُونَ، فيحصل خلط هل يُكذب هذا أم يُصدق؟

وقاعدة أهل السنة في هذا الباب، أن هؤلاء يُقاتلون الملاحدة، يُقاتلون الكفار أعداء الله ﷻ، فهؤلاء المسلمون الذي ينتسبون إلى أصل الإسلام قد يعطون شيئًا من الخوارق، لا لهم، ولكن لإظهار الدين الذي معهم على عدوهم، وهذا يحصل في باب المناظرات، قد يأتي شخص من المعتزلة ويناظر نصرانيًا، فيُكرم بأشياء من الحجج ما خطرت بباله، وذلك لما معه من أصل الإسلام في مقابلة ذلك النصراني المشرك، وقد يكون أشعريًا مثلًا يناظر، وهكذا. فإذًا الكرامة التي تحصل للعبد ينبغي النظر فيها والتأمل، فلا يعجل بالإثبات أو بالإنكار.

وأيضًا من قاعدة أهل السنة في الكرامات: أن الكرامة لا يُتعلق بصاحبها بل هي إكرام له، فالله ﷻ أكرمه.

وأعظم من كرامة الولي: كرامة محمد ﷺ في حياته، وبعد مماته بالآيات والبراهين، بل وباصطفائه رسولًا وخاتمًا للأنبياء والمرسلين، ومع ذلك هو ﷺ حذر من أن يُتخذ قبره مسجدًا[1]، وأن يُدعى[2]، وأن يُجعل قبره

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١)

(٢) أخرج مالك في الموطأ (٨٥) أن رسول اله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ..» الحديث.

عيدًا[١]، وأشباه ذلك مما حدثت لطائفة من الأولياء الذين حكيت عنهم كرامات.

فإذًا حصول الكرامة لا تعني التعلق بصاحبها، بل لا يجوز التعلق بمن حصلت له الكرامة، لا في حياته ولا بعد مماته، التعلق غير الشرعي.

أما التعلق الشرعي كأن يُتأثر برجل صالح، وأن يصاحب لتقوية المصاحب على طاعة الله، أو أن يسأله أحيانًا أن يدعو له، ونحو ذلك، مثل ما طلب من سعد أن يقسم في الفتح وأشباه ذلك مما هو داخل في ضمن الفائدة العامة. إذًا فأهل السنة في باب الكرامات وسط بين المنكرين؛ كالمعتزلة ومن شابههم كابن حزم[٢] وغيره، وبين الغالين؛ كغلاة الصوفية الذين يجعلون الكرامة سبيلًا للتعلق البدعي، وأيضًا لا يفرقون بين الخارق الشيطاني وبين الكرامة.

---

(١) أخرج أبو داود (٢٠٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَى فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

(٢) هو أبو محمد علي ابن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، قيل إنه تفقه أولًا على مذهب الشافعي ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله، جليه، وخفيه، والأخذ بظاهر النص، وعموم الكتاب، والحديث والقول بالبراءة الأصلية، واستصحاب الحال، توفي سنة ٣٩٩هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤)، والوافي بالوفيات (٢٠/ ٩٣)، والبداية والنهاية (١٢/ ٩١)، والنجوم الزاهرة (٥/ ٧٥).

وَهَذَا بِخِلَافِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، مِثْلُ حَالِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ صَيَّادٍ[١] الَّذِي ظَهَرَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ قَدْ ظَنَّ بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ الدَّجَّالُ، وَتَوَقَّفَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَمْرِهِ حَتَّى تَبَيَّنَ لَهُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الدَّجَّالُ، لَكِنَّهُ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ. قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ خَبَّأْت لَك خَبْئًا» قَالَ: الدُّخُّ الدُّخُّ. وَقَدْ كَانَ خَبَّأَ لَهُ سُورَةَ الدُّخَانِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَك»[٢]، يَعْنِي: إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ.

وَالْكُهَّانُ كَانَ يَكُونُ لِأَحَدِهِمْ الْقَرِينُ مِنْ الشَّيَاطِينِ يُخْبِرُهُ بِكَثِيرِ مِنْ الْمُغَيَّبَاتِ بِمَا يَسْتَرِقُهُ مِنْ السَّمْعِ، وَكَانُوا يَخْلِطُونَ الصِّدْقَ بِالْكَذِبِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَتُوحِيه إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»[٣].

---

(١) عبد الله بن صائد، وهو الذي يقال له ابن صياد، كان أبوه من اليهود، ولا يدري ممن هو، وهو الذي يقول عنه بعض الناس: إنه الدجال، ولد على عهد رسول الله ﷺ أعورًا مختونًا، قال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله حتى أقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ يَكُنْ الَّذِي تَرَى فَلَنْ تَسْتَطِيعَ قَتْلَهُ». ومن ولده عمارة بن عبد الله بن صياد من خيار المسلمين من أصحاب سعيد بن المسيب.
انظر: أخبار المدينة (١/ ٢٢٧)، والإصابة (٥/ ١٩٢)، وشذرات الذهب (١/ ٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢١٠)، ومسلم (٢٢٢٨).

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ الْأَنْصَارِ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِمِثْلِ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ؟» قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ يَمُوتُ عَظِيمٌ أَوْ يُولَدُ عَظِيمٌ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّهُ لا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَسْأَلُ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَتَخْطَفُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَيُرْمُونَ فَيَقْذِفُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَزِيدُونَ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ مُعَمَّرٌ: قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ: أَكَانَ يُرْمَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِنَّهَا غَلُظَتْ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ.

الشرح:

الشهب واستراق السمع موجود قبل النبوة، وفي أثناء حياة النبي ﷺ وبعد موته، فاستراق السمع لم ينقطع لكنه كان قبل بعثة النبي ﷺ كثيرًا جدًا لحكمة يعلمها الله جل جلاله.

وبعد بعثة محمد ﷺ ملئت السماء حرسًا شديدًا وشهبًا، فلم يصل مردة الجن، ولم يصل مسترقو السمع إلى ما كانوا يصلون إليه قبل ذلك، وإنما

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢٩).

قَلَّتْ جدًا، ولكنهم استرقوا بعض السمع، ولم يسترقوا السمع كله، مثل ما جاء في حديث ابن صائد أن النبي ﷺ قال: «قَدْ خَبَّأْت لَكَ خَبْئًا»، قال: الدخ الدخ، قال: «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَك»[1] يعني إنك كاهن، سمعت الشياطين الكلمة وأوحتها إليه، (الدخ) لكن ما تدري ما البقية؟ لأن الشياطين ما مُكنوا من استماع الوحي، الذي يوحى إلى النبي ﷺ. ربما تحدث أشياء في وقت النبوة، مما يقضي الله ﷻ به من الأمر في السماء، مما لا يختص بالوحي، وإنما هو من الأوامر الكونية، وما سيحدث ونحو ذلك، فتسترق الشياطين السمع، فيصلون، لكن بقلة وندرة.

إذًا الأحوال من حيث استراق للسمع الشياطين بالنسبة للبعثة ثلاثة:

الأول: ما قبل البعثة، فالاستراق كثير.

الثاني: وفي وقت خروج البعثة، مدة الرسالة قليل ونادر.

الثالث: وبعد محمد ﷺ، زاد، لكن لا يوصف بكثرة ولا بقلة، يعني زاد عما كان في البعثة، لكن لا يوصف بكثرة؛ ولذلك قبل البعثة كان الكهان كثير يخبرون بالمغيبات، وهذا الأمر في الأرض من هذا الجنس كثير. وبعد البعثة موجود، لكنه قليل عما كان، يعني بعد موته ﷺ قليل عما كان قبل حياته ﷺ. هذا من جهة.

الجهة الثانية: أن أولياء الشيطان، تحصل لهم خوارق، مثل الإخبار بالمغيبات، فكون الرجل عنده أخبار بالمغيبات لا يعني أنه ولي. يوجد أناس كثيرون في زمن شيخ الإسلام، وبعده يعتقدون أن من حصل عنده نوع

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٤٤).

خوارق وإخبار بالمغيبات، يعتقدون أنه ولي، وهذا غلط كبير؛ لأن الولي: هو المؤمن، التقي، التابع، الموحد، الصادق، هذا هو الولي، يجري الله على أيدي هؤلاء بعض الكرامات.

وإذا كان فاجرًا، فاسقًا، مفرطًا، يعمل المحرمات، ويترك الفرائض، فكيف يكون ما يحدث له من الخوارق كرامة؟ إنما هذه خوارق شيطانية.

فإذًا الخوارق على هذا ثلاثة أقسام:

الأول: خوارق ليست في مقدور الجن والإنس، وهذه هي الآيات والبراهين التي يؤتاها الأنبياء.

الثاني: خوارق تكون على يدي المؤمن التقي، فهذه هي التي تسمى كرامة، وهي دليل من دلائل النبوة؛ لأنها ما حصلت لهذا إلا باتباعه لنبيه.

الثالث: خوارق تحصل للفجرة والكفرة والعصاة، الذين يرتكبون المحرمات، ويفعلون الموبقات، ويتركون الفرائض، هذه تسمى خوارق شيطانية. فإذًا حصول الخارق بمجرده لا يعني شيئًا، لكن الحكم على صاحبه، فينظر في حال صاحبه.

وَالْأَسْوَدُ العنسي الَّذِي ادَّعَى النُّبُوَّةَ[١]، كَانَ لَهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْمُغَيَّبَةِ، فَلَمَّا قَاتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ الشَّيَاطِينِ أَنْ يُخْبِرُوهُ بِمَا يَقُولُونَ فِيهِ، حَتَّى أَعَانَتْهُمْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهَا كُفْرُهُ، فَقَتَلُوهُ.

وَكَذَلِكَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ[٢]، كَانَ مَعَهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِالْمُغَيَّبَاتِ وَيُعِينُهُ عَلَى بَعْضِ الْأُمُورِ.

وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ كَثِيرُونَ، مِثْلُ: الْحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ[٣] الَّذِي خَرَجَ بِالشَّامِ زَمَنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَادَّعَى النُّبُوَّةَ، وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ يُخْرِجُونَ رِجْلَيْهِ مِنْ الْقَيْدِ، وَتَمْنَعُ السِّلَاحَ أَنْ يَنْفُذَ فِيهِ، وَتُسَبِّحُ الرَّخَامَةُ إذَا مَسَحَهَا بِيَدِهِ، وَكَانَ يَرَى النَّاسَ رِجَالًا وَرُكْبَانًا عَلَى خَيْلٍ فِي الْهَوَاءِ وَيَقُولُ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ، وَإِنَّمَا كَانُوا جِنًّا، وَلَمَّا أَمْسَكَهُ الْمُسْلِمُونَ لِيَقْتُلُوهُ طَعَنَهُ الطَّاعِنُ بِالرُّمْحِ فَلَمْ يَنْفُذْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ عبد الْمَلِكِ: إنَّك لَمْ تُسَمِّ اللَّهَ، فَسَمَّى اللَّهَ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ[٤].

وَهَكَذَا أَهْلُ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ تَنْصَرِفُ عَنْهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إذَا ذُكِرَ عِنْدَهُمْ مَا يَطْرُدُهَا مِثْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه لَمَّا وَكَّلَهُ

---

(١) انظر: ترجمته (ص٢٠٤).

(٢) انظر: ترجمته (ص٢٠٤).

(٣) انظر: ترجمته (ص٢٠٥).

(٤) ذكر هذه القصة ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص٤٥٦).

النَّبِيُّ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ الْفِطْرِ، فَسَرَقَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ، وَهُوَ يُمْسِكُهُ فَيَتُوبَ فَيُطْلِقَهُ، فَيَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» فَيَقُولُ: زَعَمَ أَنَّهُ لا يَعُودُ، فَيَقُولُ: «كَذَبَكَ وَإِنَّهُ سَيَعُودُ»، فَلَمَّا كَانَ فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أُعَلِّمَكَ مَا يَنْفَعُكَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إِلَى آخِرِهَا، فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ شَيْطَانٌ(١).

وَلِهَذَا إِذَا قَرَأَهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ بِصِدْقٍ أَبْطَلَتْهَا، مِثْلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ بِحَالٍ شَيْطَانِيٍّ، أَوْ يَحْضُرُ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ(٢)، فَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، وَتَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ كَلَامًا لا يُعْلَمُ وَرُبَّمَا لا يُفْقَهُ، وَرُبَّمَا كَاشَفَ بَعْضَ الْحَاضِرِينَ بِمَا فِي قَلْبِهِ، وَرُبَّمَا تَكَلَّمَ بِأَلْسِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا يَتَكَلَّمُ الْجِنِّيُّ عَلَى لِسَانِ الْمَصْرُوعِ، وَالْإِنْسَانُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ الْحَالُ لا يَدْرِي بِذَلِكَ، بِمَنْزِلَةِ الْمَصْرُوعِ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ وَلَبِسَهُ وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ، فَإِذَا أَفَاقَ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالَ؛ وَلِهَذَا قَدْ يُضْرَبُ الْمَصْرُوعُ، وَذَلِكَ الضَّرْبُ لا يُؤَثِّرُ فِي الْإِنْسِيِّ، وَيُخْبِرُ إِذَا أَفَاقَ أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ الضَّرْبَ كَانَ عَلَى الْجِنِّيِّ الَّذِي لَبِسَهُ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ بِأَطْعِمَةٍ وَفَوَاكِهَ وَحَلْوَى

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١).

(٢) المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/٣٨).

وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَطِيرُ بِهِمْ الْجِنِّيُّ إِلَى مَكَّةَ أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْ غَيْرِهِمَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ثُمَّ يُعِيدُهُ مِنْ لَيْلَتِهِ فَلَا يَحُجُّ حَجًّا شَرْعِيًّا؛ بَلْ يَذْهَبُ بِثِيَابِهِ وَلَا يُحْرِمُ إِذَا حَاذَى الْمِيقَاتَ، وَلَايُلَبِّي، وَلَا يَقِفُ بمزدلفة، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَلَا يَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَلَا يَرْمِي الْجِمَارَ؛ بَلْ يَقِفُ بِعَرَفَةَ بِثِيَابِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ لَيْلَتِهِ، وَهَذَا لَيْسَ بِحَجٍّ [وَلِهَذَا رَأَى بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةَ تَكْتُبُ الْحُجَّاجَ]، فَقَالَ: إلا تَكْتُبُونِي؟ فَقَالُوا: لَسْت مِنْ الْحُجَّاجِ. يَعْنِي: حَجًّا شَرْعِيًّا.

وَبَيْنَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُشْبِهُهَا مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فُرُوقٌ مُتَعَدِّدَةٌ، مِنْهَا: أَنَّ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ سَبَبُهَا الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى، وَالْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ سَبَبُهَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَالشِّرْكُ وَالظُّلْمُ وَالْفَوَاحِشُ قَدْ حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ، فَلَا تَكُونُ سَبَبًا لِكَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْكَرَامَاتِ عَلَيْهَا، فَإِذَا كَانَتْ لا تَحْصُلُ بِالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ بَلْ تَحْصُلُ بِمَا يُحِبُّهُ الشَّيْطَانُ وَبِالْأُمُورِ الَّتِي فِيهَا شِرْكٌ كَالِاسْتِغَاثَةِ بِالْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ كَانَتْ مِمَّا يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى ظُلْمِ الْخَلْقِ وَفِعْلِ الْفَوَاحِشِ، فَهِيَ مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ لا مِنْ الْكَرَامَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ إذَا حَضَرَ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ حَتَّى يَحْمِلَهُ فِي الْهَوَاءِ وَيُخْرِجَهُ مِنْ تِلْكَ الدَّارِ، فَإِذَا حَصَلَ رَجُلٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى طَرِدَ شَيْطَانُهُ فَيَسْقُطُ، كَمَا جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِمَخْلُوقٍ إمَّا حَيٌّ أَوْ مَيِّتٌ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْحَيُّ مُسْلِمًا أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ مُشْرِكًا، فَيَتَصَوَّرُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ، وَيَقْضِي بَعْضَ حَاجَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغِيثِ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ ذَلِكَ الشَّخْصُ أَوْ هُوَ مَلَكٌ عَلَى صُورَتِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ أَضَلَّهُ لَمَّا أَشْرَكَ بِاَللَّهِ، كَمَا كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَدْخُلُ الْأَصْنَامَ وَتُكَلِّمُ الْمُشْرِكِينَ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَصَوَّرُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا الْخَضِرُ، وَرُبَّمَا أَخْبَرَهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ وَأَعَانَهُ عَلَى بَعْضِ مَطَالِبِهِ، كَمَا قَدْ جَرَى ذَلِكَ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَكَثِيرٍ مِنْ الْكُفَّارِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، يَمُوتُ لَهُمْ الْمَيِّتُ فَيَأْتِي الشَّيْطَانُ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى صُورَتِهِ وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ذَلِكَ الْمَيِّتُ، وَيَقْضِي الدُّيُونَ وَيَرُدُّ الْوَدَائِعَ، وَيَفْعَلُ أَشْيَاءَ تَتَعَلَّقُ بِالْمَيِّتِ، وَيَدْخُلُ عَلَى زَوْجَتِهِ وَيَذْهَبُ، وَرُبَّمَا يَكُونُونَ قَدْ أَحْرَقُوا مَيِّتَهُمْ بِالنَّارِ كَمَا تَصْنَعُ كُفَّارُ الْهِنْدِ، فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ عَاشَ بَعْدَ مَوْتِهِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ شَيْخٌ كَانَ بِمِصْرَ أَوْصَى خَادِمَهُ فَقَالَ: إذَا أَنَا مُتّ فَلَا تَدَعْ أَحَدًا يُغَسِّلُنِي، فَأَنَا أَجِيءُ وَأُغَسِّلُ نَفْسِي، فَلَمَّا مَاتَ رَآى خَادِمُهُ شَخْصًا فِي صُورَتِهِ، فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ هُوَ دَخَلَ وَغَسَّلَ نَفْسَهُ،

فَلَمَّا قَضَى ذَلِكَ الدَّاخِلُ غُسْلَهُ - أَيْ غُسْلَ الْمَيِّتِ - غَابَ وَكَانَ ذَلِكَ شَيْطَانًا، وَكَانَ قَدْ أَضَلَّ الْمَيِّتَ وَقَالَ: إنَّك بَعْدَ الْمَوْتِ تَجِيءُ فَتُغَسِّلُ نَفْسَك، فَلَمَّا مَاتَ جَاءَ أَيْضًا فِي صُورَتِهِ لِيُغْوِيَ الْأَحْيَاءَ كَمَا أَغْوَى الْمَيِّتَ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى عَرْشًا فِي الْهَوَاءِ وَفَوْقَهُ نُورٌ وَيَسْمَعُ مَنْ يُخَاطِبُهُ وَيَقُولُ: أَنَا رَبُّك، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عَلِمَ أَنَّهُ شَيْطَانٌ فَزَجَرَهُ وَاسْتَعَاذَ بِاَللَّهِ مِنْهُ فَيَزُولُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَشْخَاصًا فِي الْيَقَظَةِ يَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَيْخٌ مِنْ الصَّالِحِينَ، وَقَدْ جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ بَعْضَ الْأَكَابِرِ: إمَّا الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، أَوْ غَيْرُهُ قَدْ قَصَّ شَعْرَهُ أَوْ حَلَقَهُ أَوْ أَلْبَسَهُ طَاقِيَّتَهُ أَوْ ثَوْبَهُ، فَيُصْبِحُ وَعَلَى رَأْسِهِ طَاقِيَّةٌ وَشَعَرُهُ مَحْلُوقٌ أَوْ مُقَصَّرٌ، وَإِنَّمَا الْجِنُّ قَدْ حَلَقُوا شَعْرَهُ أَوْ قَصَّرُوهُ.

وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ تَحْصُلُ لِمَنْ خَرَجَ عَنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهُمْ دَرَجَاتٌ، وَالْجِنُّ الَّذِينَ يَقْتَرِنُونَ بِهِمْ مِنْ جِنْسِهِمْ وَهُمْ عَلَى مَذْهَبِهِمْ، وَالْجِنُّ فِيهِمْ الْكَافِرُ وَالْفَاسِقُ وَالْمُخْطِئُ، فَإِنْ كَانَ الْإِنْسِيُّ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ جَاهِلًا دَخَلُوا مَعَهُ فِي الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالضَّلَالِ، وَقَدْ يُعَاوِنُونَهُ إذَا وَافَقَهُمْ عَلَى مَا يَخْتَارُونَهُ مِنْ الْكُفْرِ، مِثْلُ: الْإِقْسَامِ عَلَيْهِمْ بِأَسْمَاءِ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنْ الْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ، وَمِثْلُ: أَنْ يَكْتُبَ أَسْمَاءَ اللَّهِ أَوْ بَعْضَ كَلَامِهِ بِالنَّجَاسَةِ، أَوْ يَقْلِبَ[1]

(١) يعني: يقرؤها من آخرها إلى أولها.

فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أَوْ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ أَوْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ أَوْ غَيْرَهُنَّ وَيَكْتُبَهُنَّ بِنَجَاسَةٍ، فَيُغَوِّرُونَ لَهُ الْمَاءَ وَيَنْقُلُونَهُ بِسَبَبِ مَا يُرْضِيهِمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ، وَقَدْ يَأْتُونَهُ بِمَا يَهْوَاهُ مِنْ امْرَأَةٍ أَوْ صَبِيٍّ إمَّا فِي الْهَوَاءِ وَإِمَّا مَدْفُوعًا مُلْجَأً إلَيْهِ.

إلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَطُولُ وَصْفُهَا، وَالْإِيمَانُ بِهَا إيمَانٌ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ.

وَالْجِبْتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيَاطِينُ وَالْأَصْنَامُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ مُطِيعًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَمْ يُمْكِنْهُمْ الدُّخُولُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ أَوْ مُسَالَمَتُهُ.

الشـــرح:

يذكر الشيخ هنا أفعال السحرة، مثل كتابة الآيات بالنجاسات، وإهانة المصحف - والعياذ بالله - أو البول عليه - والعياذ بالله - هذا من آخر مراتب السحرة، يعني لتعلم السحر - والعياذ بالله - لا يكون كاهنًا، ساحرًا تطيعه الشياطين، وتعمل بأمره فيما يشتهي إلا إذا حصل منه الكفر بهذه الأنواع؛ كما قد ذكر في بعض كتب السحر المعاصرة والقديمة.

فالناس في زمن شيخ الإسلام، وما قبله إلى زمن قريب من زمننا هذا كانوا يعتقدون في هؤلاء السحرة والكهنة، ويوجد هذا الآن بكثرة في عدد من البلاد الإسلامية، وفي بعض البلاد يوجد أناس تخدمهم الشياطين، ويخبرونهم بالمغيبات، وراج على بعض أهل هذه البلاد، حتى من أهل الفطرة راج عليهم أن أولئك قالوا: إن الملائكة تخبرنا، الملائكة تخدمنا،

هؤلاء صالحون، ويظهرون بصورة الصلاح، ويزعمون أن الملائكة هي التي تصنع لهم وتخدمهم، والملائكة لا تصنع شيئًا من ذلك، ولم تخدم الصحابة في مثل هذه الأشياء، وإنما هذه من الشياطين يخبرونهم بالمغيبات ويغيرون لهم الأشياء، وينطق الناطق وهو بعيد، ويأتي ويقول الميت يقول: كذا وكذا، أو يسمع صوتًا أو أشباه ذلك مما ذكره. المقصود من هذا البحث الذي ذكره شيخ الإسلام وأطال البحث فيه من حيث الأمثلة، تأصيل القاعدة وهي أن الفرقان بين الخارق الإيماني، والخارق الشيطاني، هو حال الشخص، فإذا كان من حصلت له الخوارق مطيعًا لله ولرسوله، آمرًا ناهيًا، صاحب تقوى، فهذا قد يجري الله على يديه كرامات.

وإذا كان عاصيًا مخالفًا، مرتكبًا للمحرمات، تاركًا للفرائض، عنده حب للنجاسات، وعنده إظهار للتعذيب بالنار، أو الخوارق التي لا تحصل لأهل الإيمان؛ لنكارتها، فهذه حال شيطانية، ولو ادعى أنها من الملائكة أو من صلاحه... إلى آخره. فهذه أحوال شيطانية.

كذلك ما يكون من الأمور التي ذكرها من الأمثلة، هذه يجب على المرء إلا يُكَذِّبَ بها، أو يقول: إن هذا لم يحصل؛ لأن الأشياء حصلت، ويقول من رآها إنها حصلت، ورأيتها بعيني. فيحيله الموحد إلى الحق، يقول: نعم حدثت؛ ولكنها لم تحدث إلا من الشيطان، نعم سمع الصوت من القبر، وهو صوت فلان، وكلمكم وقال: افعلوا كذا، أو أنا غفرت لكم، أو سألت لكم ربي، أو شفعت لكم، لكن هو في الواقع صوت شيطان، ليس صوت الميت؛ لأن الشيطان قلد صوت الميت، ليغوي العباد، والأموات لا يخاطبون الأحياء، لم يخاطب النبي ﷺ الصحابة وشهداء بدر، ولا أكرم الناس، لم يخاطبهم الأحياء بأمورهم، وإذا الشيطان تكلم

على لسان هذا الميت فإن هذا التكليم إغواء وتعلق واعتقادات باطلة. إذًا فالشياطين تحرص على الإغواء؛ كما هو معلوم، وقد قال ﷻ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٢ - ٦٤] صوت الشيطان يشمل كل ما يغوي الشيطان به العباد من الأصوات سواء كانت أصوات المخلوقين التي من جهة الشيطان أو صوت الشيطان نفسه في القبور، وفي هذه الأحوال. فإذًا يجب أن ينتبه إلى مثل هذه المسائل، خاصة في البلاد التي يكثر فيها الجهل، والاعتقاد في الكهنة والأولياء، وما شابه ذلك، وأن أكثر ما يحصل لهم من هذه الأشياء إنما هي من الشياطين، وبعضها خيالات.

سبب استطراد شيخ الإسلام ﷺ في هذه الأمثلة، هو أن يعلم القارئ الذي يقرأ كتابه أنه محيط بأحوال القوم، حتى لا يقول قائل: أنت تتكلم عنهم، وأنت لا تعرفهم، فذكر الأصناف جميعًا الذين يحصل لهم الخوارق وتخدمهم الشياطين بأصناف ما يحصل لهم، مثل الأشربة، والأطعمة، والطيران في الهواء، والمشي على الماء، وفي الإخبار بالمغيبات، وفي النطق عند القبور، وفي التمثيل بالأشخاص، كل هذه حصلت للناس ويمثل بها حتى يجمع بين معرفة واقع الناس، وتقرير الأحكام الشرعية.

وهذا يكون أعظم في الحجة، ذكر شيخ الإسلام في بعض كتبه أنه قد جرى مثل هذا له ولغيره، فقال: «**وَقَدْ جَرَى مِثْلُ هَذَا لِي وَلِغَيْرِي مِمَّنْ أَعْرِفُهُ، ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهُ اسْتَغَاثَ بِي مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، وَأَنَّهُ رَآنِي قَدْ جِئْتُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: رَأَيْتُكَ رَاكِبًا بِلِبَاسِكَ وَصُورَتِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: رَأَيْتُكَ عَلَى جَبَلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: غَيْرَ ذَلِكَ، فَأَخْبَرْتُهُمْ أَنِّي لَمْ أُغِثْهُمْ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ شَيْطَانٌ تَصَوَّرَ**

بِصُورَتِي؛ لِيُضِلَّهُمْ لَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، وَدَعَوْا غَيْرَ اللَّهِ»(١)، فالشيطان بشهادة جمع من الثقات من أصحابه تمثل بصورته؛ وهذا عند شيخ الإسلام شيء يقيني؛ لأنه شهد به الثقات، وهو يعلم بيقين من نفسه أنه ما تعدى دمشق، فكيف يقول هؤلاء: حصل كذا وكذا، وأنت جئت وخلصتنا؟ لا شك أن هذا من الشيطان؛ ولذلك يتكلم الشيخ بأشياء مبنية على محسوس، والمبني على محسوس لا يكذب.

(١) انظر: الجواب الصحيح (٢/ ٣٢١).

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ عِبَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْرُوعَةُ فِي الْمَسَاجِدِ الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللَّهِ كَانَ عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ أَبْعَدَ عَنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَكَانَ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ يُعَظِّمُونَ الْقُبُورَ وَمَشَاهِدَ الْمَوْتَى، فَيَدْعُونَ الْمَيِّتَ، أَوْ يَدْعُونَ بِهِ، أَوْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَهُ مُسْتَجَابٌ أَقْرَبُ إِلَى الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَإِنَّهُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[١].

وَثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسِ لَيَالٍ: «إِنَّ مَنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْت مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ، لا يَبْقَيَنَ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إلا سُدَّتْ إلا خَوْخَةُ أبي بَكْرٍ، إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إلا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[٢].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ فِي مَرَضِهِ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَذَكَرُوا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَقَالَ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهَا تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَصَحِيحِ أبي حَاتِم عَنْهُ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ الْخَلْقِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»[١].

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا». وَفِي «الْمُوَطَّأِ» عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[٢]

وَفِي «السُّنَنِ» عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»[٣].

وَقَالَ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إلا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»[٤].

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِقَبْرِي مَلَائِكَةً يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»[٥]. وَقَالَ ﷺ: «أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنْ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمْعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمْعَةِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْك وَقَدْ أَرَمْت - أَيْ بَلِيتَ - فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ لُحُومَ الْأَنْبِيَاءِ»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥)، وابن حبان (٦٨٤٧).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٤٢).

(٣) سبق تخريجه (ص٣٤٢).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، واحمد (٢/ ٥٢٧).

(٥) أخرجه النسائي (٣/ ٤٣)، وأحمد (١/ ٣٨٧). بلفظ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ».

(٦) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (٣/ ٩١)، وابن ماجه (١٠٨٥).

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ﵇ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَانُوا صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ، فَكَانَ هَذَا مَبْدَأَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ[1].

فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ لِيَسُدَّ بَابَ الشِّرْكِ، كَمَا نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ وَقْتَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَوَقْتَ غُرُوبِهَا؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ حِينَئِذٍ، وَالشَّيْطَانُ يُقَارِنُهَا وَقْتَ الطُّلُوعِ وَوَقْتَ الْغُرُوبِ، فَتَكُونُ فِي الصَّلَاةِ حِينَئِذٍ مُشَابَهَةٌ لِصَلَاةِ الْمُشْرِكِينَ، فَسَدَّ هَذَا الْبَابَ.

وَالشَّيْطَانُ يُضِلُّ بَنِي آدَمَ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ، فَمَنْ عبد الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ وَدَعَاهَا -كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ دَعْوَةِ الْكَوَاكِبِ- فَإِنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يُخَاطِبُهُ وَيُحَدِّثُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ رُوحَانِيَّةَ الْكَوَاكِبِ، وَهُوَ شَيْطَانٌ. وَالشَّيْطَانُ وَإِنْ أَعَانَ الْإِنْسَانَ عَلَى بَعْضِ مَقَاصِدِهِ فَإِنَّهُ يَضُرُّهُ أَضْعَافَ مَا يَنْفَعُهُ، وَعَاقِبَةُ مَنْ أَطَاعَهُ إلَى شَرٍّ، إلا أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

---

(١) أخرج البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس ﵄ أنه قال: «صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كانت لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كانت لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سبأ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ من قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ». وانظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٩٨، ٩٩)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٧)، وفتح الباري (٨/ ٦٦٩).

وَكَذَلِكَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ قَدْ تُخَاطِبُهُمْ الشَّيَاطِينُ، وَكَذَلِكَ مَنْ اسْتَغَاثَ بِمَيِّتٍ أَوْ غَائِبٍ، وَكَذَلِكَ مَنْ دَعَا الْمَيِّتَ أَوْ دَعَا بِهِ، أَوْ ظَنَّ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِهِ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْبُيُوتِ وَالْمَسَاجِدِ. وَيَرْوُونَ حَدِيثًا هُوَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَهُوَ: «إِذَا أَعْيَتْكُمْ الْأُمُورُ فَعَلَيْكُمْ بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ»(١). وَإِنَّمَا هَذَا وَضْعُ مَنْ فَتَحَ بَابَ الشِّرْكِ.

وَيُوجَدُ لِأَهْلِ الْبِدَعِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ وَالنَّصَارَى وَالضُّلَّالِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَحْوَالٌ عِنْدَ الْمَشَاهِدِ يَظُنُّونَهَا كَرَامَاتٍ وَهِيَ مِنْ الشَّيَاطِينِ، مِثْلُ: أَنْ يَضَعُوا سَرَاوِيلَ عِنْدَ الْقَبْرِ فَيَجِدُونَهُ قَدْ انْعَقَدَ، أَوْ يُوضَعُ عِنْدَهُ مَصْرُوعٌ فَيَرَوْنَ شَيْطَانَهُ قَدْ فَارَقَهُ.

يَفْعَلُ الشَّيْطَانُ هَذَا لِيُضِلَّهُمْ، وَإِذْ قَرَأْت آيَةَ الْكُرْسِيِّ هُنَاكَ بِصِدْقٍ بَطَلَ هَذَا، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ؛ وَلِهَذَا حُمِلَ بَعْضُهُمْ فِي الْهَوَاءِ فَقَالَ: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ فَسَقَطَ. وَمِثْلُ أَنْ يَرَى أَحَدُهُمْ أَنَّ الْقَبْرَ قَدْ انْشَقَّ وَخَرَجَ مِنْهُ إنْسَانٌ، فَيَظُنُّهُ الْمَيِّتُ وَهُوَ شَيْطَانٌ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لا يَتَّسِعُ لَهُ هَذَا الْمَوْضِعُ.

الشرح:

هذه الجمل أوردها شيخ الإسلام رحمه الله لبيان حال الذين تحصل لهم

(١) قال ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٢١٥): «هذه أحاديث مكذوبة مختلقة وضعها أشباه عباد الأوثان».

خوارق وأن كثيرين من أهل زمانه، بل إن الكثيرين من أهل زماننا لا ينفكون عن أن يكونوا من أهل هذه الصفات، إما أن يدعوا الميت، أو يدعوا به، وإما أن يتخذوا قبره مكانًا للعبادة.

والطرق الصوفية بعامة تعلقت بالقبور، وتعلق المريدون بهذه المشاهد، إما قبور من اتبعوهم من أصحاب المعرفة، مثل ما يُفعل عند قبر عبدالقادر الجيلاني، ومثل ما يُفْعل عند قبور الرؤساء منهم في دمشق وفي مصر... إلى آخره. فهؤلاء صفتهم أنهم يتعلقون بالموتى، واتخذوا قبورهم مساجد وعظموا تلك المشاهد؛ ولهذا ذكر المؤلف أن هؤلاء الذين تحصل لهم الخوارق هم من أهل البدع والشركيات، ومعلوم أن كرامة الله ﷻ لعبده إنما هي للمؤمن المتقي، وأما أهل البدع والشرك فهم إن وقعت لهم خوارق فهي من الشياطين؛ لأنهم يضلونهم بغير علم. **وقد ذكر ثلاثة صور:**

الأولى: أن يدعو الميت، بأنواع الدعاء: إما بالاستغاثة به، فيقول: يا ولي الله أغثني، أو انجدني أنا في كفايتك، أو أنا في كنفك، أعني على هذا الأمر، وأنا في غياثك يا غياث المستغثين، ونحو ذلك مما هو دعوة لغير الله ﷻ، فيما هو من اختصاص الرب ﷻ.

الثانية: أن يدعو بالميت، والدعاء بالميت له صور منها:

الصورة الأولى للدعاء بالميت: أن يسأل الله بذات الميت، يقول: أسألك ربي بفلان الميت، بالبدوي، أو بعبد القادر، أو بالعيدروس، وأشباه ذلك، هذا إذا سأل بالميت ويظن السائل أنه يحصل له حين ذلك قبول لسؤاله، وتحصل له أحوال عند القبر. والسؤال بفلان هذا وسيلة من وسائل الشرك، وبدعة وخيمة، فلا يجوز لأحد أن يبتدع هذه البدعة،

ولا أن يعمل بها، لا أن يسأل بفلان كائنًا من كان، ولو كان برسول الله ﷺ، فلا يقول: أسألك بنبيك، أسألك بأبي بكر، أسألك بأهل بدر، أسألك بالولي فلان. هذا كله بدعة، ووسيلة إلى الشرك.

الصورة الثانية للدعاء بالميت: أن يتوسل بما يظنه من منزلة الميت، يقول: أتوسل إليك ربي بحق فلان الولي عليك، أتوسل إليك بعمله الصالح، أتوسل إليك بحرمته عندك، بجاهه عندك، ونحو ذلك، هذه كلها داخلة في الدعاء به، وهي بدعة، ووسيلة إلى الشرك.

الثالثة: الدعاء عند القبور للميت، فإن الدعاء عند القبور يكون للميت، وقد يدخل الحي فيه تبعًا، فالشرع جاء بالزيارة الشرعية للقبر، والدعاء عند القبر للمقبور لا للحي، وقد يدخل الحي تبعًا في الدعاء، كأن يقول الحي للميت: اللهم ارحم المستقدمين منا والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية، أو يقول: اللهم اغفر لأصحاب القبور، ونور عليهم قبورهم، واغفر لنا ولهم، فيكون دعاؤه لنفسه أتى تبعًا؛ لأجل الدعاء للمؤمنين بعامة من أهل القبور، فيدخل هو تبعًا لا استقلالًا، أما أن يُخص موقع القبر أو المقبرة للدعاء للحي، أو يدعو لنفسه فهذا من البدع المحدثة، وهو وسيلة إلى تعظيم القبور، والعبادة عندها.

هذه الصفات الثلاث موجودة عند أهل التصوف، وأهل الغلو في الأولياء؛ حتى قال قائلهم في قبر معروف الكرخي[1] العابد المشهور: قبر معروف الترياق المجرب[2]، يعني إن أعياه شيء، وأراد الاستشفاء من

---

(١) سبقت ترجمته (ص٢٣٥).

(٢) انظر: مرآة الجنان (١/ ٤٦٠)، وتاريخ بغداد (١/ ١٢٢)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٣)

الأمراض البدنية، أو كان عليه ذنوب، أو أراد شيئًا لدينه أو دنياه فعليه بقبر معروف، فإنه الترياق المجرب، يعني أن يدعى معروف، أو أن يُسأل به أو أن يُدعى عند قبره، كل هذه الصور حاصلة، وإذا كانت هذه الصور من البدع والمحدثات، وبعضها بدعة كفرية شركية.

فمعلوم أن الشياطين تساعد أهل البدع، وتساعد أهل الشرك كما ساعدت أوائلهم فإن أول الشرك - كما ذكر - هو قصة قوم نوح في عبادة ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، فلما عبدوهم أغوتهم الشياطين، وصار عندهم أحوال وآراء وكلام، وتنطق الشياطين، وربما خرج من القبر وتصور بصورته، وتكلمت الصورة إلى غير ذلك، مما ذكر؛ لهذا جاء في هذه الشريعة النهي الشديد عن اتخاذ القبور مساجد: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[1]، وإنَّ من اتخذ القبر مسجدًا، فصلى عنده أو دعا عنده واختصه بذلك؛ فإن هذا مبتدع وملعون، فكيف بمن عبد صاحب القبر واستغاث به؟ فإن هذا أعظم: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» هذه وصية قالها ﷺ في آخر حياته، وصية أوصى بها الأمة وحذرها من ذلك، فإذا كان هؤلاء من أهل الشرك والبدع والخرافات؛ فإنهم يحصل لهم خوارق، وهذه الخوارق من الشياطين، ليست كرامات.

فإذًا لا بد أن يكون ثم فرق بين الكرامة والخارق الشيطاني، فالكرامة مع المؤمن التقي المتبع للسنة، أما الخارق الشيطاني فهذا يحصل لكل من تولى الشيطان؛ تولاه بطاعته في الشرك وفي البدع والخرافات وفي التعلق بغير

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٤٢).

الله ﷻ. إذا تبين ذلك فإن أصحاب الطرق الصوفية في زمن شيخ الإسلام كان عندهم هذا النوع من التعلقات: التعلق بالقبور، والتعلق بالأوثان، والتعلق بالأولياء، وكان عندهم اعتقاد في شيوخهم، حتى إنهم يعتقدون فيهم أنهم يعلمون ما في النفس حتى ولو بَعُدَ؛ كما قال قائلهم لمريديه: إذا هممت بمعصية فتذكر أني أعلم حالك. وهذا لا شك من ادعاء ما ليس له، وبه حصل التعلقات؛ لأنها تربية غير شرعية، فهو وإن كان نطق بها الأول يريد تخويفه ويريد تربيته، لكن هذا ادعاء بشيء من أمور الغيب والعياذ بالله، لهذا حصل من التربية الباطلة السلوكية، الشرك والبدع وأنواع من الضلالات.

المقصود من هذا أن المكلف الذي يتعلق بهذه البدع - بالقبور، ودعاء أصحابها، وبالبناء على القبور، وبهذه المشاهد الشركية، أو بسؤال أصحابها، أو السؤال بهم أو الدعاء، واختصاص القبور بمزيد مزية - هؤلاء قد تخدمهم الشياطين، وقد تظهر له من القبر، ويُسْمِعُ صوتُ المدفون، وهو يسمع صوته من مشايخه، ويخبره بأشياء فعلها هو، فعلت في بيتك كذا، وهذا يبقى متعلقًا بها وهو لا يدري؛ لأن حقيقة الحال أن هذا شيطان، والجن يروننا من حيث لا نراهم؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]. فالشيطان ولي لغير المؤمن ينصره، ويساعده، ويضله؛ لهذا ينبغي على الناظر في مثل هذه الأحوال، أو الذي يناظر من يذكر مثل هذه الأحوال إلا يبادر بإنكار وقوعها، فيقول لمناظره: مثل هذا يقع، قد يكلمك الميت! وقد تسمع أصواتًا، وقد يُخبر فلان بالمغيبات، لكن الذي يخبره بهذه الأشياء ويحصل له هذه الخوارق إنما هي الشياطين؛ لأنها تتولى أهل البدع والشرك،

والشيطان يريد من العباد أن يقعوا في الشرك والبدع التي هي وسائل، وهي طريق الشرك وبريد الشرك؛ ولذلك يعينه الشيطان، فيؤول له الأمر أن هذا من فعل الشياطين، فلا ينكر وقوعه، وأنه وقع وشوهد لكنه يكون خارقًا شيطانيًا، وليست كرامة. فالفرق بين الكرامة وبين الأحوال الشيطانية ظاهر، وهي أن الكرامة يؤتاها المؤمن التقي: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، فالولي هو المؤمن المتقي، قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٤]، فأولئك لهم البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشرى الكرامات التي قد تحصل لبعض عباد الله. أما من ليس على الإيمان، والتقوى، والسنة، من أهل البدع والشركيات، فهذا تحصل له خوارق، ولكن ليست بكرامات، إنما هي خوارق شيطانية، إما من جهة القدرة، أو من جهة الغنى، أو من جهة العلم، يحصل لهم خوارق عجيبة - مثل ما ذكر - مثل أن يقف في الهواء، ولما قال لا إله إلا الله ذهب الشيطان الذي يحمله فسقط، ومثل أن يعلم ما في البطن، ومثل أن يغيث في وقت الحاجة، ويكلمهم ويخبرهم بأشياء مخفية، كل هذه من فعل الشياطين، والإنسان يعلم قصوره، وأنه لا يعلم الغيب قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥].

والخوارق الشيطانية لا تنسب إليهم بعد الممات؛ ولذلك نقول هي تحصل لهم في الحياة، أما بعد الممات فليس له؛ لأنه قد مات، ولكن الشيطان يُضل به، ليس خارقًا له لكن يُضل به، مثل ما يحصل عند القبور... إلى آخره.

وأما الكرامة فإن العبد المؤمن قد يكرم بعد مماته، يكرم في أحبابه فيمن يعطف عليهم، فيمن يرحمهم، مثل ما أكرم الله ﷻ به أمة محمد ﷺ بعد وفاته من أشياء ذكرت، فهذا من أجل محبته ﷺ لهم، ومثل إكرام الله ﷻ للعبد الصالح الذي يموت، فيصلح الله ﷻ عقبه، ويحفظ لهم دينهم وأموالهم. . . إلى آخره؛ كما جاء في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، يعني: بسبب صلاح الآباء أكرم الأبناء.

فإذًا بعد الممات في الواقع لا يُنسب الخارق ولا الإكرام للميت، وإنما يقال: الشياطين فعلت، أو أكرم الله ﷻ فلانا بعد وفاته بصلاح أبنائه. . إلى آخره، أما الميت فلا يحصل له كرامة في نفسه بما يراه الأحياء، فكرامته عند ربه ﷻ. والسؤال بالذات أعظم وسيلة للشرك من السؤال بالجاه، أو بالعمل، أو بجاه فلان، والصوفية عندهم كتب السؤال، ومنظومات في السؤال بالذوات، مثل منظومة اسمها: (**جالية الكدر في السؤال بأهل بدر**)، منظومة كل بيت منها السؤال بواحد من الصحابة من أهل بدر، فالصوفية يعظمون السؤال بالموتى كثيرًا، فالسؤال بالذات أعظم وسيلة للشرك، والسؤال بالجاه والحق أقل منه، لكن كلها بدع ووسائل للشرك، وهي طريق لتعظيمهم، هي ليست شركًا، هي بدعة واعتداء في الدعاء؛ لأنها لم يأت بها دليل من كتاب ولا سنة، وهي وسيلة إلى أن يعظم المسؤول به فيُسأل من دون الله.

أول ما حدث كان السؤال بالذوات، قبل ما يحصل دعاء غير الله مباشرة كان السؤال بالذوات، نسألك بفلان وبفلان، كثر هذا، ثم حصل الشرك وسؤال الميت في نفسه - نسأل الله العافية - لهذا تجد أن شيخ الإسلام في

بعض المواضع يسمي سؤال الميت للشفاعة بدعة، والسؤال به بدعة؛ وذلك لأنها لم تكن عند المشركين، حتى طوائف مشركي العرب لا تعرف الاستشفاع به مباشرة، يعني لا يقول: اشفع لي، لكنهم يعبدون ليشفعوا، لكن اشفع لي يا فلان، اشفع لي يا لات، اشفع لي يا عزى، هذه لا توجد عندهم، يعبدون ويتقربون ليشفعوا، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فهم يرومون منها الشفاعة، لذلك سماها بدعة في بعض المواضع؛ لأنها بدعة حدثت وليست سابقة، وهي بدعة كفرية شركية، مثل الشرك، فهي محرمة قال ﷻ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وإذا قيل: بدعة، فهذا لا يعني أنها ليست بشرك، بل تكون شركًا أكبر، وبدعة باعتبار أنها حدثت في الأمة، فالبدع منها بدع كفرية شركية مخرجة من الملة، ومنها بدع دون ذلك، لكن في التتبع العام لأهل العلم نجد الذي يجري ومشهور أن يختص البدعة بما دون الشرك، وإذا كانت المسألة شركًا أكبر نقول: شرك أكبر مخرج من الملة، أو شرك أصغر، أو نحو ذلك.

وَلَمَّا كَانَ الِانْقِطَاعُ إِلَى الْمَغَارَاتِ وَالْبَوَادِي مِنْ الْبِدَعِ الَّتِي لَمْ يُشَرِّعْهَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ صَارَتْ الشَّيَاطِينُ كَثِيرًا مَا تَأْوِي إِلَى الْمَغَارَاتِ وَالْجِبَالِ، مِثْلِ: مَغَارَةِ الدَّمِ الَّتِي بِجَبَلِ قاسيون، وَجَبَلِ لُبْنَانَ الَّذِي بِسَاحِلِ الشَّامِ، وَجَبَلِ الْفَتْحِ بِأَسْوَانَ بِمِصْرِ، وَجِبَالٍ بِالرُّومِ وَخُرَاسَانَ، وَجِبَالٍ بِالْجَزِيرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَجَبَلِ اللِّكَام، وَجَبَلِ الأحيش، وَجَبَلِ سولان قُرْبَ أردبيل، وَجَبَلِ شُهْنَك عِنْدَ تَبْرِيزَ، وَجَبَلِ ماشكو عِنْدَ أَقَشْوَان، وَجَبَلِ نَهَاوَنْدَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْجِبَالِ الَّتِي يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ بِهَا رِجَالًا مِنْ الصَّالِحِينَ مِنْ الْإِنْسِ وَيُسَمُّونَهُمْ رِجَالَ الْغَيْبِ، وَإِنَّمَا هُنَاكَ رِجَالٌ مِنْ الْجِنِّ، فَالْجِنُّ رِجَالٌ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَ رِجَالٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَظْهَرُ بِصُورَةِ رَجُلٍ شعراني، جِلْدُهُ يُشْبِهُ جِلْدَ الْمَاعِزِ، فَيَظُنُّ مَنْ لا يَعْرِفُهُ أَنَّهُ إنْسِيٌّ وَإِنَّمَا هُوَ جِنِّيٌّ، وَيُقَالُ: بِكُلِّ جَبَلٍ مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ الْأَرْبَعُونَ الْأَبْدَالُ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُظَنُّ أَنَّهُمْ الْأَبْدَالُ هُمْ جِنٌّ بِهَذِهِ الْجِبَالِ، كَمَا يُعْرَفُ ذَلِكَ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَة.

وَهَذَا بَابٌ لا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِبَسْطِهِ وَذِكْرِ مَا نَعْرِفُهُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا مِنْ ذَلِكَ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ فِي هَذَا الْمُخْتَصَرِ، الَّذِي كُتِبَ لِمَنْ سَأَلَ أَنْ نَذْكُرَ لَهُ مِنْ الْكَلَامِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُعْرَفُ بِهِ جُمَلُ ذَلِكَ.

وَالنَّاسُ فِي خَوَارِقِ الْعَادَاتِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ يُكَذِّبُ بِوُجُودِ ذَلِكَ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَرُبَّمَا صَدَّقَ بِهِ مُجْمَلًا وَكَذَّبَ مَا يُذْكَرُ لَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ؛ لِكَوْنِهِ عِنْدَهُ لَيْسَ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ نَوْعٌ مِنْ خَرْقِ الْعَادَةِ كَانَ وَلِيًّا لِلَّهِ. وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ خَطَأٌ؛ وَلِهَذَا تَجِدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَذْكُرُونَ أَنَّ لِلْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ نُصَرَاءَ يُعِينُونَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ.

وَأُولَئِكَ يُكَذِّبُونَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ مَنْ لَهُ خَرْقُ عَادَةٍ.

وَالصَّوَابُ: الْقَوْلُ الثَّالِثُ، وَهُوَ: أَنَّ مَعَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ لا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ﷻ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وَهَؤُلَاءِ الْعُبَّادُ وَالزُّهَّادُ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ، فَيَكُونُ لِأَحَدِهِمْ مِنْ الْخَوَارِقِ مَا يُنَاسِبُ حَالَهُ، لَكِنَّ خَوَارِقَ هَؤُلَاءِ يُعَارِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِذَا حَصَلَ مَنْ لَهُ تَمَكُّنٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَبْطَلَهَا عَلَيْهِمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِهِمْ مِنْ الْكَذِبِ جَهْلًا أَوْ عَمْدًا، وَمِنْ الْإِثْمِ مَا يُنَاسِبُ حَالَ الشَّيَاطِينِ الْمُقْتَرِنَةِ بِهِمْ؛ لِيُفَرِّقَ اللَّهُ بِذَلِكَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَبَيْنَ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ

عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] وَالْأَفَّاكُ: الْكَذَّابُ، وَالْأَثِيمُ: الْفَاجِرُ.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُقَوِّي الْأَحْوَالَ الشَّيْطَانِيَّةَ سَمَاعُ الْغِنَاءِ وَالْمَلَاهِي، وَهُوَ سَمَاعُ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما وَغَيْرُهُمَا مِنَ السَّلَفِ: التَّصْدِيَةُ: التَّصْفِيقُ بِالْيَدِ، وَالْمُكَاءُ: مِثْلُ الصَّفِيرِ[1]. فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَّخِذُونَ هَذَا عِبَادَةً.

وَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فَعِبَادَتُهُمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَالِاجْتِمَاعَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَمْ يَجْتَمِعِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عَلَى اسْتِمَاعِ غِنَاءٍ قَطُّ، لا بِكَفٍّ وَلَا بِدُفٍّ وَلَا تَوَاجُدٍ وَلَا سَقَطَتْ بُرْدَتُهُ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِحَدِيثِهِ[2].

وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا اجْتَمَعُوا أَمَرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ وَالْبَاقُونَ يَسْتَمِعُونَ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: ذَكِّرْنَا رَبَّنَا. فَيَقْرَأُ وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ[3]، وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَهُوَ يَقْرَأُ، فَقَالَ لَهُ: «مَرَرْت بِك الْبَارِحَةَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ فَجَعَلْت أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِك» فَقَالَ: لَوْ عَلِمْت أَنَّك

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٥٢٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٧ - ٣٠٨).
(٢) سبق بيان كذب هذه الحكاية (ص٥١).
(٣) أخرجه ابن حبان (٧١٩٦)، والدارمي (٢/ ٥٦٤)، وعبد الرزاق في المصنف (٢/ ٤٨٦)

تَسْتَمِعُ لَحَبَّرْته لَك تَحْبِيرًا[1]. أَيْ: لَحَسَّنْته لَك تَحْسِينًا. كَمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»[2]، وَقَالَ ﷺ: «لَلَّهُ أَشْهَدُ أُذُنًا - أَيْ اسْتِمَاعًا - إلَى الرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إلَى قَيْنَتِهِ»[3]، وَقَالَ ﷺ لِابْنِ مَسْعُودٍ: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ»، فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْك وَعَلَيْك أُنْزِلَ؟ فَقَالَ: «إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فَقَرَأْت عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى انْتَهَيْت إلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: «حَسْبُك»، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ مِنْ الْبُكَاءِ[4].

وَمِثْلُ هَذَا السَّمَاعِ هُوَ سَمَاعُ النَّبِيِّينَ وَأَتْبَاعِهِمْ، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨]. وَقَالَ فِي أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وَمَدَحَ سُبْحَانَهُ أَهْلَ هَذَا السَّمَاعِ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَاقْشِعْرَارِ الْجِلْدِ وَدَمْعِ الْعَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧١٩٧)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٢)، وأصله في البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، وابن ماجه (١٣٤٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٣٤٠)، وأحمد (٦/ ١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وَأَمَّا السَّمَاعُ الْمُحْدَثُ - سَمَاعُ الْكَفِّ وَالدُّفِّ وَالْقَصَبِ - فَلَمْ تَكُنْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرُ الْأَكَابِرِ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ يَجْعَلُونَ هَذَا طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا يَعُدُّونَهُ مِنْ الْقُرَبِ وَالطَّاعَاتِ؛ بَلْ يَعُدُّونَهُ مِنْ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ، حَتَّى قَالَ الشَّافِعِيُّ: خَلَّفْت بِبَغْدَادَ شَيْئًا أَحْدَثَتْهُ الزَّنَادِقَةُ يُسَمُّونَهُ التَّغْبِيرَ، يَصُدُّونَ بِهِ النَّاسَ عَنْ الْقُرْآنِ[1].

---

(١) انظر: هذا الأثر في سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٩١) في ترجمة الشافعي رحمه الله.
وفي لسان العرب (٥/ ٥) قال الأزهري: «**وقد سموا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله تغبيرًا، كأنهم إذا تناشدوه بالألحان طربوا، فرقصوا، وأرهجوا، فسموا مغبرة لهذا المعنى**». قال الأزهري: وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: أرى الزنادقة وضعوا هذا التغبير ليصدوا عن ذكر الله، وقراءة القرآن وقال الزجاج: سموا مغبرين لتزهيدهم الناس في الفانية وهي الدنيا وترغيبهم في الآخرة الباقية.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في مجموع الفتاوى (١١/ ٥٧٦) «التغبير هو الضرب بالقضيب على جلد من الجلود وهو ما يغبر صوت الانسان على التلحين، فقد يضم إلى صوت الانسان إما التصفيق بأحد اليدين على الأخرى وإما الضرب بقضيب على فخذ، وجلد، وإما الضرب باليد على أختها، أو غيرها على دف، أو طبل كناقوس النصارى، والنفخ فى صفارة كبوق اليهود، فمن فعل هذه الملاهى على وجه الديانة والتقرب فلا ريب فى ضلالته وجهالته».

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْعَارِفُونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَصِيبًا وَافِرًا؛ وَلِهَذَا تَابَ مِنْهُ خِيَارُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْهُمْ.

وَمَنْ كَانَ أَبْعَدَ عَنْ الْمَعْرِفَةِ وَعَنْ كَمَالِ وِلَايَةِ اللَّهِ كَانَ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْهُ أَكْثَرَ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْخَمْرِ يُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ أَعْظَمَ مِنْ تَأْثِيرِ الْخَمْرِ، وَلِهَذَا إذَا قَوِيَتْ سَكْرَةُ أَهْلِهِ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ، وَتَكَلَّمَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ بَعْضِهِمْ، وَحَمَلَتْ بَعْضَهُمْ فِي الْهَوَاءِ، وَقَدْ تَحْصُلُ عَدَاوَةٌ بَيْنَهُمْ كَمَا تَحْصُلُ بَيْنَ شُرَّابِ الْخَمْرِ، فَتَكُونُ شَيَاطِينُ أَحَدِهِمْ أَقْوَى مِنْ شَيَاطِينِ الْآخَرِ فَيَقْتُلُونَهُ، وَيَظُنُّ الْجُهَّالُ أَنَّ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، وَإِنَّمَا هَذَا مُبْعِدٌ لِصَاحِبِهِ عَنْ اللَّهِ، وَهُوَ مِنْ أَحْوَالِ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّ قَتْلَ الْمُسْلِمِ لا يَحِلُّ إلا بِمَا أَحَلَّهُ اللَّهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ قَتْلُ الْمَعْصُومِ مِمَّا يُكْرِمُ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ؟! وَإِنَّمَا غَايَةُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الاسْتِقَامَةِ، فَلَمْ يُكْرِمْ اللَّهُ عَبْدًا بِمِثْلِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَيَزِيدُهُ مِمَّا يُقَرِّبُهُ إلَيْهِ وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَتَهُ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْخَوَارِقَ مِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْعِلْمِ كَالْمُكَاشَفَاتِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْقُدْرَةِ وَالْمُلْكِ كَالتَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْغِنَى عَنْ جِنْسِ مَا يُعْطَاهُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْعِلْمِ وَالسُّلْطَانِ وَالْمَالِ وَالْغِنَى.

وَجَمِيعُ مَا يُؤْتِيهِ اللَّهُ لِعَبْدِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَيُقَرِّبُهُ إلَيْهِ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَهُ وَيَأْمُرُهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، ازْدَادَ بِذَلِكَ رِفْعَةً وَقُرْبًا إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ، وَإِنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ كَالشِّرْكِ وَالظُّلْمِ

وَالْفَوَاحِشِ، اسْتَحَقَّ بِذَلِكَ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ، فَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَوْبَةٍ أَوْ حَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ وَإِلَّا كَانَ كَأَمْثَالِهِ مِنَ الْمُذْنِبِينَ؛ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يُعَاقَبُ أَصْحَابُ الْخَوَارِقِ تَارَةً بِسَلْبِهَا، كَمَا يُعْزَلُ الْمَلِكُ عَنْ مُلْكِهِ، وَيُسْلَبُ الْعَالِمُ عِلْمَهُ، وَتَارَةً بِسَلْبِ التَّطَوُّعَاتِ، فَيُنْقَلُ مِنَ الْوِلَايَةِ الْخَاصَّةِ إِلَى الْعَامَّةِ، وَتَارَةً يَنْزِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْفُسَّاقِ، وَتَارَةً يَرْتَدُّ عَنِ الْإِسْلَامِ. وَهَذَا يَكُونُ فِيمَنْ لَهُ خَوَارِقُ شَيْطَانِيَّةٌ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ يَرْتَدُّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لا يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ شَيْطَانِيَّةٌ، بَلْ يَظُنُّهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَيَظُنُّ مَنْ يَظُنُّ مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا أَعْطَى عَبْدًا خَرْقَ عَادَةٍ لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَى ذَلِكَ، كَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ [إذَا] أَعْطَى عَبْدًا مُلْكًا وَمَالًا وَتَصَرُّفًا لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِينُ بِالْخَوَارِقِ عَلَى أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لا مَأْمُورًا بِهَا وَلَا مَنْهِيًّا عَنْهَا، فَهَذَا يَكُونُ مِنْ عُمُومِ الْأَوْلِيَاءِ، وَهُمُ الْأَبْرَارُ الْمُقْتَصِدُونَ، وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَأَعْلَى مِنْ هَؤُلَاءِ، كَمَا أَنَّ الْعَبْدَ الرَّسُولَ أَعْلَى مِنَ النَّبِيِّ الْمَلِكِ.

الشرح:

ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هنا عدة مسائل:

المسألة الأولى: أن طائفةً ممن تحصل لهم الخوارق تعبدوا بعبادات بدعية، مثل الانقطاع والذهاب إلى المغارات، والجبال، والبراري، والفلوات، يتأملون ويتعبدون، وينقطعون عن الناس، فتجد أن طائفة منهم يأوون إلى الغيران أو إلى الأودية، ويلبسون ملابس الحيوانات يعني صوف الحيوانات ونحو ذلك، رغبة في التقشف والبعد عن الملذات، وأيضًا رغبة

في التفكر، ولا شك أن هذه الطريقة لتحصيل الإيمان طريقة بدعية مذمومة فالنبي ﷺ لم يأمر بها بعد نزول الوحي عليه، وإنما كان يتعبد في الغار - يعني: في حراء - الليالي ذوات العدد[١]، قبل نزول الوحي عليه، فلما نزل الوحي عليه ونبئ ربما أتى الغار ثم لما بعث للناس ترك ذلك ﷺ، بل أمر بمخالطة الناس، والصبر على أذاهم، فقال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[٢].

فإذًا التخلي في مثل هذه الطرق والانفراد يضم هذا المحظور، ويضم محظورًا آخر وهو أن فاعله يسير وحده، ويبيت وحده، ويأوي إلى هذه الغيران وحده، وهذه أشياء يأتي معها الشياطين؛ كما قال ﷺ: «**الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ**»[٣]، فهؤلاء لما أووا إلى هذه المغارات، وتعبدوا هذه العبادات البدعية جاءتهم الشياطين، فذكر أحوالهم، وذكر أنواع ما يحصل في الجبال... إلى آخره، وهؤلاء تأتيهم أحوال كلامية، يعني: يسمعون من يكلمهم، ومن يحضر لهم الغذاء، بكلام رجال تارة تكون في صور رجال لا يعلمونهم، وهذه أنواع سمتها الصوفية: رجال الغيب. يعني: الرجال الذين لا يُعرفون، ويأتون لخدمة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وأحمد (٢/ ٤٣)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٨٩)، والطيالسي في مسنده (١٨٧٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٠٧)، والترمذي (١٦٧٤)، وأحمد (٢/ ١٨٦)، وابن خزيمة (٤/ ١٥٢)، والحاكم (٤/ ١١٢)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٥٧).

ونصرة الولي، وهم غائبون لا يُعرف من هم يسمونهم رجال الغيب. كما ذكر شيخ الإسلام أن الرجل إذا انقطع فإن الشياطين تعينه، الذين يعينونه هم رجال الجن، وإذا كان رأى رجلًا فإنه رأى جنيًا، والجن قد يتشكلون في صورة رجل، وقد يسمع صوت رجل إلى آخره. وهذه الآن تقريبًا انقطعت إلا في قلة قليلة جدًا من العالم، لكن مثل هذه الأحوال، والتفكر، والانقطاع في الغيران للتعبد، والنظر، والمحدثات قد انقطعت على هذا النحو.

المسألة الثانية: هي أن الخوارق التي تحصل للناس في التصديق بها والتكذيب ثلاثة أصناف - كما ذكر -:

قسم يُكَذِّبُ مطلقًا، وقسم يصدق مطلقًا، والصواب أنها لا تصدق ولا تكذب، بمعنى أن نقول: ليست هذه كرامة من الله، فهذا جهة التكذيب والواقع حصل، فهذا جهة التصديق ولكنها من جهة الشياطين - والعياذ بالله - .

لما دخل الاستعمار ودخل جنوده المشركون، والكفار، إلى طائفة من بلاد الإسلام في القرون المتأخرة، ورآهم من رآهم من الصوفية، سمى طائفة من الصوفية تلك العساكر الشركية الكفرية: رجال الغيب، يعني: أن هؤلاء الرجال الذين ينصرون الأمة بالغيب، ظانين أنها كرامة، وهذا ولا شك مكن الكفار من بلاد المسلمين، فأعظم من مكن لهم الصوفية الذين تركوا الأمر وقالوا: توكلنا على الله. ولم يفعلوا سببًا، أو قالوا: هؤلاء رجال الغيب الذين يخدمون المؤمنين، وهذا من جراء الاعتقادات الفاسدة الباطلة.

المسألة الثالثة: هي مسألة السماع، والسماع تكلم فيه العلماء من قديم، وكان الناس يتعبدون به في أول ما حدث من جهة ما يُسمى بالتغبير، مثل ما قال الشافعي فيمن أحدث التغبير ببغداد، والتغبير سُمي تغبيرًا؛ لأنهم يأخذون جلودًا قديمة يبست عليها التراب والغبار؛ ولأنهم متقشفون متزهدون - كما يزعمون - فيضربون عليها بالعصا، فتظهر صوتًا كصوت الدف، فيترنمون به مع الأشعار، فسمي الفعل مع الإنشاد تغبيرًا؛ لأنه يظهر معه الغبار. وحقيقة التغبير هي إنشاد الأشعار الزهدية مع استخدام الدفوف، والأشعار الزهدية أحدثتها طائفة من المتزهدة لتنشد في مقابلة الغناء المحرم الذي انتشر في الدولة العباسية، انتشر الغناء المحرم، وانتشرت المعازف في أنواع من الألحان موجودة في الكتب، ومعروفة، فأحدثوا هذا في مقابلة ذاك، وتدرج الأمر إلى أن صاروا يتقربون إلى الله بسماع الدف نفسه، والطبول، والمزمار، ويتقربون إلى الله بذلك، وينشدون الأشعار الزهدية، ويترنمون بهذه الأصوات بأشياء محزنة. ومعلوم أن هذه الآلات قد تستخدم بألحان يكون معها نشوة، وقد تستخدم بألحان يكون معها حزن ورقة، فلهذا هم استخدموها في جانب الحزن، والرقة والبكاء، وأثرت على النفوس، فلما أثرت وبكى من بكى من سماعها، وأثرت في القلوب وفي ترقيقها، ظنوا أن هذا مشروع؛ لأنها أحدثت أمرًا مشروعًا، وهو البكاء والخوف من الله ﷻ، فظنوا أنها وسيلة مشروعة؛ لهذا ألف كثير من أهل العلم في السماع، وفي ذمه، وفي أنه مما أُحدث، في مؤلفات كثيرة معلومة متداولة[1]. ثم آل الأمر بعد زمن أن يصحب هذا السماع رقص، والرقص

---

(١) مثل كتاب نزهة الأسماع في مسألة السماع لابن رجب، وكتاب تحريم آلات الطرب للعلامة الألباني رحمه الله، وكتاب القول المفيد في حكم الأناشيد لعصام المري.

ليس على صفة الرقص الموجود الآن في الصوفية، هو أول ما بدأ رقص وتمايل من التواجد - كما يقولون - والتمايل من جراء أثر هذا السماع، فهو من جهة خوفه ورقته، وترنمه، وانشغاله بهذا السماع، ورقة قلبه أصبح يتمايل، ثم آل الأمر إلى أن أصبح التمايل مقصودًا، إلى أن صار هناك أناس يؤدونه فصارت طقوسًا وشعائر عندهم مع مرور الزمن.

هذه كلها أمور لاشك أنها محدثة أرادوا منها - أي من سماع الأشعار أو المزامير - رقة القلوب، وأرادوا منها الاستعاضة عن سماع المعازف، والسماع الشيطاني، وآل بهم الأمر إلى أن كان سماعًا شيطانيًا، ومعلوم أن السماع الذي يحرك القلوب، ويبعث فيها الإيمان، ويبعث فيها الخوف، والرجاء والمحبة، وأنواع العبادات القلبية، ويثمر العمل، إنما هو سماع القرآن، هذا هو السماع المشروع: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال ﷻ أيضًا: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] من شدة ما سمعوا وتأثُّرهم به.

وكما ذكر لك لما سمع النبي ﷺ قراءة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وحدثه، قال أبو موسى رضي الله عنه له: «**لَوْ عَلِمْت أَنَّك تَسْتَمِعُ لَحَبَّرْته لَكَ تَحْبِيرًا**»، وقال ﷺ: «**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»(١). فالقرآن حجة الله الباقية، وهو في نفسه مؤثر، ولكن أيضًا مطلوب أن يزين القرآن بالصوت؛ لأن الصوت من جهته يحصل نوع تأثير، فالتأثير يكون بالكلام، وبنغمة الصوت؛ ولهذا أوتى داود مزمارًا، فكان داود إذا ترنم كإنما يسمعون مزمارًا، وهذا التلذذ بسماع

---

(١) سبقا (ص٣٧١).

القرآن هو السماع الشرعي الذي تحيا به القلوب، ويقوى به الإيمان، وتعظم أنواع العبادات القلبية في النفس من خوف الله ﷻ وإجلاله وتعظيمه، بأن يُسمع كلام الملك العلام الجبار ﷻ وتقدست أسماؤه. فإذًا هذا السماع هو سماع أهل الإيمان، أما سماع المشركين فهو ما كانوا يفعلون عند البيت: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] يعني: دعاءهم عند البيت كان صفيرًا؛ لأن المكاء في اللغة هو الصفير، مك يعني صفر، والتصدية هي التصفيق، فكانوا يتعبدون بذلك، يصفرون ويصفقون برنة للتأثير على القلب.

والله ﷻ جعل سماع أهل الإيمان سماع القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

فإذًا أنواع السماع التي يُظن أن فيها فوائد من سماع الألحان، بما يكون غير القرآن، هذا كله من المحدثات. ومن جنسه ما حدث في هذا الزمان، والتي يسميها الشباب الأناشيد الإسلامية، التي فيها أعمال الدفوف، أو تحتوي على معنى باطل أو تكون جماعية، هذه كلها من أنواع المحدثات، إذا كان النشيد - الذي هو الشعر - جماعيًا، أو كان معه دف، أو كان مشتملًا على معنى باطل.

أما من جهة العقيدة، من جهة الاستغاثات، أو مخاطبة الموتى، أو من جهة التحميس الباطل، ونحو ذلك، فكل هذه منكرة، وهي شبيهة بألحان وسماع الصوفية؛ ولهذا إنما جاءت الأناشيد من جراء التربية الصوفية لبعض الجماعات الإسلامية.

أما نشيد المرء بمفرده، فلا بأس حتى ذكر العلماء أن المرء لو تغنى في

بيته ببيت شعر أو بيتين من الشعر، وترنم بها، فإن هذا لا بأس به، يعني: إذا كان وحده وكان قليلًا، بمعني أراد أن يرفع صوته بشيء فهذا لا بأس به، يعني أنه ليس بمنكر؛ لأن النفس كما عللوا قد تحتاج.

المقصود أن إنشاد المنشد وحده لقصيدة بلحن، لا بأس به، لكن ما يُستعاض بها، أو يكون سماعًا مقصودًا، يعني يرقق القلوب بها، وتكرر ويصبح ترقيق القلوب بمثل هذه القصائد التي تكرر هذه كلها من جنس سماع الصوفية، وقد تفضي إليه. وسماع المؤمن هو القرآن، لهذا نجد أن الذين انفتحوا على هذه الأشياء، ما يستلذون للقرآن، ومن استلذ للقرآن وأذن له وتلاه أو حفظه، وقام به، فإنه لا يأنس لتلك الأشياء؛ لأن الله ﷻ قذف بالحق على الباطل قال ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

أما الخوف من الرياء عند تحسين الصوت بالقرآن، فإن الرياء بحسب النفس، يعني مثلًا قد أحسن قراءتي بالقرآن؛ لأجل أن يُقال: قراءته جيدة، فهذا رياء.

وقد أحسن قراءتي بالقرآن، وأتباكى، وأبكي؛ لأجل أن يتأثر السامع، وهذا مشروع لقوله ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا وَتَغَنَّوْا بِهِ فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا**»(١)، ولقوله ﷺ: «**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»(٢)، فمدار الحكم على النية. وأبو موسى الأشعري رضي الله عنه

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٧)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٣١)، وأبو يعلى في مسنده (٦٨٩).

(٢) سبق (ص٣٧١).

يريد أن تكون قراءته أعظم تأثيرًا للنبي ﷺ؛ لأنه إذا كان حدث للنبي ﷺ خشوع وتعظيم وعبادة حين سماعه لأبي موسى رضي الله عنه، فله هو أجره، فهو يريد هذا الأجر العظيم، الذي حصل بسببه لأفضل الخلق ﷺ. وكلامنا فيمن اتخذ السماع عبادة، أما الذي يسمع للهو، يسمع المعازف لغير العبادة، فالمعازف معروف الكلام عليها، والغناء الذي تصحبه، معازف وألحان، والله المستعان - والغناء سُكر -، مثل ما ذكر شيخ الإسلام، الغناء يحدث سكرًا.

والسكر يحصل بثلاثة أشياء: بالهوى يعني: هوى الرجل للمرأة، وبالغناء، وبالخمر، فإذا اجتمعت الثلاثة سَكَرَ - والعياذ بالله - من جميع الجهات، يعني: سكر عقله، وسكر بدنه... إلى آخره، إذا كان هوى فهو يسكر، فإن الهوى يغطي العقل عن إدراك الصواب، وكذلك استدامه والأنس له - الغناء المحرم والمعازف المحرمة - يحدث لصاحبه سكرًا، فهذه أنواع السكر إذا اجتمعت غطى على عقل صاحبها، يعني: صار في أقبح أنواع السكر، والعياذ بالله.

أذكر أن أول أناشيد جاءتنا في حدود عام ١٣٩٦ هـ أو ١٣٩٧ هـ، أذكرها وكانت تباع في تسجيلات بالبطحاء، تباع خفية، وما تعطى لكل أحد، ويكفي هذا؛ لأنها منكرة، وهم يعرفون أنها منكرة، ثم بعد ذلك، بدأت تمارس في بعض المعاهد والأندية الصيفية، حتى ألفها الناس، وكان معها الطبل، ثم جاءت أشياء ليس معها طبل، وتوسعوا فيها إلى أن صارت أغاني متنوعة - والله المستعان - وقد يُحتاج إليها للصغير في السن دون التكليف، وقد يُحتاج إليها لشخص انتقل من الغناء، وهذه حالات تقدر

بقدرها، يقدرها العالم أو المفتي أو المربي بقدرها، وعلى حدودها. لكن أن تكون منهجًا أو تكون عامة لا شيء فيها، فهذا لا يصح، لكن الأصل فيها أنها منكرة والاجتماع عليها أيضا منكر.

وَلَمَّا كَانَتْ الْخَوَارِقُ كَثِيرًا مَا تَنْقُصُ بِهَا دَرَجَةُ الرَّجُلِ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الصَّالِحِينَ يَتُوبُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى كَمَا يَتُوبُ مِنْ الذُّنُوبِ: كَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ، وَتَعْرِضُ عَلَى بَعْضِهِمْ فَيَسْأَلُ اللَّهَ زَوَالَهَا، وَكُلُّهُمْ يَأْمُرُ الْمُرِيدَ السَّالِكَ أَنْ لا يَقِفَ عِنْدَهَا وَلَا يَجْعَلَهَا هِمَّتَهُ وَلَا يَتَبَجَّحَ بِهَا؛ مَعَ ظَنِّهِمْ أَنَّهَا كَرَامَاتٌ، فَكَيْفَ إذَا كَانَتْ بِالْحَقِيقَةِ مِنْ الشَّيَاطِينِ تُغْوِيهِمْ بِهَا، فَإِنِّي أَعْرِفُ مَنْ تُخَاطِبُهُ النَّبَاتَاتُ بِمَا فِيهَا مِنْ الْمَنَافِعِ، وَإِنَّمَا يُخَاطِبُهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي دَخَلَ فِيهَا، وَأَعْرِفُ مَنْ يُخَاطِبُهُمْ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ وَتَقُولُ: هَنِيئًا لَك يَا وَلِيَّ اللَّهِ، فَيَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ.

وَأَعْرِفُ مَنْ يَقْصِدُ صَيْدَ الطَّيْرِ فَتُخَاطِبُهُ الْعَصَافِيرُ وَغَيْرُهَا، وَتَقُولُ: خُذْنِي حَتَّى يَأْكُلَنِي الْفُقَرَاءُ، وَيَكُونُ الشَّيْطَانُ قَدْ دَخَلَ فِيهَا كَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِنْسِ وَيُخَاطِبُهُ بِذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الْبَيْتِ وَهُوَ مُغْلَقٌ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجَهُ وَهُوَ لَمْ يُفْتَحْ وَبِالْعَكْسِ، وَكَذَلِكَ فِي أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ وَتَكُونُ الْجِنُّ قَدْ أَدْخَلَتْهُ وَأَخْرَجَتْهُ بِسُرْعَةٍ، أَوْ تَمُرُّ بِهِ أَنْوَارٌ، أَوْ تُحْضِرُ عِنْدَهُ مَنْ يَطْلُبُهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ الشَّيَاطِينِ يَتَصَوَّرُونَ بِصُورَةِ صَاحِبِهِ، فَإِذَا قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ذَهَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ.

وَأَعْرِفُ مَنْ يُخَاطِبُهُ مُخَاطِبٌ وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَيَعِدُهُ بِأَنَّهُ الْمَهْدِيُّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَيَظْهَرُ لَهُ الْخَوَارِقُ، مِثْلُ: أَنْ يَخْطُرَ بِقَلْبِهِ تَصَرُّفٌ فِي الطَّيْرِ وَالْجَرَادِ فِي الْهَوَاءِ، فَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ ذَهَابُ الطَّيْرِ أَوْ الْجَرَادِ يَمِينًا أَوْ شَمَالًا ذَهَبَ حَيْثُ أَرَادَ، وَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ قِيَامُ بَعْضِ الْمَوَاشِي أَوْ نَوْمُهُ أَوْ ذَهَابُهُ حَصَلَ لَهُ مَا

أَرَادَ، مِنْ غَيْرِ حَرَكَةٍ مِنْهُ فِي الظَّاهِرِ، وَتَحْمِلُهُ إِلَى مَكَّةَ وَتَأْتِي بِهِ، وَتَأْتِيه بِأَشْخَاصٍ فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ وَتَقُولُ لَهُ: هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ الكروبيون[1] أَرَادُوا زِيَارَتَك، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: كَيْفَ تَصَوَّرُوا بِصُورَةِ الْمُرْدَانِ؟! فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَجِدُهُمْ بِلِحَى، وَيَقُولُ لَهُ: عَلَامَةُ إِنَّك أَنْتَ الْمَهْدِيُّ إِنَّك تَنْبُتُ فِي جَسَدِك شَامَةٌ، فَتَنْبُتُ وَيَرَاهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَكُلُّهُ مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ.

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَوْ ذَكَرْت مَا أَعْرِفُهُ مِنْهُ لَاحْتَاجَ إِلَى مُجَلَّدٍ كَبِيرٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٦].

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّاۖ﴾ وَلَفْظُ (كَلَّا) فِيهَا زَجْرٌ وَتَنْبِيهٌ: زَجْرٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى مَا يُخْبَرُ بِهِ وَيُؤْمَرُ بِهِ بَعْدَهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ حَصَلَ لَهُ نِعَمٌ دُنْيَوِيَّةٌ تُعَدُّ كَرَامَةً يَكُونُ اللَّهُ ﷻ مُكْرِمًا لَهُ بِهَا، وَلَا كُلُّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ يَكُونُ مُهِينًا لَهُ بِذَلِكَ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَقَدْ يُعْطِي النِّعَمَ الدُّنْيَوِيَّةَ لِمَنْ لا يُحِبُّهُ، وَلا هُوَ كَرِيمٌ عِنْدَهُ؛ لِيَسْتَدْرِجَهُ بِذَلِكَ، وَقَدْ يَحْمِي مِنْهَا مَنْ يُحِبُّهُ وَيُوَالِيه؛ لِئَلَّا تَنْقُصَ بِذَلِكَ مَرْتَبَتُهُ عِنْدَهُ، أَوْ يَقَعَ بِسَبَبِهَا فِيمَا يَكْرَهُهُ مِنْهُ.

وَأَيْضًا كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهَا الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى، فَمَا كَانَ سَبَبُهُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ فَهُوَ مِنْ خَوَارِقِ أَعْدَاءِ اللَّهِ لا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، فَمَنْ كَانَتْ خَوَارِقُهُ لا تَحْصُلُ

---

(١) الكروبيون هم الملائكة المسبحون حملة العرش. انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٨٩).

بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَالدُّعَاءِ، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ عِنْدَ الشِّرْكِ: مِثْلُ دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالْغَائِبِ، أَوْ بِالْفِسْقِ وَالْعِصْيَانِ، وَأَكْلِ الْمُحَرَّمَاتِ: كَالْحَيَّاتِ وَالزَّنَابِيرِ وَالْخَنَافِسِ وَالدَّمِ وَغَيْرِهِ مِنْ النَّجَاسَاتِ، وَمِثْلِ الْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ، لا سِيَّمَا مَعَ النِّسْوَةِ الْأَجَانِبِ وَالْمُرْدَانِ، وَحَالَةُ خَوَارِقِهِ تَنْقُصُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَتَقْوَى عِنْدَ سَمَاعِ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ، فَيَرْقُصُ لَيْلًا طَوِيلًا، فَإِذَا جَاءَتْ الصَّلَاةُ صَلَّى قَاعِدًا، أَوْ يَنْقُرُ الصَّلَاةَ نَقْرَ الدِّيكِ، وَهُوَ يَبْغُضُ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَيَتَكَلَّفُهُ، لَيْسَ لَهُ فِيهِ مَحَبَّةٌ وَلَا ذَوْقٌ وَلا لَذَّةٌ عِنْدَ وَجْدِهِ، وَيُحِبُّ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ، وَيَجِدُ عِنْدَهُ مَوَاجِيدَ. فَهَذِهِ أَحْوَالٌ شَيْطَانِيَّةٌ، وَهُوَ مِمَّنْ يَتَنَاوَلُهُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]. فَالْقُرْآنُ هُوَ ذِكْرُ الرَّحْمَنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦]، يَعْنِي: تَرَكْتَ الْعَمَلَ بِهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ كِتَابَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ؛ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ[1].

فَصْلٌ

وَمِمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَلَمْ يَبْقَ إِنْسِيٌّ وَلَا جِنِّيٌّ إِلا وَجَبَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٣٦)، والطبري (١٦/ ٢٢٥).

وَاتِّبَاعِهِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُصَدِّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَيُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَمَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِرِسَالَتِهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، سَوَاءٌ كَانَ إِنْسِيًّا أَوْ جِنِّيًّا.

وَمُحَمَّدٌ ﷺ مَبْعُوثٌ إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ اسْتَمَعَتْ الْجِنُّ الْقُرْآنَ، وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ بِبَطْنِ نَخْلَةٍ لَمَّا رَجَعَ مِنْ الطَّائِفِ، وَأَخْبَرَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].
وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ١ - ٦]، أَيْ: (السَّفِيهُ مِنَّا) فِي أَظْهَرْ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ.

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ[١]: كَانَ الرَّجُلُ مِنْ الْإِنْسِ إِذَا نَزَلَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٣)، وزاد المسير لابن الجوزي (٨/ ١٧٨)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٧٧).

بِالْوَادِي قَالَ: أَعُوذُ بِعَظِيمِ هَذَا الْوَادِي مِنْ شَرِّ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، فَلَمَّا اسْتَغَاثَتْ الْإِنْسُ بِالْجِنِّ ازْدَادَتْ الْجِنُّ طُغْيَانًا وَكُفْرًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن: ٦ - ٨]. وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ تُرْمَى بِالشُّهُبِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الْقُرْآنُ، لَكِنْ كَانُوا أَحْيَانًا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الشِّهَابُ إِلَى أَحَدِهِمْ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ مُلِئَتْ السَّمَاءُ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَصَارَتْ الشُّهُبُ مُرْصَدَةً لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعُوا، كَمَا قَالُوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩]، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، قَالُوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ [الجن: ١٠ - ١١]، أَيْ: عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى، كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: مِنْهُمْ الْمُسْلِمُ وَالْمُشْرِكُ وَالنَّصْرَانِيُّ وَالسُّنِّيُّ وَالْبِدْعِيُّ، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢﴾ [الجن: ١٢]، أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَهُ: لا إِنْ أَقَامُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا إِنْ هَرَبُوا مِنْهُ، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ﴾ [الجن: ١٣ - ١٤]، أَيْ: الظَّالِمُونَ؛ يُقَالُ: أَقْسَطَ إِذَا عَدَلَ، وَقَسَطَ إِذَا جَارَ وَظَلَمَ، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن

ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الجن: ١٤ - ٢٤].

ثُمَّ لَمَّا سَمِعَتْ الْجِنُّ الْقُرْآنَ أَتَوْا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ، وَهُمْ جِنُّ نُصَيْبِينَ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيحِ»(١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَرُوِيَ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ إِذَا قَالَ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣]، قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِك رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَك الْحَمْدُ(٢). وَلَمَّا اجْتَمَعُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ، سَأَلُوهُ الزَّادَ لَهُمْ وَلِدَوَابِّهِمْ، فَقَالَ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفًا لِدَوَابِّكُمْ» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا زَادٌ لِإِخْوَانِكُمْ مِنْ الْجِنِّ»(٣). وَهَذَا النَّهْيُ ثَابِتٌ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَبِذَلِكَ احْتَجَّ الْعُلَمَاءُ عَلَى النَّهْيِ عَنْ الِاسْتِنْجَاءِ بِذَلِكَ، وَقَالُوا: فَإِذَا مُنِعَ مِنْ الِاسْتِنْجَاءِ بِمَا لِلْجِنِّ وَلِدَوَابِّهِمْ، فَمَا أُعِدَّ لِلْإِنْسِ وَلِدَوَابِّهِمْ مِنْ الطَّعَامِ وَالْعَلَفِ أَوْلَى وَأَحْرَى.

---

(١) انظر: صحيح مسلم (٤٥٠)، ورواه البخاري مختصرًا (٣٨٥٩)، و(٢٨٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وقال غريب، والحاكم (٣/ ٤٧٣)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٣٢)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ٧٢).

(٣) هو جزء من حديث ابن مسعود رضي الله عنه السابق.

وَمُحَمَّدٌ ﷺ أُرْسِلَ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهَذَا أَعْظَمُ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كَوْنِ الْجِنِّ سُخِّرُوا لِسُلَيْمَانَ عليه السلام؛ فَإِنَّهُمْ سُخِّرُوا لَهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يَأْمُرُهُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ لِأَنَّهُ عبد اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَمَنْزِلَةُ الْعبد الرَّسُولِ فَوْقَ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ الْمَلِكِ.

وَكُفَّارُ الْجِنِّ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا مُؤْمِنُوهُمْ فَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ مِنْ الْإِنْسِ وَلَمْ يُبْعَثْ مِنْ الْجِنِّ رَسُولٌ. لَكِنْ مِنْهُمْ النُّذُرُ[١]، وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ لِبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ[٢].

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْجِنَّ مَعَ الْإِنْسِ عَلَى أَحْوَالٍ:

فَمَنْ كَانَ مِنْ الْإِنْسِ يَأْمُرُ الْجِنَّ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَطَاعَةِ نَبِيِّهِ وَيَأْمُرُ الْإِنْسَ بِذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مِنْ خُلَفَاءِ الرَّسُولِ ﷺ وَنُوَّابِهِ.

وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجِنَّ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ، فَهُوَ كَمَنْ اسْتَعْمَلَ الْإِنْسَ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ، وَهَذَا كَأَنْ يَأْمُرَهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَعْمِلُهُمْ فِي مُبَاحَاتٍ لَهُ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ.

هَذَا إِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، فَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ فِي عُمُومِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، مِثْلِ: النَّبِيِّ الْمَلِكِ مَعَ الْعبد الرَّسُولِ؛ كَسُلَيْمَانَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٨)، وشرح الطحاوية (١٦٦).

(٢) انظر: كتاب النبوات لشيخ الإسلام (ص٢٧١).

وَيُوسُفَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجِنَّ فِيمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ، إِمَّا فِي الشِّرْكِ، وَإِمَّا فِي قَتْلِ مَعْصُومِ الدَّمِ، أَوْ فِي الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ الْقَتْلِ، كَتَمْرِيضِهِ وَإِنْسَائِهِ الْعِلْمَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الظُّلْمِ، وَإِمَّا فِي فَاحِشَةٍ كَجَلْبِ مَنْ يُطْلَبُ مِنْهُ الْفَاحِشَةُ، فَهَذَا قَدْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، ثُمَّ إِنْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي فَهُوَ عَاصٍ؛ إِمَّا فَاسِقٌ وَإِمَّا مُذْنِبٌ غَيْرُ فَاسِقٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَامَّ الْعِلْمِ بِالشَّرِيعَةِ فَاسْتَعَانَ بِهِمْ فِيمَا يُظَنُّ أَنَّهُ مِنْ الْكَرَامَاتِ: مِثْلُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهِمْ عَلَى الْحَجِّ، أَوْ أَنْ يَطِيرُوا بِهِ عِنْدَ السَّمَاعِ الْبِدْعِيِّ، أَوْ أَنْ يَحْمِلُوهُ إِلَى عَرَفَاتٍ وَلَا يَحُجُّ الْحَجَّ الشَّرْعِيَّ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ يَحْمِلُوهُ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا مَغْرُورٌ قَدْ مَكَرُوا بِهِ.

الشــــرح:

هذا الفصل ذكر فيه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أحوال الجن من جهة التكليف، ومن جهة النبوة، ومن جهة استجابتهم لنبينا محمد ﷺ، وما أنزل الله ﷻ فيهم من قرآن يُتلى، ومن جهة علاقة الإنس بالجن.

وسبب هذا الفصل أن طائفة من الذين يدّعون الولاية، يقولون: نحن نستخدم الجن فيما ينفعنا. وهذا كان كثيرًا؛ لأنه يكون للإنس ولي من الجن يساعده على أموره، والجن - كما ذكر سابقًا - هم الذين يُعينون أصحاب

الخوارق، بل يُعينون من يدّعون الولاية من أهل البدع والفجور والشركيات يُعينونهم على الخوارق، ويفعلون بهم أشياء حتى يغووا الناس بهم.

والمقصود من هذا الفصل، هو أن علاقة الإنس بالجن مبينة في الكتاب والسنة، وأنها ليست متروكة لاجتهاد الناس، فيما يرون أنه ينفع، فالنبي ﷺ مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس بعامة، وهذه البعثة معناها أنهم يؤمرون وينهون، وأن التكليف الذي على الإنس تكليف على الجن، وأن الجن ليسوا بخارجين عن شريعة محمد ﷺ، وما يكون بدعة في حق الإنس هو بدعة في حق الجن، وما يكون وسيلة إلى الشرك في حق الإنس، يكون وسيلة إلى الشرك في حق الجن، وما كان شركًا في حق الإنس يكون شركًا في حق الجن؛ ولهذا كان الساحر الذي يستخدم الجن كافرًا؛ لأنه استعان بهم في أمور أشرك فيها أولئك فدعوه إلى الشرك، فصاروا هم كفارًا، وصار الساحر أيضًا كافرًا؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ**»، أو «**ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**»(١)، والصحيح أنه حد ردة، وليس هو حد تعزير أو قصاص كما هو مبسوط في موضعه.

إذًا فالجن مخاطبون بمثل ما خوطب به الإنس؛ ولهذا من الجن مسلمون ومنهم مشركون، ومن الجن يهود ونصارى، وسنة وبدعة... إلى آخره، كما أن الإنس فيهم ذلك. إذا تبين هذا فللإنس مع الجن أحوال، أكمل هذه الأحوال، أنه إذا علم الإنس بالجن؛ فإنه يكون فيه في مقام ورثة الأنبياء،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، والحاكم (٤/ ٤٠١).

فيأمره بطاعة الله، وينهاه عن معصية الله؛ كما يحصل لبعض أهل العلم، إذا قرؤوا على أحد، وكلمهم الجني الذي يكون متلبسًا بالإنسي، فإنه إذا نطق فإنهم يعلمونه التوحيد، وينهونه عن الشرك، ويأمرونه بالإحسان، وينهونه عن الظلم الذي منه دخول الجني في هذا الإنسي، يأمرونه بما أمر الله به ﷻ ورسوله، وينهونه عما نهى عنه الله ﷻ ونهى عنه رسوله ﷺ، وهكذا كان ﷺ وورثة الأنبياء يفعلون ذلك، لا يطلبون منهم ولا يسألونهم بل يأمرونهم وينهونهم ويتلون عليهم القرآن والسنة، إقامة للحجة عليهم، وتعليمًا لهم، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر؛ كما يفعل هذا مع الإنسي سواء بسواء لأنهم مكلفون.

والحالة الثانية: أن الإنسي قد يحتاج إلى الجني في أمر مباح، وهذا لا حرج أن يستخدم الإنسي الجني إذا احتاج إليه في أمر مباح، لكن هذا بشرط إلا يكون هذا ديدنًا، يعني: يؤاخي قرينًا من الجن، أو إذا احتاج علمًا، أو خبرًا طلب من جني معين، بل الاستخدام الذي قاله هنا شيخ الإسلام: (**وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجِنَّ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ**) يعني: وإذا عرض له الجني، استعمله في أمر مباح، أما أن يكون الجني مُؤاخيًا مستخدمًا دائمًا، فهذه ليست بالحالة الجائزة؛ لأن هذه تُفضي إلى محرم، والله ﷻ قال في وصف الإنس والجن: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام ١٢٨]، ومعنى الاستمتاع الديمومة، أن الجني يستمتع دائمًا بالإنسي، والإنسي يستمتع دائمًا بالجني؛ كما يستمتع الرجل بصديقه الدائم معه، وكما يستمتع الرجل بمتاعه، وبأهله، إلى آخره مما يكون ملازمًا له. لكن إذا عرض فإنه يخاطبه قد يطلب منه أشياء، ويستخدمه في أمر مباح، فلا يقال: هذا خارج عن الشريعة، لكن من كان له جني، يقول: أنا استخدم هذا الجني المعين

دائمًا، فهذا لا شك أنه محرم؛ لأنه لم يأت عليه دليل لا من الكتاب ولا من السنة، ولم يكن عليه فعل أهل العلم والسلف، بل كانوا يفعلون بالجن ما كان عليه حال النبي ﷺ، وحال أصحابه من بعده.

المقصود من هذا، أن قول شيخ الإسلام: (**وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجِنَّ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ، فَهُوَ كَمَنْ اسْتَعْمَلَ الْإِنْسَ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ**)، فالإنسان يعرض له إنسي فيطلب منه شيء ويسأله عن شيء، يعرض يقول له: ألك حاجة؟ يسأله عن شيء، لكن لا يتخذه دائمًا على هذه الحال في سؤال الجني.

فإذًا سؤال الجني دائمًا، إما أن يقول: أسألُ القرين -قريني - أو يقرأ على أحد، وإذا تكلم سأله أو يتخذ عنده شخصًا فيه جني مُلابس له، وكلما أراد أن يستعلم شيئًا قرأ عليه حتى ينطق الجني، ثم بعد ذلك يسأله عن أشياء، فإن هذا كله من وسائل البدع والمحدثات، وهو محرم، ومنكر ويجب النهي عنه، أما الاستخدام الذي يكون في حالة دون حالة، يعني تارة يعرض له، أي: مرة، ونحو ذلك، فهذا لا يقدح. مثل ما يحصل لبعض الأولياء ممن مثل بهم شيخ الإسلام في مقصوده وكلامه أنه إذا استخدمه مرة، ونحو ذلك.

الحالة الثالثة: هي علاقة الإنسي بالجني علاقة الاستمتاع المحرم، إما بالإخبار بالغيب أو بالإتيان بأمور محرمة من نساء، ومردان، أو خمر، ومال مسروق يأتي به الجني ونحو ذلك، هذه كلها حرام، وهي بحسب الحال، إن كان استخدمه في أمور شركية فهو شرك، وإن كان استخدمه في محرم فهو محرم.

ثم ذكر في آخر الكلام، قال: إن استعان بهم على المعاصي، فهو عاص، إما فاسق وإما مذنب غير فاسق، ذلك أن المعصية قد تكون فسقًا، وقد لا تكون فسقًا، فليست كل معصية فسقًا، وكذلك ليس كل عاص فاسقًا.

فالفاسق: هو الذي يجاهر بالكبيرة - هذا الذي عليه حد الفسق - والفسق المجاهرة بالكبيرة، أما فعل الصغائر فليس بفسق، وكذلك الكبيرة إذا استتر بها، فلا يحكم عليه بالفسق، لقوله ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا الْمُجَاهِرِينَ**»[1]، فالمعاصي منقسمة إلى كبائر وصغائر، وإلى فسوق، وغيره. وكذلك فاعل المعصية، قد يكون مذنبًا، وقد يكون فاسقًا، بحسب نوع الذنب وصفة ارتكابه.

وتكون مساعدة الجن فتنة للإنس، إذا حدّث بها الإنسي وبين لهم أن هذا من ولايته إلى آخره، وقد حصلت للصحابة أشياء ما افتتن الناس بها، مثل حذيفة رضي الله عنه أتوه أناس بدمشق، سألوه الدعاء، يعني طلبوا منه أن يدعوا لهم، فدعا، ثم أتوه مرة أخرى، فقالوا: ادع لنا، فأنكر عليهم، قال: أنبياء نحن؟[2]، ففرق ما بين الاستمرار والحالة، هذا أصل مهم؛ لأن الاستمرار يجعل الشيء ملازمًا، يجعل الشيء يعتقد فيه، إما الاعتقاد في شخص أو اعتقاد في حالة أو صفة إلى آخره. والعبرة بالفاعل - والله المستعان - وقد يأمرهم وينهاهم مثل ما حصل لسليمان عليه السلام كان ملكًا عليهم يأمر

---

(١) البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

(٢) لم أقف عليه، وانظر ترجمة حذيفة في صفة الصفوة (١/ ٦١٠)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٣٦١).

وينهى، إذا كان كذلك يكون بمنزلة الملوك، وليس بمنزلة المحتاج، ما يخرج عن هذا القسم؛ لأن الملك يسعى في صلاح رعيته، وهو يجمع ما بين الاستفادة منهم في الأمور المباحة، وما بين أمرهم ونهيهم، بما يجب شرعًا.

الحالة الأولى: هي حال الكُمل.

والحالة الثانية: هذه موارد زلل، واستخدام الإنس والطلب منهم الأصل فيه المنع، فهو رتب هذا على هذا، يعني أن الأفضل تركه، لكن إن عرض جني، وقال: أخدمك، وقال: أنا أدلك على الطريق، مثل شخص ضاع في فلاة، وقال: أنا أدلك على الطريق أو أشباه ذلك، فإن قال له: دلني، فلا بأس باعتبار أنه حاضر يسمع ويقدر، وإن تركه فهو يقول مثل استخدام الإنس، فيقول مثلًا: أنا لست محتاجًا حتى لا يكون منة وفضلًا.

المقصود في أصل المسألة، وليس في الاستدامة؛ لأن هناك أقوامًا يرفضون حتى الاستفادة من الإنس في أمور مباحة، يقول: أنا أموري أجريها بنفسي، خاصة من يسعون في الكمالات السلوكية.

ولا يشترط أهل العلم هنا أن تسأله أنت مسلم أم غير مسلم؟، لكن إذا جاء من جهة الكيد فيُحذر الجني، إذا جاء من جهة قبول الخبر، فإن الجني خبره ضعيف لا يصدق، بل يكون على البرهان، مثل بعض الناس يأتيه من يقرؤون فينطق الجني، ويقول: هذا به بلاء كذا، ويعلمه بعض الأشياء عن زوجته وخاصته، فخبر الجني أصله ضعيف ما يصدق؛ لأن الجني هذا ما تعلمه، ولا تعلم عدالته، ولا تعلم صدقه، ولا تعلم ديانته، كيف تأخذ خبره وتنقله للإنسي؛ فإن ذلك يسبب إشكالات، وتحصل مصائب، وقطيعة

بسبب نقل خبر الجني إلى الإنسي، يقول: فيكم بلاء، هؤلاء يفعلون بكم كذا وكذا، يقول للزوجة: أُمُّ الزوج فعلت لكِ كذا وكذا، من جهة الجني، فالجني خبره ضعيف، ما يُصدق، فلا يجوز نقل خبر الجني، حتى تعلم عدالته، والعلم بعدالة الجني متعذرة؛ ولهذا قال أهل العلم في مصطلح الحديث: وحديث الجني ضعيف، يعني: إذا كان في الإسناد جني، فالإسناد ضعيف، ويوجد روايات كثيرة معروفة في أسانيدها جن لكن هي ضعيفة(١).

---

(١) انظر: آكام المرجان في أحكام الجان للشبلي (ص١٢٦) فقد عقد بابًا في رواية الجن للحديث وهو الباب السابع والثلاثون، وذكر رواية أبي نعيم بإسناده إلى أبي ابن كعب عن أحد الجن الذين استمعوا إلى النبي ﷺ وسمعه يقول: «**الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ. . . .**».
وذكر حديثًا آخر بإسناده إلى مولى عبد الرحمن بن بشر عن أحد من الجن يروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحب للمسلمين ما يحب لنفسه ويكره للمسلمين ما يكره لنفسه. . .**».

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ لا يَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ الْجِنِّ، بَلْ قَدْ سَمِعَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَهُمْ كَرَامَاتٌ وَخَوَارِقُ لِلْعَادَاتِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْكَرَامَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَبَيْنَ التَّلْبِيسَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَيَمْكُرُونَ بِهِ بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِ، فَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا يَعبد الكَوَاكِبَ وَالْأَوْثَانَ أَوْهَمُوهُ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ، وَيَكُونُ قَصْدُهُ الاسْتِشْفَاعَ وَالتَّوَسُّلَ مِمَّنْ صُوِّرَ ذَلِكَ الصَّنَمَ عَلَى صُورَتِهِ مِنْ مَلَكٍ أَوْ نَبِيٍّ أَوْ شَيْخٍ صَالِحٍ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ صَالِحٌ، وَتَكُونُ عِبَادَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لِلشَّيْطَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ يَقْصِدُونَ السُّجُودَ لَهَا، فَيُقَارِنُهَا الشَّيْطَانُ عِنْدَ سُجُودِهِمْ؛ لِيَكُونَ سُجُودُهُمْ لَهُ، وَلِهَذَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ.

فَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا وَاسْتَغَاثَ بجرجس أَوْ غَيْرِهِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ جرجس أَوْ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُنْتَسِبًا إِلَى الْإِسْلَامِ وَاسْتَغَاثَ بِشَيْخٍ يَحْسُنُ الظَّنُّ بِهِ مِنْ شُيُوخِ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ مُشْرِكِي الْهِنْدِ جَاءَ فِي صُورَةِ مَنْ يُعَظِّمُهُ ذَلِكَ الْمُشْرِكُ.

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ الْمُسْتَغَاثَ بِهِ إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِالشَّرِيعَةِ لَمْ

يُعَرِّفْهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ تَمَثَّلَ لِأَصْحَابِهِ الْمُسْتَغِيثِينَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ مِمَّنْ لا خِبْرَةَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ نَقَلَ أَقْوَالَهُمْ لَهُ، فَيَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّ الشَّيْخَ سَمِعَ أَصْوَاتَهُمْ مِنَ الْبُعْدِ وَأَجَابَهُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ بِتَوَسُّطِ الشَّيْطَانِ.

وَلَقَدْ أَخْبَرَ بَعْضُ الشُّيُوخِ الَّذِينَ كَانَ قَدْ جَرَى لَهُمْ مِثْلُ هَذَا بِصُورَةِ مُكَاشَفَةٍ وَمُخَاطَبَةٍ، فَقَالَ: يَرَوْنَنِي الْجِنُّ شَيْئًا بَرَّاقًا مِثْلَ الْمَاءِ وَالزُّجَاجِ، وَيُمَثِّلُونَ لَهُ فِيهِ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْإِخْبَارُ بِهِ، قَالَ: فَأُخْبِرُ النَّاسَ بِهِ وَيُوصِلُونَ إِلَيَّ كَلَامَ مَنْ اسْتَغَاثَ بِي مِنْ أَصْحَابِي فَأُجِيبُهُ، فَيُوصِلُونَ جَوَابِي إِلَيْهِ. وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ حَصَلَ لَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْخَوَارِقِ إِذَا كَذَّبَ بِهَا مَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا وَقَالَ: إِنَّكُمْ تَفْعَلُونَ هَذَا بِطَرِيقِ الْحِيلَةِ كَمَا يَدْخُلُ النَّارَ بِحَجَرِ الطَّلْقِ[1]، وَقُشُورِ النَّارِنْجِ[2]، وَدُهْنِ الضَّفَادِعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِيَلِ الطَّبِيعِيَّةِ.

فَيَعْجَبُ هَؤُلَاءِ الْمَشَايِخُ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ وَاللَّهِ لا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحِيَلِ. فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُمْ الْخَبِيرُ إِنَّكُمْ لَصَادِقُونَ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ شَيْطَانِيَّةٌ، أَقَرُّوا بِذَلِكَ وَتَابَ مِنْهُمْ مَنْ تَابَ

---

(١) قال في المعجم الوسيط (ص٥٦٣): (حجر براق شفاف ذو أطباق، يتشظى إذا دق صفائح، ويطحن فيكون مسحوقًا أبيض، يذر على الجسم فيكسبه بردًا ونعومة. . .).

(٢) قال في المعجم الوسيط (ص٩١٣): (شجرة مثمرة، دائمة الخضرة، تسمو بضعة أمتار، أوراقها جلدية خضر لامعة، لها رائحة عطرية، وأزهارها بيض عبقة الرائحة تظهر في الربيع، والثمرة عصارتها حمضية مرة، وتستعمل أزهارها في صنع زيت طيار يستعمل في العطور. . . .).

اللَّهُ عَلَيْهِ، لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ وُجوهٍ أَنَّهَا مِنْ الشَّيْطَانِ، وَرَأَوْا أَنَّهَا مِنْ الشَّيَاطِينِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهَا تَحْصُلُ بِمِثْلِ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ فِي الشَّرْعِ وَعِنْدَ الْمَعَاصِي لِلَّهِ، فَلَا تَحْصُلُ عِنْدَمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ الْعِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، فَعَلِمُوا أَنَّهَا حِينَئِذٍ مِنْ مخارق الشَّيْطَانِ لِأَوْلِيَائِهِ، لا مِنْ كَرَامَاتِ الرَّحْمَنِ لِأَوْلِيَائِهِ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَخُلَفَائِهِ، صَلَاةً وَسَلَامًا نَسْتَوْجِبُ بِهِمَا شَفَاعَتَهُ، آمِينَ.

خاتمة الشرح

هذا ختام لهذه الرسالة النافعة - رسالة الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - وخلاصة هذه الرسالة في مسائل:

المسألة الأولى: في وجود ولي الله وفي وجود ولي الشيطان، وهذا مقرر في الكتاب والسنة.

أما ولاية الله لعبده، فكما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥،٥٦]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢].

وفي ولاية الشيطان آيات كثيرة: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، والآيات في ذلك كثيرة ساقها الإمام في أول البحث.

المسألة الثانية: في تعريف ولي الله، وفي تعريف ولي الشيطان.

فولي الله هو: كل مؤمن تقي ليس بنبي، بدليل الآية حيث عرف الأولياء بأنهم هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، المؤمن التقي هو الولي.

وولي الشيطان: هو الذي يطيعه، ويأتمر بأمره، ويخالف ما جاء به محمد ﷺ؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠] يعني بطاعته في ارتكاب الحرام

بأنواعه، وفي ترك الفرائض بأنواعها، والآيات في هذا كثيرة، ذكرنا لكم بعضا منها.

المسألة الثالثة: في خلاصة هذا، أن ولاية المؤمن لله ﷻ، وولاية الله ﷻ لعبده المؤمن متبعضة، ليست على مرتبة واحدة، فكل مؤمن عنده نصيب من التقوى له نصيب من الولاية، فالإيمان والتقوى متبعضة، فكذلك الولاية متبعضة. وكذلك ولاية الشيطان للعبد، وولاية العبد الشيطان متبعضة، فكل عاص له نصيبه من ولاية الشيطان.

وفي معتقد أهل السنة، أنه يمكن أن يكون في الشخص أشياء موجبة لولاية الشيطان، وموجبة لولاية الرحمن ﷻ، فيجتمع في المعين ولاية من الجهتين، هو على ما غلب منها، يعني يكون وليا لله ﷻ في طاعته، ويكون مطيعًا للشيطان وليًا له، فيما عصى الله فيه من طاعة الشيطان.

لكن لا يقال في المؤمن أنه ولي للشيطان بإطلاق، بل يقال: مؤمن ولي الله ﷻ فيه معصية، وفيه طاعة الشيطان ونحو ذلك؛ لأن الله سبحانه جعل ولاية الشيطان وسلطانه بإطلاق على الذين لا يؤمنون: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]. فالمؤمن لايقال فيه، هذا ولي للشيطان بإطلاق، لكن يقال هذا بتقييد.

المسألة الرابعة: أن لأولياء الرحمن علامات، وأولياء الشيطان علامات، وذكرها شيخ الإسلام في الكتاب.

المسألة الخامسة: أن أولياء الرحمن لهم كرامات، والكرامة عُرِّفت: بأنها أمر خارق للعادة يجري على يدي ولي، وأن حصول الكرامة لا يعني رفعة من حصلت له على من لم تحصل له، بل قد يكون من لم تحصل له

كرامة أرفع ممن حصلت له كرامة، وهذا قرره في كتابه.

وما يحصل لأولياء الشيطان من خوارق هي خوارق شيطانية، فإن الشيطان يعينه، وليس الله يكرمهم الله ﷻ بذلك إذ ليسوا بأهل للإكرام.

فإذًا يجب أن ينظر في الفرق ما بين ولي الرحمن وولي الشيطان من جهة العمل، من جهة طاعته لله ورسوله، وليس ذلك عماده الخوارق، قد تحصل الخوارق الشيطانية لبعض الناس.

المسألة السادسة: أن المبتدعة من هذه الأمة والمشركين والذين يتعلقون بالقبور، ويتعلقون التعلقات البدعية، والشركية، بالمعظمين هؤلاء تعينهم الشياطين على أشياء غريبة بالأنواع التي ذكرها، والأصناف التي أطال فيها من أمور علمية، وأمور قدرية وأشباه ذلك أو أنواع هذه الأجناس، هذا كله إذا كان لمن ليس على الإيمان والتقوى فتحصل لهم خوارق من جهة إعانة الشياطين لهم في أمور كثيرة من تكليم الموتى، ومن حصول أنواع المعلومات والمعارف وأحيانا يكون شفاء مرضى، وأحيانًا يشفى بقراءته، وأحيانًا يشفى بلمسه، أو بكتابته، وما أشبه كل هذا يكون من الشيطان.

الشيطان الذي ينخس المرء ويوجعه، ثم إذا أتى هذا المشرك والمبتدع، فحصل منه بعض الأشياء رفع يده مثل ما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إِنَّمَا ذَاكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ كَانَ يَنْخُسُهَا بِيَدِهِ**»[1]، فهذا أيضًا فُرْقان مهم في أن أهل الشرك والبدع والتعلقات الشركية بالقبور والأوثان ليسوا بأهل لكرامة الله ﷻ، بل هم أهل لإهانة المولى ﷻ، لكن يحصل لهم خوارق من فعل الشياطين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وأحمد (١/ ٣٨١).

المسألة السابعة: أن الجن مكلفون مثل تكليف الإنس وأنهم مخاطبون وأن ولي الله ﷻ إذا عرضت له الجن والشياطين بأشياء تخدمه بها وأحوال يفعلونها به، فإنه يجب عليه أن يأمرهم وينهاهم؛ كما أمرهم النبي ﷺ ونهاهم وأن يتلوا عليهم القرآن، وأن يقيم عليهم الحجة.

المسألة الثامنة والأخيرة وهي التي ختم بها الكتاب: أن العبد إذا تبين له الحق والصواب في هذه المسألة وعرف سبب نشأة الضلال، يجب عليه أن يراجع الصواب وأن يتوب إلى الله ﷻ، فإن الحق ديدن المؤمن، ولا يجوز له أن يعلم الحق ويكابر ويترك ذلك إلى غيره؛ كما ذكر أن طائفة من الناس عرفوا الحق في ذلك، وأن ما يأتيهم هو من الشياطين، فاستغفروا وأنابوا وتركوا موجبات إعانة الشيطان من البدعة والشرك.. إلى آخره، إلى موجبات إعانة الرحمن ﷻ وتوفيقه، وهي السنة، ومتابعة الهدى ولزوم طريقة السلف الصالح، رضوان الله عليهم.

وهذا ختام هذه الرسالة، وأسأل الله ﷻ أن ينفعنا بما علمنا وأن يُقر العلم في قلوبنا وألا يحجبه عنا؛ كما أسأله ﷻ أن يلزمنا وإياكم كلمة التقوى وأن يجعلنا من الدعاة إلي دينه والمعلمين شريعة نبيه ﷺ، للناس أجمعين. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المراجع

١ - أبجد العلوم. صديق حسن خان القنوجي. دار الكتب العلمية. ١٩٨٧م.

٢ - الإبانة. أبو الحسن الأشعري. تحقيق د. فوقية حسين. دار الأنصار - القاهرة ١٣٩٧هـ

٣ - الأحاديث المختارة. الضياء المقدسي. مكتبة النهضة الحديثة ١٤١٠هـ.

٤ - أحكام القرآن. أبو بكر الجصاص. دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥هـ.

٥ - الآداب الشرعية. ابن مفلح. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٦هـ.

٦ - الإستقامة. ابن تيمية. تحقيق د/ محمد رشاد سالم. جامعة الإمام السعودية ١٤٠٣هـ.

٧ - أسد الغابة. ابن الأثير. جمعية المعارف ١٣٨٠هـ.

٨ - الأسماء والصفات. البيهقي. مكتبة السوادي، جده ١٤١٣هـ.

٩ - الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر. دار الجيل بيروت ١٤١٢هـ.

١٠ - أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن. محمد الأمين الشنقيطي. دار الفكر ١٤١٥هـ

١١ - الاعتصام. الشاطبي. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.

١٢ - الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد. البيهقي. دار الآفاق الجديدة ١٤٠١هـ.

١٣ - اعتقادات فرق المسلمين. محمد بن عمر بن الحسين. دار الكتب العلمية ١٤٠٢هـ.

١٤ - إعلام الموقعين. ابن القيم. دار الجيل بيروت ١٩٧٣م

١٥ - الأعلام. لخير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م.

١٦ - إغاثة اللهفان. ابن القيم. دار المعرفة بيروت ١٣٩٥هـ.

١٧ - آكام المرجان في أحكام الجان. الشبلي. مكتبة القرآن، القاهرة.

١٨ - التحفة العراقية. ابن تيمية. دار زمزم، الرياض ١٤١٤هـ.

١٩ - المستدرك على الصحيحين. أبو عبد الله الحاكم. مكتبة النهضة.

٢٠ - الأنس الجليل. مجير الدين الحنبلي، مكتبة دنديس - عمان ١٤٢٠هـ.

٢١ - الأنساب. عبد الكريم بن محمد السمعاني. دار الفكر. ١٩٩٨م

٢٢ - الأولياء. ابن أبي الدنيا. جمعية النشر والتأليف بالأزهر، الطبعة الأولى.

٢٣ - البداية والنهاية. ابن كثير. مكتبة المعارف. بيروت.

٢٤ - بيان تلبيس الجهمية. ابن تيمية، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم. مطبعة الحكومة، مكة، ١٣٩٢هـ.

٢٥ - تاريخ الإسلام. شمس الدين الذهبي. دار الكتاب العربي ١٤٠٩هـ

٢٦ - تاريخ الخلفاء. السيوطي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ.

٢٧ - تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي. دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨ - تاريخ دمشق. ابن عساكر. تحقيق: عمر بن غرامة العمري. دار الفكر، ١٩٩٥م.

٢٩ - تاريخ واسط. أسلم بن سهل الواسطي، تحقيق: كوركيس عواد. عالم الكتب، ١٤٠٦هـ.

٣٠ - تبيين كذب المفتري. ابن عساكر. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٣١ - تحريم آلات الطرب. الألباني. دار الصديق، الجبيل، السعودية ١٤٢٠هـ.

٣٢ - تخريج أحاديث الإحياء. الحافظ العراقي. دار طبرية.

٣٣ - تدريب الراوي. السيوطي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف. مكتبة الرياض الحديثة.

٣٤ - تذكرة الحفاظ. الذهبي. دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٥ - ترجمة الشيخ عبد الرزاق عفيفي. وليد منيسي. دار الفضيلة، الرياض.

٣٦ - التعاريف. محمد عبد الرؤوف المناوي. دار الفكر المعاصر، ١٤١٠هـ.

٣٧ - التعرف لمذهب أهل التصوف. محمد الكلاباذي. دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ

٣٨ - التعريفات. علي بن محمد الجرجاني. دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

٣٩ - تفسير ابن كثير. دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٤٠ - تفسير البغوي. الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وآخرون. دار طيبة، الرياض، ١٤١٧هـ.

٤١ - تفسير الطبري. ابن جرير الطبري. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٤٢ - تفسير القرطبي. محمد بن أحمد الأنصاري. دار الشعب، القاهرة.

٤٣ - تلبيس إبليس. ابن الجوزي، تحقيق: د. السيد الجميلي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٤٤ - التمهيد لشرح كتاب التوحيد. صالح بن عبد العزيز آل الشيخ. دار التوحيد ١٤٢٣هـ.

٤٥ - التمهيد. ابن عبد البر. وزارة عموم الأوقاف، المغرب. ١٣٨٧هـ

٤٦ - تهذيب التهذيب. ابن حجر. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٤٧ - تهذيب السنن. لابن القيم. دار المعرفة بيروت. مع معالم السنن للخطابي.

٤٨ - تهذيب الكمال. المزي، تحقيق: بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٤٩ - التوضيحات الحسان. ياسر برهامي. دار الخلفاء الراشدين، الأسكندرية ١٤٢٦هـ.

٥٠ - تيسير العزيز الحميد بشرح كتاب التوحيد. سليمان بن عبدالله. مكتبة الرياض الحديثة.

٥١ - تيسير الكريم الرحمن. ابن سعدي. تحقيق الشيخ ابن عثيمين. مؤسسة الرسالة ١٤٢١هـ.

٥٢ - الثقات. ابن حبان. تحقيق السيد شرف الدين، دار الفكر، ١٣٩٥هـ.

٥٣ - جامع العلوم والحكم. ابن رجب. مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ.

٥٤ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. الخطيب البغدادي. تحقيق: د. محمود طحان. مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ

٥٥ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. ابن تيمية. تحقيق: على سيد صبح، مطبعة المدني، مصر.

٥٦ - حلية الأولياء. أبو نعيم الأصبهاني. دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

٥٧ - دائرة المعارف. بطرس البستاني. مطبعة المعارف، بيروت.

٥٨ - الدر المنثور. السيوطي. دار الفكر، ١٩٩٣م.

٥٩ - درء تعارض العقل والنقل. تحقيق: د. محمد رشاد سالم. دار الكنوز الأدبية، ١٣٩١هـ.

٦٠ - الدرر السنية في الأجوبة النجدية لعلماء نجد الأعلام. جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم. ١٤٢٠هـ.

٦١ - دلائل النبوة. أبو نعيم. عالم الكتب، بيروت.

٦٢ - دلائل النبوة. البيهقي. المكتبة السلفية، المدينة.

٦٣ - دلائل النبوة. الفريابي. تحقيق: عامر حسن. دار حراء، مكة، ١٤٠٦هـ.

٦٤ - ديوان ابن الفارض. مصطفى البابي ١٣٧٢هـ

٦٥ - الرد على الزنادقة والجهمية. الإمام أحمد. المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٩٣هـ

٦٦ - الرد على القائلين بوحدة الوجود. علي القاري. دار المأمون للتراث، ١٤١٥ هـ.

٦٧ - الرد على المنطقيين. ابن تيمية. دار المعرفة، بيروت.

٦٨ - الرسالة القشيرية. أبو القاسم القشيري. دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٦٩ - الروح. ابن القيم. دار الكتب العلمية. ١٣٩٥هـ.

٧٠ - روضة الناظر. ابن قدامة. تحقيق: عبد العزيز السعيد. جامعة الإمام ١٣٩٩هـ.

٧١ - زاد المسير. ابن الجوزي. المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـ.

٧٢ - الزهد. أحمد ابن حنبل. دار الريان للتراث. ١٤٠٨هـ.

٧٣ - الزهد. عبد الله بن المبارك. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. دار الكتب العلمية.

٧٤ - السلسلة الضعيفة. الألباني. مكتبة المعارف. الرياض، ١٤٢٠هـ

٧٥ - السنة. ابن أبي عاصم. تحقيق: الألباني. المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ.

٧٦ - السنة. عبد الله بن أحمد. تحقيق: د. محمد سعيد القحطاني. دار ابن القيم، الدمام، ١٤٠٦هـ.

٧٧ - سنن ابن ماجه. دار الفكر، بيروت.

٧٨ - سنن أبي داود. دار الفكر، بيروت.

٧٩ - سنن البيهقي الكبرى. تحقيق: محمد عبدالقادر عطا. مكتبة دار الباز ١٤١٤هـ.

٨٠ - سنن الترمذي. تحقيق: أحمد شاكر. دار إحياء التراث، بيروت.

٨١ - سنن النسائي. تحقيق عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات، حلب ١٤٠٦هـ.

٨٢ - سير أعلام النبلاء. الذهبي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ.

٨٣ - شذرات الذهب. عبد الحي بن أحمد، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. دار ابن كثير ١٤٠٦هـ.

٨٤ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي. تحقيق: د/ أحمد الغامدي. دار طيبة، ١٤١٥هـ.

٨٥ - شرح الأصول من علم الأصول. ابن عثيمين. دار البصيرة، مصر.

٨٦ - شرح السنة. الحسين بن مسعود البغوي. المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ.

٨٧ - شرح العقيدة الطحاوية. ابن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي ١٣٩١هـ.

٨٨ - شرح النووي على مسلم. دار إحياء التراث، ١٣٩٢هـ.

٨٩ - شرح الورقات في أصول الفقه. سعد الشثري. دار كنوز إشبيليا، ١٤٢٥هـ.

٩٠ - شرح قصيدة ابن القيم. أحمد بن عيسى. تحقيق: زهير الشاويش المكتب الإسلامي، ١٤٠٦ هـ.

٩١ - شعب الإيمان. البيهقي. تحقيق: محمد السعيد زغلول. دار الكتب العلمية ١٤٠١هـ.

٩٢ - شفاء العليل. ابن القيم. دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ

٩٣ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا. أحمد علي القلقشندي، تحقيق: د. يوسف علي طويل. دار الفكر.

٩٤ - صحيح ابن حبان. أبو حاتم البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ١٤١٤هـ.

٩٥ - صحيح ابن خزيمة. محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: د. محمد الأعظمي. المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ.

٩٦ - صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري. بيت الأفكار الدولية.

٩٧ - صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج النيسابوري. بيت الأفكار الدولية.

٩٨ - صفة الصفوة. ابن الجوزي. دار المعرفة بيروت، ١٣٩٩هـ.

٩٩ - طبقات الحنابلة. محمد بن أبي يعلى. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة، بيروت.

١٠٠ - طبقات الشافعية الكبرى. السبكي. تحقيق: د. محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو. دار هجر ١٤١٣هـ.

١٠١ - طبقات الشافعية. أبو بكر بن أحمد. تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان. عالم الكتب ١٤٠٧هـ.

١٠٢ - طبقات الصوفية. محمد بن الحسين. دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ.

١٠٣ - طبقات الفقهاء. أبو إسحاق الشيرازي. دار القلم، بيروت.

١٠٤ - العبر في خبر من غبر. الذهبي، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤هـ.

١٠٥ - عقيدة الفرقة الناجية. الإمام محمد بن عبد الوهاب. المكتب الإسلامي ١٣٩٧هـ.

١٠٦ - غريب الحديث. ابن الجوزي. تحقيق: عبد المعطي أمين. دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

١٠٧ - فتاوى اللجنة الدائمة. مكتبة العبيكان.

١٠٨ - فتاوى مهمة لعموم الأمة. ابن باز. دار العاصمة، ١٤١٣هـ.

١٠٩ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر. دار المعرفة، بيروت.

١١٠ - فتح القدير. الشوكاني. دار الفكر، بيروت.

١١١ - فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد. عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ. توزيع رئاسة الإفتاء، السعودية.

١١٢ - فتح المغيث. السخاوي. دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.

١١٣ - الفتوحات المكية. ابن عربي. دار الكتب العربية.

١١٤ - الفردوس بمأثور الخطاب. الديلمي، تحقيق: السعيد زغلول. دار الكتب العلمية،١٤٠٦هـ.

١١٥ - الفرق بين الفرق. عبد القاهر بن طاهر البغدادي. دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧م.

١١٦ - فصوص الحكم. ابن عربي. دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٥هـ

١١٧ - فضائح الباطنية. أبو حامد الغزالي. مؤسسة دار الكتب.

١١٨ - فضائل الصحابة. الإمام أحمد، تحقيق: وصي الله محمد عباس. مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ.

١١٩ - فوات الوفيات. محمد بن شاكر الكتبي. دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

١٢٠ - القول المفيد في حكم الأناشيد. عصام عبد المنعم المري. دار الفرقان، عجمان.

١٢١ - الكامل في التاريخ. أبو الحسن الشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

١٢٢ - كرامات الأولياء. اللالكائي. تحقيق: أحمد الغامدي. دار طيبة.

١٢٣ - كشف الخفاء. إسماعيل بن محمد العجلوني. مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ.

١٢٤ - كشف الظنون. مصطفى بن عبدالله القسطنطيني. دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ

١٢٥ - لسان العرب. ابن منظور. دار صادر، بيروت.

١٢٦ - لسان الميزان. ابن حجر. مؤسسة الأعلمي ١٤٠٦هـ.

١٢٧ - لطائف الأسرار. ابن عربي. دار الفكر العربي.

١٢٨ - المبسوط. السرخسي. دار المعرفة، بيروت.

١٢٩ - المجروحين. ابن حبان. تحقيق: محمد إبراهيم زايد. دار الوعي، حلب ١٣٩٦هـ

١٣٠ - مجمع الزوائد. الهيثمي. دار الريان للتراث، القاهرة.

١٣١ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام. جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم. طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف.

١٣٢ - مجموع مؤلفات الإمام المجدد. توزيع دار الإفتاء، السعودية.

١٣٣ - مختار الصحاح. الرازي، تحقيق: محمود خاطر. مكتبة لبنان، ١٤١٥هـ.

١٣٤ - المدخل. ابن بدران، تحقيق: د. عبد الله التركي. مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.

١٣٥ - المدونة الكبرى. الإمام مالك. دار صادر، بيروت.

١٣٦ - مرآة الجنان. عبد الله بن أسعد اليافعي. دار الكتاب الإسلامي ١٤١٣هـ.

١٣٧ - مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله. المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ.

١٣٨ - مسند أبي داود الطيالسي. دار المعرفة، بيروت.

١٣٩ - مسند أبي يعلى. دار المأمون للتراث، ١٤٠٤هـ.

١٤٠ - مسند أحمد. المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ.

١٤١ - مسند البزار. مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٩هـ.

١٤٢ - مسند الشهاب. أبو عبد الله القضاعي. مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ

١٤٣ - مسند عبد ابن حميد. مكتبة السنة، القاهرة ١٤٠٨هـ.

١٤٤ - المصباح المنير. الفيومي. المكتبة العلمية، بيروت.

١٤٥ - مصرع التصوف. برهان الدين البقاعي. دار الباز، مكة. ١٤٠٠هـ.

١٤٦ - مصنف ابن أبي شيبة. تحقيق: كمال يوسف الحوت. مكتبة الرشد، ١٤٠٩هـ.

١٤٧ - مصنف عبد الرزاق. تحقيق: حبيب الأعظمي. المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ.

١٤٨ - معجم الأدباء. ياقوت الحموي. دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ.

١٤٩ - المعجم الأوسط. الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله. دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٥٠ - المعجم الكبير. الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد. مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ.

١٥١ - المعجم الوسيط. مجموعة من العلماء. دار الدعوة، استانبول.

١٥٢ - معجم مقاييس اللغة. ابن فارس. دار إحياء التراث العربي ١٤٢٢هـ.

١٥٣ - المغني عن حمل الأسفار. الحافظ العراقي. دار طبرية.

١٥٤ - مفتاح غيب الجمع والوجود. الصدر القونوي. مخطوط. جامعة الملك سعود.

١٥٥ - مقالات الإسلاميين. أبو الحسن الأشعري. دار إحياء التراث، بيروت.

١٥٦ - الملل والنحل. الشهرستاني. تحقيق: محمد سيد كيلاني. دار المعرفة، ١٤٠٤هـ.

١٥٧ - المنار المنيف. ابن القيم. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات، حلب، ١٤٠٣هـ.

١٥٨ - المنتظم. ابن الجوزي. دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٥٩ - منهاج السنة. ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم. مؤسسة قرطبة ١٤٠٦هـ.

١٦٠ - المهذب. أبو إسحاق الشيرازي. دار الفكر.

١٦١ - المواقف. عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة. دار الجيل، ١٤١٧هـ.

١٦٢ - الموضوعات. ابن الجوزي. الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ.

١٦٣ - موطأ مالك. دار إحياء التراث، مصر.

١٦٤ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال. الذهبي. دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.

١٦٥ - النبوات. ابن تيمية. المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

١٦٦ - النجوم الزاهرة. ابن تغري بردي. وزارة الثقافة، مصر.

١٦٧ - نزهة الأسماع في مسألة السماع. ابن رجب، تحقيق: د/ وليد الفريان. دار طيبة، ١٤٠٧هـ.

١٦٨ - نقد المنقول. ابن القيم، تحقيق: حسن السماعي. دار القادري ١٤١١هـ.

١٦٩ - النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير. تحقيق: طاهر أحمد الزواوي. المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ.

١٧٠ - نوادر الأصول. الحكيم الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة دار الجيل، ١٩٩٢م.

١٧١ - الوافي بالوفيات. ابن أيبك. تحقيق: أحمد الأرناؤوط. دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ.

١٧٢ - وفيات الأعيان. ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس. دار الثقافة، لبنان.

فهرس الموضوعات




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com